رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

حجية

الحديث النبوي

مجموع مقالات نفيسة في الدفاع عن السنة الشريفة

للعلامة / محمد إسماعيل السلفي
أمير جمعية أهل الحديث بباكستان سابقا
١٣١٤-١٣٨٧هـ

ترجمة الدكتور / مقتدى حسن الأزهري
رئيس الجامعة السلفية ورئيس تحرير مجلة محدث الدولية بالهند

قدم له
صلاح الدين مقبول أحمد

غراس
للطباعة والنشر والترجمة والإعلان

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

حجية الحديث النبوي

مجموع مقالات نفيسة في الدفاع عن السنة الشريفة

حقوق الطبع محفوظة
لشركة غراس للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

الكويت - شارع الصحافة - مقابل مطابع الرأي العام التجارية

هاتف: ٤٨١٩٠٣٧ فاكس ٤٨٣٨٤٩٥
الجهراء: ص. ب: ٢٨٨٨ - الرمز البريدي: ١٠٣٠
Website: www. gheras. com
E-Mail: info@ gheras.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

حجية الحديث النبوي

مجموع مقالات نفيسة في الدفاع عن السنة الشريفة

للعلامة / محمد إسماعيل السلفي
أمير جمعية أهل الحديث بباكستان "سابقًا"
١٣١٤ / ١٣٨٧هـ

ترجمة الدكتور / مقتدى حسن بيا سيه الأزهري
رئيس الجامعة السلفية ورئيس تحرير مجلتها صوت الأمة بالهند

قدم له
صلاح الدين مقبول أحمد

غراس
للنشر والتوزيع والدعاية والإعلان

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

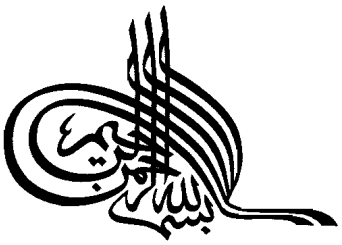

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم

بقلم: صلاح الدين مقبول أحمد

الحمد للّه رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن الكتاب والسنة هما المصدران الأساسيّان للإسلام، ولا تستغني الأمة عنهما في معرفة العقائد والعبادات والأحكام والمعاملات، وغيرها من أمور المعاش والمعاد.

* أما الكتاب فقد ضمن اللّه حفظه فقال:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

وقد مضى على نزوله أكثر من أربعة عشر قرنا، وما زال كنزا محفوظاً في صدور مئات الآلاف من المسلمين على اختلاف الألسنة والألوان، والبلاد والأجناس، ولا يزال غضّا طريا، ما دامت السماوات والأرض.

* أما السنّة، فهي -أيضا- وحي من اللّه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣-٤]

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣].

فما الحكمة بعد الكتاب إلا السنّة!

وقد قيض اللّه تعالى علماء جهابذة، ورجالا أكفاء لحفظ السنّة من الدسّ

والتحريف، وتدوينها بكلّ دقة وأمانة، ووعي وإخلاص تدوينا لا يوجد له نظير في تأريخ الأديان.

★ ★ ★

ولمّا نجح أعداء الإسلام من اليهود والأعاجم في تشتيت شمل الأمة وتفريق جمعها، نشأت بعض الفرق التي أنكرت بعض جوانب السنّة اتباعا لهواها، وأثارت الشبهات حولها، وخاصة خبر الآحاد منها. فهبّ لمواجهة هذه المؤامرة الدنيئة ودحر شراذمِها الضالّةِ الأئمةُ الأعلام أمثال: محمد بن إدريس الشافعي، وأحمد بن حنبل، والبخاري، وابن قتيبة، وابن حبان البستى، وابن حزم، والشاطبي، وابن قيم الجوزية وغيرهم -رحمهم اللّه تعالى-. وبجهودهم أصبحوا في ذمّة التأريخ.

ولكن أعادت فتنة إنكار الحديث تأريخها، حينما يئست الجيوش الصليبية من الاستيلاء على بلاد الإسلام عسكريا، ففكّرت في غزوها ثقافيا، وجنّدت رجالا لدراسة مصادر الإسلام لتحقيق هذا الهدف، فعملوا متستّرين بالدراسة والتحقيق، ما لم يعمله المسلمون لإمكانيتهم المحدودة.

«ومما يؤسف له أن تلامذة هؤلاء المستشرقين من المسلمين المثقفين ثقافة غربية، الملمّين بلغات أجنبيّة، اغتروا ببحوثهم المذيّلة بكثرة المصادر، ودراساتهم المغرضة، فانساقوا وراء مزاعمهم بدون تثبّت وتأكد، وردّدوا في كتبهم وأبحاثهم ما سجّله أساتذتهم، فمنهم من يفاخر بأخذه من المستشرقين، ومنهم يلبسه ثوبا إسلاميا جديدا».

هكذا نجح المستشرقون في إثارة الشبهات حول مصادر الإسلام، ووصل الأمر إلى «أن أقواما سخّرتهم شياطين الإنس لهدم الإسلام من داخله، بوسيلة مكشوفة تتمثّل بإظهار التمسّك بالقرآن، والاكتفاء به، لأن السنّة ظنّ، إذ لم تدوّن وقد تسرّب إليها الضعف، خصوصا سنّة الآحاد». (زوابع: ٦٩-٧٠).

وقد وصلت شظايا هذه الانحرافات الفكرية إلى العصر الحديث، فشنّ المنخدعون بالجهمية والمعتزلة قديماً، وبالمستشرقين حديثا، هجوما على العلوم الإسلامية عامّة، وعلى السنّة النبوية ودواوينها خاصة. وكل ذلك بدعوى التجرّد والموضوعية، والدراسة والتحقيق!! فهبّ علماء الأمة في العصر الحاضر لوأد هذه الفتنة في مهدها، وعلى رأسهم :

* العلامة محمد عبد الرزاق حمزة (١٣١١-١٣٩٢هـ).
* العلامة عبد الرحمن يحيى المعلّمى اليماني (-١٣٨٦هـ).
* العلّامة محمد بهجة البيطار الشامى (-١٣٩٦هـ).
* العلّامة عبد العزيز بن عبد اللّه بن باز (-١٤٢٠هـ).
* العلّامة محمد ناصر الدين الألباني (-١٤٢٠ هـ)-رحمهم اللّه تعالى-.
* العلامة ربيع بن هادي المدخلي-حفظه اللّه، وغيرهم، في العالم العربي.

وأمثال :

* الشيخ محمد حسين البتالوى (-١٣٣٨هـ).
* الشيخ عبد العزيز الرحيم آبادى (-١٣٣٦هـ).
* الشيخ عبد السلام المباركفورى (-١٣٤٢هـ).
* الشيخ ثناء الله الأمرتسري (١٣٦٧هـ).
* الشيخ محمد أبي القاسم البنارسي (-١٣٦٩هـ).
* الشيخ محمد إسماعيل السلفي (-١٣٨٧هـ)، وغيرهم-رحمهم اللّه-في شبه القارّة الهندية.

★ ★ ★

وقد كان العلّامة الشيخ محمد إسماعيل السلفي (أمير جمعية أهل الحديث بباكستان سابقا) من رجالات القرن الرابع عشر البارزين في مجال الدعوة إلى التوحيد الخالص، والاعتصام بالكتاب والسنّة، في شبه القارة الهندية.

وتميّز الشيخ على معاصريه (أمثال العلامة السيد سليمان الندوي، إمام الهند أبي الكلام آزاد، والأستاذ المودودي، والسيد أبي الحسن الندوي) باطلاعه الواسع على العلوم الشرعية، وإدراكه الدقيق لما تحتاج إليه البلاد من العقيدة الصحيحة، وتيقظه التام لما يحاك ضدّ السنّة النبوية من المؤامرات.

وعلى هذا، بنى خطبه وكتاباته على الوحى المعصوم من الكتاب والسنّة، التي صانت جانب العقيدة، وأيّدت حركة العمل بالحديث، ونصرت السنّة المحضة، ودافعت عنها، وردّت على المستخفين بها ومنكريها.

هذا الكتاب عبارة عن مجموع مقالات نفيسة في الدفاع عن السنّة المشرّفة، دبّجها يراع العلّامة الشيخ محمد إسماعيل السلفي بأسلوب علمى طريف، وقد جُمعت في كتاب بعنوان «حجية الحديث». وقد تشرّفتُ بنقل إحدى هذه المقالات إلى العربية بعنوان «موقف الجماعة الإسلامية من الحديث النبوي»، وهي مثل غيرها من المقالات في غاية الجودة والإتقان في موضوعها.

وقد هيأ اللّه تعالى شيخنا الدكتور مقتدى حسن الأزهري (رئيس الجامعة السلفية، ورئيس تحرير مجلتها "صوت الأمة" بنارس الهند)، للتعريف بالآثار العلمية لهذا العالم الجليل الفذّ، فنقل كتابه النافع المعروف بـ"حركة الانطلاق الفكري وجهود الشاه ولي اللّه في التجديد" إلى العربية، الذى نال إعجاب القرّاء في العالم الإسلامي.

ثمّ نقل تلك المقالات القيّمة أيضاً إلى العربية قبل مدّة، ولكنها بقيت حبيسة الملفّ لسبب أو آخر.

وها هي الآن تنشر هذه المقالات النافعة، التي أدّت دورها على المستوى

المطلوب في حينها، ولا يزال الشباب المثقّف في حاجة إلى مثلها، لمواجهة هذا النوع من الهجوم المنكور على السنّة المشرّفة.

فجزى اللّه العلّامة المؤلّف خير الجزاء، على ما قدّم من أعمال علميّة هادفة، وكتابات رصينة ناجحة في إثبات حجية الحديث، والدفاع عن السنّة.

وهنيئا لشيخنا الدكتور مقتدى حسن الأزهري-حفظه اللّه-للقيام بنقل هذا التراث العلمي الماتع إلى العربية، حتى يتعرّف أهلها على مؤامرات أعداء الإسلام من الخارج، ودسائس خصوم السنّة من الداخل، وعلى الجهود المبذولة لصدّها ومواجهتها من قبل علماء الحديث في شبه القارة الهندية.

وأخيرا أدعو اللّه العلى القدير-سبحانه وتعالى-أن يوفقنا للذود عن حياض الكتاب والسنّة، ويدخلنا في زمرة أولئك العدول الذين ورد فيهم الحديث:

«يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين». [«هداية الرواة إلى تخريج أحاديث المصابيح والمشكاة»: لابن حجر العسقلاني (١/ ١٦٣ رقم ٢٣٩)].

الجهراء- الكويت

يوم الخميس: ٨|٤|١٤٢٨هـ

٢٦|٤|٢٠٠٧م

كتبه

صلاح الدين مقبول أحمد

«غفر اللّه له ولوالديه ومشايخه وإخوانه»

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

ترجمة المؤلف

العلامة محمد إسماعيل السلفي[١]

(١٣١٤-١٣٨٧هـ=١٨٩٥-١٩٦٨م)

قيّض اللّه للأمة الإسلامية علماء أكفاء، ورجالا أوفياء، على تعاقب الأجيال والأزمان، قاموا بنشر العقيدة الصحيحة، وبثّ علم الكتاب والسنة، ونذروا أنفسهم للذود عن حياضهما، والدفاع عن حدودهما، بكل ما لديهم من وسائل وإمكانيات.

ومن هؤلاء السادة الميامين الأفذاذ الذين تتلألأ أسماؤهم في صفحات التأريخ الديني لشبه القارة الهندية: «العلامة محمد إسماعيل السلفي».

---

(١) من مصادر ترجمته:

- «شرح مشكاة المصابيح» (مقدمة ابن المؤلف) (١|١٤-١٩).
- حجّية الحديث للمؤلف (مقدمة الناشر) (ص ١١-١٣).
- «حركة الانطلاق الفكري» (مقدمة المترجم) (ص ١١-١٢) طبعة الجامعة السلفية بنارس الهند.
- «جهود مخلصة في خدمة السنّة المطهرة» للدكتور عبد الرحمن الفريوائي (ص١١٢) طبعة السلفية بالهند.
- مجلة الاعتصام الأسبوعية بلاهور (عدد شهر مارس ١٩٦٨، يونيو ١٩٦٨م).
- تأريخ أهل الحديث في مدينة «غوجرا نواله» للشيخ عبد اللّه المعروف بـ «أهل الحديث».
- «نقوش عظمت رفته» آثار العظمة الماضية: للأستاذ محمد إسحاق بهتي.
- مخدوم العلماء مولانا محمد إسماعيل السلفي: للكاتبة سعدية أرشد.

ولادته ونشأته:

ولد العلامة محمد إسماعيل بن محمد إبراهيم السلفي حوالي سنة ١٣١٤ هـ الموافق ١٨٩٥ م، في قرية «دهونيكي» في نواحي «وزير آباد»، بمديرية «غوجرا نواله» بباكستان، في أسرة محافظة على الدين، ومتمسكة بأخلاقه وآدابه. وقد تولىّ بعض أفرادها مناصب عالية فى الحكومة المغولية فى الهند قديماً.

وكان أبوه الشيخ محمد إبراهيم (من تلاميذ العلامة الحافظ عبد المنان الوزير آبادى) عالما فاضلا، عاملا بالكتاب والسنّة، ورعا تقيا. وكان بحكم مهنته طبيبا نطاسياً، وخطاطا ماهرا (هو الذي خطّ بيده كتاب «تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي» للعلامة عبد الرحمن المباركفوري، فطبع أول مرة على الحجر في أربعة أجزاء، وصوّر فيما بعد أيضا عدّة مّرات).

نشأ الشيخ في هذه البيئة نشأة دينية، وتربّى تحت رعاية أبيه على حبّ العلم والعلماء.

رحلته لطلب العلم:

تلقّى تعليمه الابتدائي في قريته على يد أبيه؛ وغيره من العلماء. ثم رحل إلى «وزير آباد»، و«دهلى» و«أمر تسر» و«سيالكوت» وغيرها من المدن، التي كانت تعتبر من مراكز العلم الديني حينذاك، فجلس في حلقات علمائها العاملين في مجال التعليم والتربية، المعروفين بالعلم والدين، والزهد والتقوى، ورجع بحظّ وافر.

شيوخه: من شيوخه المعروفين الذين استفاد منهم كثيرا:

- الشيخ محمد إبراهيم (أبوه) «دهونيكي».
- الشيخ عمر الدين الوزير آبادي «دهونيكي».

- الشيخ الحافظ عبد المنّان الوزير آبادى الملقب بـ «أستاذ فنجاب» (صاحب أكبر الحلقات الحديثية بعد شيخه: السيد نذير حسين المحدث الدهلوي) (وزير آباد).

- الشيخ عبد الجبار العمر فوري (تلميذ السيد نذير حسين) (دهلى).

- الشيخ قاسم على (دهلى).

- الشيخ عبد الغفور الغزنوي (أمر تسر).

- الشيخ عبد الرحيم الغزنوي (أمر تسر).

- الشيخ محمد حسن المفتي الديوبندي (مؤسس الجامعة الأشرفية بلاهور) (أمر تسر).

- الشيخ محمد حسين الهزاروي.

- الشيخ محمد إبراهيم الملقب بـ«مير» السيالكوتي (سيالكوت).

- والشيخ أبو بكر خوقير (مكة المكرمة) (أخذ منه إجازة التدريس والإفتاء).

هذا، ويصل إسناده إلى النبي ﷺ بأربع وعشرين واسطة، وذلك بروايته عن شيخه الحافظ عبد المنان، عن شيوخه: السيد نذير حسين، والشيخ حسين ابن محسن الأنصارى، والشيخ عبد الحق البنارسى (تلميذ الإمام الشوكانى)، رحمهم اللّه تعالى.

مناصبه:

بعد ما أخذ إجازة التدريس والإفتاء من شيوخه، دخل في معترك الحياة العملية، واحتل مناصب عديدة لكفاءته البالغة، منها:

- تولى الخطابة في «جامع أهل الحديث» بغوجرا نواله إثر تخرّجه، بتزكية من شيخه العلّامة محمد إبراهيم مير السيالكوتى، وإشارة من العلامة أبى الوفاء

ثناء اللّه الأمر تسرى، وذلك سنة ١٣٣٩هـ الموافق ١٩٢١ م. وآثر هذه الخطابة والتدريس فى «الجامعة المحمدية» فيما بعد على التدريس في الجامعة الإسلامية بالمدينة الطيبة، حين استدعى له من قبل سماحة الشيخ العلامة عبد العزيز بن عبد اللّه بن باز (نائب رئيس الجامعة آنذاك)، وأرسل إليها مكانه العلامة المحدّث محمد الغوندلوى. ولقد شاهدت البلاد خلال نصف قرن تغييرات كثيرة في الأوضاع الدينية والسياسيّة، ولكنه لا زال مستمرا على منهجه في الدعوة إلى اللّه، بكل رزانة وثبات، وبدون هوادة حتى وفاته.

- تولى رئاسة هيئة التدريس في الجامعة المحمدية بعدما أنشأها في «غوجرا نواله».

- اختير عضوا في «لجنة أهل الحديث» التي شكّلت لتنظيم الجماعة في فنجاب.

- عيّن مشرفاً على مقر «جمعية تنظيم أهل الحديث» بفنجاب، التي أنشئت تحت إشراف الشاه محمد شريف الغريالوي سنة ١٩٣١ م.

- انتخب أمينا عاما للجنة العمل لجمعية «أهل الحديث» التي كونت في المؤتمر السنوي للجمعية بدهلى سنة ١٩٤٦م.

- أنشئت جمعية أهل الحديث بباكستان بجهوده سنة ١٩٤٨م، تحت قيادة السيد محمد داود الغزنوى، وذلك بعد وفاة العلامة ثناء اللّه الأمر تسرى وانتخب أمينا لها بعد إنشائها بمدة قريبة، ثم أميرا لها، حتى وفاته سنة ١٩٦٨م.

- كان أحد الأعضاء الثلاثة (مع السيد محمد داود الغزنوى، والشيخ عطاء اللّه حنيف الفوجيانى) من قبل الجمعية في المجلس التنفيذي لحركة «ختم النبوة» التأريخية أيام سنة ١٩٥٣م، أنشئت هذه الحركة لمقاومة القاديانية، وكشف زيفها، ومطالبة من الحكومة بالقضاء عليها، وقد عوقب في هذه القضية بالسجن دون غيره من زملائه، وذلك بتهمة الإخلال بأمن البلاد في زعمهم.

نشاطه في مجال الدعوة والإرشاد :

وقف حياته للدعوة إلى الكتاب والسنة، على منهج السلف الصالح، ونشر العقيدة الصافية من أكدار الشرك والوثنية والإلحاد. وقام-بهذا الصدد-بنشاطات دعوية واسعة تدلّ على إخلاصه وطموحه، في هذا المجال، منها:

- عقد مؤتمرا سنويا لجمعية أهل الحديث لعموم الهند سنة ١٩٢٤م في عنفوان شبابه، تحت رئاسة العلامة الحافظ محمد الغوندلوي (أستاذ الجامعة الإسلامية بالمدينة سابقاً)، ثم بعد انفصال باكستان عن الهند، عقد عدة مؤتمرات دعوية في عهد تولّيه أمانة الجمعية وإمارتها.

- أجريت جريدة الاعتصام الأسبوعية، فكان الشيخ مشرفا عليها، والأستاذ محمد حنيف الندوي مديرًا لها، والشيخ محمد عطاء اللّه حنيف (صاحب الترخيص لها) ناشرا.

- كان عضوا بارزا في الوفد التبليغي الذي قاوم «حركة شدهي الهندوسية» التي بدأت تهنّد المسلمين سنة ١٩٢٤م، في منطقة «مل كانون».

- كان يشترك في المؤتمرات الإسلامية، والندوات الدينيّة في أنحاء البلاد.

- كان من أعمال حياته اليومية: الاستمرار على إلقاء الدروس في تفسير القرآن الكريم بعد صلاة الصبح، والاهتمام بتعليم التّجار والعمال ترجمة معاني القرآن بعد الدرس، بصفة خاصة ومستمرة.

هذا كله مع تدريسه في الجامعة المحمدية، وقيامه بالإفتاء، وغيرهما من أمور الدعوة والإرشاد.

نشاطه السياسي :

كان عنصراً هاماً في كل نشاط ديني وسياسي، زهاء نصف قرن. وتأثر في

مجال السياسة بالقائد المحنّك إمام الهند «أبي الكلام آزاد» (صاحب «تفسير ترجمان القرآن» بالأوردية، وأول وزير للتعليم والتربية في الهند، بعدما تحرّرت شبه القارة الهندية من الاستعمار الإنجليزي سنة ١٩٤٧م) وساهم في الحركات السياسية من وجهة نظره الدينيّة.

ومن أعماله في هذا المجال:

- أيّد أبا الكلام آزاد على الجهاد ضد الاستعمار البريطاني سنة ١٩٢١م.

- عمل بكل جدّ وإخلاص في «حركة الخلافة» (التي أنشئت لإعادتها، بعد القضاء عليها في تركيا)، وفي حركة عدم التعاون مع الاستعمار، وفي جمعية علماء الهند. وتحمّل مشقات الأسر والسجن من قبل الإنجليز عدّة مرات. وقد صدر القرار بمنعه عن الخروج من «غوجرا نواله» أيضا، وذلك بعد الاستقلال.

- مثّل جمعية «أهل الحديث» لدي الحكومة الباكستانية للمطالبة لإقامة الحكم الإسلامي في باكستان، وذلك مع السيّد محمد داود الغزنوي.

- وكان عضوا في اللجنة التي شكلت لتدوين «الدستور الإسلامي» سنة ١٩٥٢م، تحت رئاسة السيد سليمان الندوى بمدينة كراتشى.

نشاطه العلمي:

عمل الشيخ في مجال الدعوة والإرشاد، والتدريس والإفتاء، ما يقارب خمسين سنة، وكتب في الجرائد والمجلات مئات المقالات، وألّف كتبا ماتعة نافعة، وتخرج على يده في «الجامعة المحمدية» بغوجرا نواله، في هذه الفترة الطويلة ألوف من الطلاب، الذين قاموا بخدمات جليلة في مجالات شتى في أنحاء البلاد، منهم:

- الأستاذ محمد حنيف الندوي (صاحب كتابات قيّمة حول علوم القرآن وفلسفة الإسلام).

- الشيخ محمد عبد اللّه (أمير جمعية أهل الحديث بباكستان سابقا).

- الشيخ الحافظ محمد إسماعيل ذبيح (وهو خطيب مصقع، ومدرس ناجح).

- الشيخ معين الدين اللكهوي (كان معروفا بالبصيرة السياسية).

- الأستاذ محمد إسحاق بهتي (المعروف بكتابة تراجم العلماء والساسة في شبه القارة الهندية).

- الشيخ محمد سليمان الكيلاني (وهو مترجم لعديد من الكتب العربية والفارسية إلى الأردية).

- الشيخ خالد الغرجاكهي (مؤسس إدارة إحياء السنة بباكستان).

- الأستاذ عبد الحميد الصديقي (مترجم صحيح مسلم إلى اللغة الإنجليزية والأردية).

- الحافظ عبد المنان النورفوري (صاحب الانتقاد على فيض الباري).

مؤلفاته:

كان -رحمه الله- مع ممارسته النشاطات الدينية والسياسية المتنوعة: كاتبا بارعا، ومؤلّفا قديرا، ذا أسلوب شيق، وطراز رصين. وكل ما كتبه، كتبه على مستوى المسئولية، وهو يتميّز بالدقة والأمانة، والتحقيق والأصالة، في جميع كتاباته من جهة، ومن أخرى بالاستدلال البديه من الكتاب والسنة وآثار سلف الأمة، ما جعله يفوق أقرانه في هذا المجال.

ومن مؤلفاته المعروفة:

- شرح وترجمة «مشكاة المصابيح» (باللغة الأوردية).

- شرح المعلقات السبع (بالعربية، والأوردية).

- صفة صلاة النبي ﷺ.

- موقف الجماعة الإسلامية من الحديث النبوي (نقله إلى العربية صلاح الدين مقبول أحمد كاتب هذه السطور)

- رسالة في مسألة حياة النبي ﷺ.

- أهمية الحديث في التشريع الإسلامي.

- مكانة «السنة» في ضوء القرآن.

- حجية الحديث في ضوء سيرة النبي ﷺ..

- حركة الانطلاق الفكري وجهود الشاه ولي اللّه في التجديد (نقل هذه الكتب إلى العربية أستاذنا الدكتور مقتدى حسن «رئيس الجامعة السلفية»، ورئيس تحرير مجلة «صوت الأمة» بالهند).

- الخطب السلفية.

- الفتاوى السلفية.

- النصيحة.

- مذهب أهل الحديث والحركات الحديثة.

- مذهب الإمام البخاري.

- رسالة زيارة القبور.

- تخطيط وجيز للحكومة الإسلامية.

- الحكومة الإسلامية ومسئولياتها.

هذا، وقد كتب الشيخ مقالات كثيرة، حول مواضيع متنوعة أخرى، نشرت

على مئات الصفحات من الجرائد، مثل«أهل الحديث» الهندية، و«الاعتصام»، و«منهاج»، و«إمروز»، و«كوهستان»، و«إسلامي زندكى» و«الإخوان»، و«مسلمان»، «وتوحيد» الباكستانية، وغيرها من المجلات والصحف، والآن- بحمد اللّه وفضله- جمعت هذه المقالات من بطون الصحف والجرائد والمجلات بغية النشر والتوزيع، كما ذكره ولده في مقدمة «شرح مشكاة المصابيح» للمؤلف. عسى اللّه أن يوفقه لذلك.

مآثره:

خلّف الشيخ مآثر خالدة لا تنفّك عن ذكره، وخاصة بعد انفصال «باكستان» عن «الهند» قام بجهود جبارة، تتلخص في المجالات الآتية:

١- إقامة المستوطنات:

ساهم الشيخ مساهمة فعّالة في مساعدة الأسر المهاجرة من داخل الهند، إلى باكستان بعد نشأتها، سنة ١٩٤٧م.

وأقام لها المستوطنات في مدينة «غوجرا نواله»، ووفّر لها ما أعانها في عيش حياة كريمة.

٢- بناء المساجد:

وكان مهتماً بإنشاء المساجد في الأحياء التي كانت في حاجة إليها. وجدير بالذكر أنه حينما جاء إلى غوجرا نواله، كان فيها مسجد واحد فقط لأهل الحديث، وكان عددهم سبعة أفراد، ولكنه وضع حجر أساس المسجد الرابع والخمسين، وذلك قبل وفاته بعدّة أيام.

وأما بالنسبة لعدد أفراد الجماعة الآن في غوجرا نواله، فلعلّه لا يوجد له نظير في مدن باكستان كلّها.

٣- إنشاء المدارس الدينية :

أنشأ «الجامعة المحمدية» بغوجرا نواله سنة ١٩٢١م. وكذلك جال الأنحاء النائية من البلاد، خاصة منطقة «بلتستان»، ومنطقة «كشمير الحرّة»، وأنشأ فيها مدارس دينية كثيرة، تهتم بتدريس الكتاب والسنة على منهج السلف الصالح.

وفي الأخير أولى الشيخ اهتمامه البالغ «الجامعة السلفية» بـ«فيصل آباد» بباكستان، وساهم مع زملائه أمثال السيد محمد داود الغزنوي والشيخ محمد عطاء اللّه حنيف وغيرهما، في تطوير مشاريعها البنائية والتعليمية مساهمة لا تنسى.

وجدير بالذكر أن الشيخ السلفي راسل علامة الجزيرة فضيلة الشيخ عبد العزيز بن عبد اللّه بن باز أيام رئاسته للجامعة الإسلامية بالمدينة الطيبة، لإرسال المدرسين إلى «الجامعة السلفية»، وحظي طلبه بالموافقة على ذلك بعد وفاته- رحمه اللّه تعالى-.

وكذلك أسّسٌ «جامعة تعليم القرآن الحديث للبنات» بغوجرالفرالة سنة ١٩٦٧م، وذلك قبل وفاته بنحو تسعة أشهر.

وفاته :

أجمع معاصروه على أنه كان إماماً في علوم الكتاب والسنة، وخطيبا مصقعًا، ومدرّسًا ناجحاً، وكاتبا مجيدا، واسع الاطلاع، غزير الإنتاج، ثاقب الذهن، متقد الفكر، ورعا تقيا، حليما قنوعاً يرضى باليسير، ولا يتطلع إلى الكثير.

وكانت حياته مترامية الأطراف، متعددة الجوانب، قضاها حافلة بالنشاطات في مجال الدعوة والإرشاد، والدرس والإفتاء والعلم والتحقيق، والذود عن حياض الكتاب والسنة، والدفاع عن منهج السلف الصالح، حتى وافاه الأجل المحتوم في «غوجرا نواله» في (العشرين من شهر ذي القعدة سنة ١٣٨٧ هـ

الموافق العشرين من فبراير سنة ١٩٦٨م، يوم الثلاثاء بعد صلاة العصر) «فإنا للّه وإنا إليه راجعون».

اللّهم اغفر له، وارحمه، وعافه واعف عنه، وأكرم نزله، ووسع مدخله، في جنة النعيم. آمين.

جنازته:

كانت جنازته حافلة مشهودة، وقد توارد أهل التوحيد من أهل الحديث والسنّة والأثر إلى «غوجرا نواله» من كل حدب وصوب بعد سماع نبأ وفاته، حتى اكتظ إستادها الكبير بالمشيّعين، وتوقّفت حركة المرور في الشوارع المجاورة له لكثرة الازدحام. وصدق **قول الإمام أحمد بن حنبل** عليه: «الفرق بيننا وبين أهل البدع يوم الجنائز».

قال **الأستاذ شورش الكاشميرى** (الشاعر المعروف، والكاتب البارز) فى وصف جنازته:

«لما حملت جنازته في الساعة الثانية ظهرا في (٢١|فبراير ١٩٦٨م) إلى مثواه الأخير، دمعت عيون زهاء مائة ألف من المشيعين، غير الأطفال والنساء البواكى اللاتي كنّ على سطوح البيوت والمنازل على جنبي الشارع. وقد تمثّل أمام الأعين أنه هكذا تكون جنازة عباد اللّه المخلصين.

وكان شعور خاص انتاب على القلب حين رفع الجنازة، وتمثل ذلك فى حزن شباب الجيل الجديد بهذه المناسبة. كم من المثقفين وطلبة الكليات والجامعات، فقدوا السيطرة على أنفسهم، وكثير منهم على عيونهم. ثم جاء وقت أداء الصلاة عليه، فصلّى عليه الإمام والمأمومون بكل حزن وملال، فكان المنظر أشدّ رقّة وتأثيراً في القلوب.

وأشهد اللّه أن مثل هذه الجنازة لا تكاد تتيسّر لأولئك الحكّام والملوك الذين

يدّعون (أنا ربكم الأعلى)، ويعلنون حكمهم المطلق في ملك اللّه تعالى، وينسون ساعة الموت» (جريدة «جتان» الأسبوعية، ٢٦ فبراير ١٩٦٨م).

عاش رَحِمَهُ اللَّهُ زهاء خمس وسبعين سنة، قضى منها قرابة نصف قرن من حياته في «غوجرا نواله»، في مجال التدريس والإفادة، والدعوة والإفتاء، والكتابة والخطابة معزّزا ومكرما. خرج من زاوية الخمول ووصل إلى سماء الرفعة والشهرة، وفاق أقرانه في العلم والعمل والزهد والتقوى، مع طيب خلقه وحسن تعامله مع الخاصة والعامة من الناس، ورئى أثر ذلك في جنازته، حين ودّعه الجمّ الغفير منهم إلى مثواه الأخير.

«وقد كان وجود الشيخ ذا قيمة عالية، يذكّرنا نزاهة السلف، وفقرهم، وعلو سلوكهم، وسمو فكرهم ونظرهم، وقد طلع نجما ساطعاً على أفق «غوجرا نواله»، هدى من ضلّ، إلى طريق الحرم، وأنشأ فيهم عاطفة العمل، وأثار فيهم الشعور بالتقوى، وأجبر الخيال بحرقته على التغني بما يفيد.

ومن الذي لم يحزن يوم وفاته ؟دمع العلم والنظر، وحزنت سلسلة الزهد والعبادة، وناحت عروس الخطابة، حيث دفنت زينة جبينها تحت كومة من التراب» (مجلة «مهك» غوجرا نواله: ص٤٢٩).

هكذا أفل هذا الكوكب النير، بعدما تلألأ نصف قرن من الزمان على سماء العلم والمعرفة في «غوجرا نواله»، فصارت له مسكنا في حياته، ومدفنا بعد مماته. وفي مثله قال المتنبي:

ما كنت أحسب قبل دفنك في الثرى أن الكواكب في التراب تغور

ما كنت آمل قبل نعشك أن أرى رضوى على أيدى الرجال تسير

هكذا رحل- بعد هذا الجهاد الطويل في ميدان العلم، وإعداد الدعاة، إقامة مشاريع الخير - إلى الدار الآخرة، تاركا وراءه جما غفيرا من تلامذته ومحبّيه وأولاده، داعين له ومستغفرين. أرجو اللّه عز وجل أن يصدق عليه ما رواه الإمام

مسلم في صحيحة، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

«إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة:

- إلا من صدقة جارية،

- أو علم ينتفع به،

- أو ولد صالح يدعو له». (صحيح مسلم: رقم ١٦٣١).

«اللَّهم عبدك هذا كان يحبّ الإسلام ويتبع سنة رسولك، ويحبّ الحديث وأهله، ويؤاسي الفقراء، ويضحّي في سبيل النهوض بالأمة، فأدخله الفردوس الأعلى مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا» (جريدة الاعتصام: ١/ مارس ١٩٦٨م-من مقال العلامة الفوجياني).

ميزاته وخصائصه:

من ميزاته في مجال العلم والعمل، والدعوة إلى اللَّه، والإسهام في السياسة، ومحاولة الاتحاد بين المسلمين، التي فاق بها أقرانه:

* أنه كان مكتبة سيارة لعلوم الكتاب والسنة، والفقه والأدب، والكلام والفلسفة وغيرها من الفنون، وذا باع طويل في التعليم والتربية، وصاحب قلم سيال في الكتابة، وأسلوب بديع في الخطابة، وتجربة ناجحة في التنظيم والإدارة، وحظ وافر في سياسة الدولة، التي كان يعمل لها بصمت، وكان يريد صبغها بصبغة دينيّة.

* كان يثير الدرر والنفائس في خطبه ومحاضراته بكلامه الموزون، البعيد عن الحشو والزوائد، فكادت تكون خطبه متساوية لكتاباته في قوة البلاغة، وجزالة التعبير، وهذا قلّما يحصل للخطباء والمحاضرين.

* كان متقدما في كل المناسبات التي تقّرب وجهات النظر المختلفة، حول

المسائل الدينية والقضايا السياسية، وترمى إلى الاتحاد بين المسلمين.

وذات مرة قرر أهل مدينة «غوجرا نواله» من أهل الحديث (السلفيين) والديوبنديين والبريلويين على اختلاف مذاهبهم الفقهية، أن تقام صلاة الجمعة في مسجد واحد، وتصلى فيه الطوائف المذكورة وراء إمام واحد على التناوب. فكان الشيخ خطيب السلفيين في أول جمعة، ووجد فرصة لإلقاء الخطبة ثلاث أو أربع مرّات. لم تستمر هذه السلسلة، ولكن عددا كبيراً من الطبقة الذكية الواعية من الديوبندية والبريلوية تأثروا بالشيخ، وبدأوا يصلون وراءه صلاة الجمعة في المسجد الجامع لأهل الحديث، وقلت النفرة والكراهية ضد السلفيين إلى حد ما. وكان هذا نتيجة خطبه المتوازنة المدللة بالكتاب والسنة.

وقد جاء في افتتاحية جريدة «نواء وقت» اليومية (٢١/ فبراير ١٩٦٨م) ما يشير إلى مثل هذه الأوصاف الحميدة أبلغ إشارة، فقد قال كاتبها:

«... لم يكن عالما فاضلًا، وخطيبا مصقعا، ومتكلما ذا أسلوب ساحر فحسب، بل كان سياسيا صامتا، وداعية قويا للاتحاد الإسلامي. وقد كان الصبر، وضبط النفس، والتحمل والتسامح من خصائص طبعه، ولم يكن ضدّ المنافرات الحزبية فقط، بل بذل جهده في إزالة الخلافات الفرعية بين المذاهب المختلفة. ولم يكن يرى فصل الدين عن الدولة، ولهذا حاول طول حياته، مع خدماته الدينيّة، محاولة مخلصة أن تصبغ سياسة الدولة بصبغة إسلامية».

* كانت تعقد ندوة في «غوجرا نواله»، قبل استقلال الهند، بعنوان «لماذا أحبّ ديني؟»، يشترك فيها المسلمون والهندوس والنصارى على السواء، وعالم منهم كان يمثّل دينه، ومثّل الشيخ دين الإسلام فيها عدّة مرات.

* كانت آراؤه تتّسم- دائماً- بالاتزان والموضوعية، في نقد أفكار الأفراد والجماعات. ذات مرة سئل عن مقالات الأستاذ المودودى التي كانت تنشر في مجلة «ترجمان القرآن» بعنوان «المسلمون والاضطرابات السياسية المعاصرة» -

وكانت تنقد الأحزاب السياسية في شبه القارة الهندية بشدة، التي كانت تدعو إلى استقلال الهند من براثن الاستعمار- فقال بكل رزانة: هذا أيضا يعتبر نوعا من تأييد الإنجليز بالكلام، كما أن كثيرا من الناس يؤيدونهم في هذه البلاد.

* قضى الشيخ عدة أشهر وراء قضبان السجن، مع كبار علماء باكستان من مختلف المدارس الدينية والفكرية، ولكنه هو الذي كان يقدّم لإلقاء الدروس وخطب الجمعة والعيدين، وللقيادة في المناسبات الإسلامية الأخرى بإجماع الموجودين هناك.

* كانت له نظرة ثاقبة في معرفة معدن الرجال، وإعدادهم لممارسة الحياة العلمية والدعوية. فكان هو السبب-بعد اللّه عز وجل-لإخراج السيد محمد داود الغزنوى (السياسي المحنّك المعروف، ورئيس حزب المؤتمر في فنجاب قبل استقلال الهند)، من متاهات السياسة إلى رحاب الكتاب والسنة، حتى تولى رئاسة جمعية أهل الحديث في باكستان بعد الاستقلال، مع ممارسته السياسة تحت قبّة البرلمان، وذلك بعد وفاة العلامة ثناء اللّه الأمر تسرى رَحِمَهُ اللَّهُ.

وكان **العلامة الشيخ محمد عطاء اللّه حنيف الفوجيانى** (صاحب التعليقات السلفية على سنن النسائي) رجلا صامتا يعيش في ركن من المدرسة، يفوح بالنشاط في العلم والتحقيق، فحثّه على الخروج من زاوية الخمول إلى بحبوحة العمل الجماعي، حتى أثرى المكتبة الإسلامية بإنتاجاته العلمية والتحقيقية في علوم الكتاب والسنة.

* كان عاملا بالكتاب والسنة على منهج السلف الصالح، مدافعا عن الحديث وأهله طول حياته، مع هذا كانت له علاقات ولقاءات مع كبار علماء المدارس الفقهية الأخرى.

ولقد أثنى عليه **الشيخ محمد جراغ** (الأمين العام للمدرسة العربية، ورئيس جمعية اتحاد العلماء بباكستان) ثناء بالغا بعد وفاته، ثم قال:

«تحوى علاقتي بالشيخ نصف قرن من الزمان. وبالرغم من اختلافنا فى المذهب الفقهي، لم ينشأ أي مضض بيننا خلال هذه الفترة الطويلة. والآن أرى أن رفيقاً من هذا النوع من القدم فارقَنا، وسلّمنا إلى حضن الغمّ والحزن» (مخدوم العلماء: ٣٧).

* كان متزنا في أقواله وأفعاله، معتدلا في تقدير المواقف والآراء. ووصفه هذا أكسب منصفين من الجماعات الأخرى، يستفيدون منه ويدافعون عنه. وقد كان **الأستاذ مسعود عالم الندوي** (أبرز تلامذة العلامة محمد تقي الدين الهلالى في شبه القارة الهندية، ومدير دار العروبة، وعضو الجماعة الإسلامية، ومترجم بعض كتب المودودى إلى العربية) ممن يواظب على أداء صلاة الجمعة وراءه، مع بعض المكتوبات الأخرى. وكان معه في السجن أيضا أيام الدفاع عن مبدأ ختم النبوة فى باكستان.

وجدير بالذكر في هذه المناسبة ما نقله لنا **الشيخ عبد الحميد بن عبد الجبار الرحمانى** (رئيس مركز «أبوا الكلام آزاد» للتوعية الإسلامية بنيودلهى)، عن **شيخنا العلامة عبد الغفار حسن** رَحِمَهُ اللَّهُ أيام تدريسه في الجامعة الإسلامية بالمدينة الطيبة (وكان عضوا مؤسسا بارزا في الجماعة الإسلامية، وكان ينوب عن المودودى فى حين غيابه) قال:

«ذات مرّة ذكر الأستاذ المودودى الشيخَ محمد إسماعيل السلفي بما لا يناسب مقامه، فردّ عليه الأستاذ مسعود عالم الندوي، مدافعا عنه، بأن مكانته أرفع من انتقادك عليه».

هذا، ولم يدافع عنه إلا إنه كان مطلعاً على جهده وإخلاصه فى الدعوة إلى اللّه عن كثب. فرحمهم اللّه جميعا.

* كان من المبادرين إلى الرّد على كلّ من تسوّلت له نفسه للتشكيك في ثوابت الإسلام، وتهوين العمل بالكتاب والسنة، والنيل من كرامة أهل الحديث، ولم

يبال في ذلك أحدا، ولم يخف في سبيل الدفاع عن الإسلام وعقائده ومصادره لومة لائم.

وانطلاقا من هذا المبدأ، سجّل صفحات مشرقة فى تأريخ الدفاع عن السنة النبوية المشرّفة، فقد ردّ فى هذا الباب على رئيس القضاة فى المحكمة العليا، وعلى قيادات الديوبندية والبريلوية والجماعة الإسلامية، وخاصّة على كبار منكرى السنّة في شبه القارّة الهندية. فجزاه اللّه خيرا عن الإسلام والمسلمين.

ثناء كبار العلماء والأدباء عليه:

أثنى عليه العلماء والأدباء، والشعراء والكتاب، ورؤساء التحرير والصحفيون، والمذيعون، والأساتذة وطلبة العلم في الكليات والجامعات: ثناء بالغا في حياته وبعد مماته، وتناولوا شخصيته الفذة، وآثاره العلمية، ومآثره الخالدة بالدراسة والتحليل في بياناتهم، وكتبهم ورسائلهم، وبحوثهم ومقالاتهم، وافتتاحياتهم وبرامجهم الإذاعية وغيرها.

وإليكم ثناء بعض كبار العلماء والأدباء عليه فى شبه القارة الهندية:

* ذكر **العلامة المحدث عبيد اللّه بن عبد السلام الرحماني** (صاحب مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح) في تقديمه لكتاب «حركة الانطلاق الفكري» (٥-١٠) دور الباحثين الأمناء الذين يتجردون من النزعات الشخصية في سبيل الوصول إلى الحقائق العلمية الثابتة، ثم قال:

«ومن هؤلاء الباحثين الأفذاذ **فضيلة الشيخ العلامة محمد إسماعيل بن محمد إبراهيم السلفي** رَحِمَهُ اللَّهُ -أمير جمعية أهل الحديث في باكستان الغربية».

وذكر محاولة متعصبة المذاهب للنيل من أعلام المحدثين، فقال:

«وردّا على مثل هذه المحاولة الخاطئة، ودفاعا عن السنة النبوية الشريفة وعن السلفيين فى الهند، ألف صديقنا كتابه القيم مخلصا مدافعا، فلقي قبولا فى

الأوساط العلمية، وأفاد كل من أقبل عليه سليم النية حسن الإرادة».

* كتب **العلامة الشيخ محمد عطاء اللّه حنيف الفوجياني** (صاحب التعليقات السلفية على سنن النسائى) مقالا عنه بعنوان «بطل الأمة الإسلامية الجليل وفاضلها النبيل : الشيخ محمد إسماعيل السلفي»، قال فيه :

«وا حسرتا على نعمة اللّه هذه العظمى التي سلبت منا أخيرا. إن القائد الديني الحبيب عند المسلمين، والشخص الحاكم على قلوب أهل الحديث، والخطيب المصقع فى العصر الحاضر، وأمير جمعية أهل الحديث بباكستان : الشيخ محمد إسماعيل السلفي فارقنا ملبّيا دعوة ربه عز وجل».

وما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدّما

(جريدة «الاعتصام» : ١ مارس ١٩٦٨م)

* واعترف **العلامة الأستاذ محمد حنيف الندوي** (أحد كبار علماء باكستان المعروف بكتاباته حول «القرآن» وفلسفة الإسلام) بفضله عليه قائلا :

«أكون غير شاكر، إن لا أذكر بهذه المناسبة تلك الشخصيات المحسنة والكتب القيمة التي بسببها نشأ الشوق إلى القرآن في قلبي وذهني، ونمت تلك الدواعي التي حافظت على ذوقي وفهمي. وجدير في هذه السلسلة بأن أذكر اسم أستاذي ومربيي الشيخ إسماعيل السلفي مع الاعتراف بعظمته العلمية بكل اعتزاز، بأن دخول أشعة حب القرآن وفهمه وإدراكه في قلبي، كان من فيض عناياته الخاصة بي. ثم تكونت في صورة المصباح بجهود العلامة السيد سليمان الندوى، والإمام أبي الكلام آزاد، والشيخ حميد الدين الفراهى، والأستاذ عبد الماجد الكانفورى» (تقديمه للسان القرآن : الجزء الأول).

* وقال **الأستاذ محمد إسحاق بهتى** (صاحب كتاب "فقهاء الهند"، والكتب العديدة في تراجم علماء القارة الهندية) عن شيخه الذي عاش معه مدة طويلة

مديرا لمكتب جمعية أهل الحديث بباكستان:

«كان الشيخ يتحلّى بخصائص كثيرة، قد أسداه اللّه تعالى إليه حظاً وافرا من متاع العلم، ومتّعه بنعمة العمل أيضا. قدّم فى «غوجرا نواله» خدمات جليلة كثيرة، جاء إليها سنة ١٩٢١م، وتوطّن هناك، وانهمك فى نشر التوحيد والسنة. وصارت هذه المدينة بعد سبع وأربعين سنة مدفناً له. كان الشيخ على مذهب فقهي خاص، ولكن حدود علاقته كانت تتسع لأصحاب المذاهب الفقهية الأخرى.» (نقوش عظمت رفته: ٢٤٢).

* أشاد **الأستاذ عبد الغفار أثر** (الأديب الكبير والكاتب القدير، ورفيقه وراء قضبان السجن) بذكره، فقال: «إنه ابن تيمية العصر الحاضر، وعارف أسرار الشاعر إقبال، وقدوة العلم والزهد، وعلامة شبه القارة الهندية الباكستانية، والداعي إلى الاتحاد بين المسلمين، مجاهد الاستقلال العظيم، قامع البدعة، وقائد الديني المعروف، والسياسي المحنك الشجاع، وبحر العلم والمعرفة الزخار، بطل الأمة الجليل، وفاضلها النبيل شيخ التفسير والحديث»، ثم قال:

«كان الشيخ بحكم شخصيته الجامعة فريدا، لا يوجد له نظير بين معاصريه، عاش زهاء خمس وسبعين سنة، وبذل أقصى جهده في تدريس القرآن والحديث ونشر التوحيد والسنة نحو نصف قرن من حياته».

ثم قال: «**عشت معه في السجن المركزي بلاهور، عدة أشهر**، وذلك أيام الدفاع عن مبدأ ختم النبوة، ووجدت فرصة للمجالسة معه في غرفة واحدة، ورأيته عن كثب، فإني لم أجده إنسانا عظيما فحسب، بل كان يتحلّى بخصائص نادرة كثيرة:

وخصوصيته الأولى: التي اتضحت عندي تمام الاتضاح، أنه لم يكن إماما وقائدا للعامة من الناس فقط، بل كان يعتبر تاج الرشد والهداية، وأمير العلم والحكمة بين طبقة العلماء والخواص من الناس أيضا، **كلما مسّت الحاجة أيام**

السجن إلى إلقاء خطب الجمعة والعيدين والدروس بعد الفجر، أو احتيجت إلى القيادة في المناسبات الإسلامية الأخرى، هو الذي كان ينتخب لها إجماعا بلا تردّد، مع أن كبار علماء الدولة وفضلائها، وخطباء المنابر المصاقع:

أمثال **السيد أبي الأعلى المودودي** (مؤسس الجماعة الإسلامية)، والسيد **عطاء اللّه شاه البخاري** (خطيب شبه القارة الهندية) **والشيخ أمين أحسن الإصلاحي**(الرجل الثانى بعد المودودى في الجماعة الإسلامية)، **صاحب زادة فيض الحسن**(من قادة البريلوية)، **والشيخ أبو البركات حسنات أحمد**(صاحب مسجد وزير خان، من كبار البريلوية)، وغيرهم من كبار العلماء من كل منطقة، كانوا يوجدون معه في السجن.

ومن خصائصه أيضا: «حسن خلقه وطيب تعامله مع الخاصة والعامة من الناس على السواء، الذى لم يكسبه مكانة مرموقة في المجتمع فحسب، بل صار الناس مشغوفين به ومحبين لهوشوهدت مظاهر ذلك في جنازته اللّهم اغفر له وارحمه، واعف عنه» (جريدة الاعتصام: ٨ مارس ١٩٦٨م).

* **قال الأستاذ شورش الكاشميرى**(الأديب المعروف): «اقشعرّ قلبي حينما سمعت أن الشيخ السلفي (أمير جمعية أهل الحديث بباكستان) انتقل إلى رحمة اللّه في (العشرين من فبراير ١٩٦٨م)، لا مفرّ لأحد من الموت ولكن عندما تفارقنا شخصية عزيزة علينا، تدور آثار سيرتها فى القلوب والأذهان، وينشأ الشعور العجيب بالفراغ الهائل.

كان الشيخ محمد إسماعيل صورة حيّة للرعيل الأوّل من المسلمين، الذين انحسر فيهم العلم والزهد، والغيرة والحمية للدين.

والآن يشمئز القلب على إفلاس المجتمع بأن العلم يزاحم من قبل الأوباش، والدين يحاط بالدعاة المهنيين، ويميل القلب إلى القول بأن الخرابات أفضل من العمران. ولكن لما يقع النظر على أولئك الوجهاء من الناس، الذين كان الشيخ

نموذجاً منهم: يطمئن القلب بأن الأرض لم تخل من عباد اللّه المخلصين.

وقد كان الشيخ في ظاهر حاله بادئا عليه التواضع والانكسار، ولكنه في الحقيقة كان منبع العلم، وجبل الغيرة على الدين. ولم يكن يهاب الأمراء والحكام. وبوصفه هذا صار سببا في زيادة هيبة المساجد والمدارس في قلوب الناس. ولم يعتبر مدح الملوك وإطراءهم شرفا لزاويته أبداً». (جريدة «جتان» الأسبوعية: ٢٦|فبراير ١٩٦٨م).

* أشاد **العلامة إحسان إلهي ظهير** (صاحب الكتب السيارة في الفرق، والأمين العام لجمعية أهل الحديث بباكستان سابقا) بذكر أئمة السلف الكبار، وأعمالهم الخالدة، وزهدهم وتقواهم، ثم قال:

«كان العلامة السلفي من حداة هذه القافلة، ومحبى السلف الصالح، الذين فازوا بالذكر الطيب والثناء الحسن. ولقد قضى من عمره زهاء نصف قرن من الزمان، في مدينة يسكنها مخالفوه في الرأي والمعاندون له أيضا، ولكن لم يستطع أحد طوال هذه المدة أن يتهمه في لسانه ويده وبصره. وكان الشيخ سايرا طول حياته إلى المنزل الذي تلقى عنوانه من أئمة السلف الصالح بكل عزم وحزم، وتحمّل لأجله مشقات السجن والأسر عدة مرات، ولم يبد على وجه هذا المحب لشيخ الإسلام ابن تيمية أي أثر للحزن والأسى، وآثر هذا الرجل الصالح الآخرة على الدنيا دائماً وقضى حياته كلها في خدمة العلم والدين، وكان في كل لحظة منها حاملا لواء الجهاد والعزم» (الاعتصام ٨ مارس ١٩٦٨م).

* ذكر **الشيخ عبد الحميد بن عبد الجبار الرحماني** (الأمين العام لجمعية أهل الحديث بالهند سابقا، ورئيس مركز «أبو الكلام آزاد» للتوعية الإسلامية بنيودلهى) كبار علماء شبه القارة الهندية وفضلائها ثم قال:

«كان الشيخ محمد إسماعيل السلفي (البطل الجليل في باكستان) ظلّا جميلا لهؤلاء السادة المياسين. وإنه بحكم مساهماته الفعالة في حركة تحرير الهند،

وانتباهه البالغ للفتن التي كان ينشئها الاستعمار البريطاني ضد الإسلام والمسلمين، كان من ورثة حركة الشهيدين (التي أقامت الدولة الإسلامية الأولى في الهند، تحت قيادة السيد أحمد بن عرفان والشاه إسماعيل الدهلوي رحمهما اللَّه).

وقدّم الشيخ خدمة جليلة في باكستان بعد انفصالها عن الهند، في تنظيم جمعية أهل الحديث، وتوحيد أهل التوحيد، مع رفيقه السيد محمد داود الغزنوى (السياسى السلفي المحنك المعروف، ورئيس حزب المؤتمر في فنجاب قبل استقلال الهند)، وساهم بجهد وإخلاص في إنعاش حركة العمل بالكتاب والسنة، مع الرد على المؤامرات التي حيكت ضدها من قبل الموافقين والمخالفين. هذا كله يكون صدقة جارية له إن شاء اللَّه» (الاعتصام: ٢٣\ديسمبر ١٩٨٨م).

* وقال **الدكتور مقتدى حسن الأزهري** (رئيس الجامعة السلفية بالهند، ورئيس تحرير مجلتها، وخبير كتب العلامة السلفي، ومترجم أغلبها إلى العربية) في مقدمة «حركة الانطلاق الفكري» للسلفي (٣٣-٣٤):

«أما المؤلف فهو الأستاذ الكبير محمد إسماعيل بن إبراهيم السلفي من أبرز العلماء السلفيين في القرن العشرين. كان إماما في علوم الكتاب والسنة، كاتبا مجيدا، غريز الإنتاج، واسع الاطلاع، متقد الفكر. وبجانب هذا النشاط الديني والعلمي له مواقف رائعة محمودة في حركة التحرير ضد الإنجليز، وفي الدفاع عن مبدأ ختم النبوة في الإسلام. وقد وقف حياته لنشر دعوة العمل بالكتاب والسنة ولخدمة الحركة السلفية بالهند.

وكان من أكبر دعاة الاتحاد بين المسلمين، وتوحيد كلمتهم على أساس الكتاب والسنة».

هذه نبذة يسيرة من انطباعات نخبة من كبار المحدّثين والعلماء، والأدباء والكتاب، على اختلاف مذاهبهم الفقهية، ومناهجهم الفكرية، عن عالمنا

الجليل، وفاضلنا النبيل: الشيخ محمد إسماعيل ، الذي قضى من حياته زهاء نصف قرن من الزمان، حافلا بالحيوية والنشاط في نشر التوحيد الخالص، وبثّ علوم الكتاب والسنّة، وتعميم الوعي الديني والسياسي، ودعم حركة العمل بالحديث، والدفاع عن السنّة النبوية المشرّفة، والدعوة إلى الاتحاد بين المسلمين. فجزاه اللّه خيرما يجازى به عباده الصالحين

الجهراء-الكويت

يوم الخميس : ٣٠|٤|١٤٢٨ هـ

١٧|٠٥|٢٠٠٧م

كتبه

صلاح الدين مقبول أحمد

(غفر الله له)

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مترجم الكتاب

شيخنا الدكتور مقتدى حسن الأزهرى حفظه الله

في سطور[1]

ولادته ونشأته:

مدينة «مئونات بهنجن» (من ولاية «يو-بي» الهند) معروفة منذ قرون بصناعة النسيج من جانب، وبكونها مركزا للعلم، وموطناً للعلماء من جانب آخر.

وهي تتميّز-في نظري-بميزة، لا توجد في غيرها من مدن الهند، وهي:

احتضانها لثلاث مدارس سلفية كبيرة: (الجامعة العالية العربية، والجامعة الإسلامية-فيض عام-، والجامعة الأثرية-دار الحديث-)، تخرّج فيها منذ نشأتها ألوف الطلبة، الوافدين إليها من مختلف ولايات الهند، ثمّ رجعوا إليها دعاة مهتدين، عاملين في مجال التعليم والتربية، والدعوة والإرشاد، والتصنيف والتأليف. وكان العديد من شيوخنا في المراحل الدراسية المختلفة في الهند، من خريجي هذه المدارس:

﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

في هذه المدينة العلمية والصناعية، وفي أسرة سلفية محافظة، ولد الدكتور مقتدى حسن بن محمد ياسين بن محمد سعيد، في الثامن من شهر أغسطس

---

(١) مصادر ترجمته:

- معلومات شخصية عن الدكتور مقتدى حسن الأزهري.
- جهود مخلصة في خدمة السنة المطهرة: للدكتور عبد الرحمن الفريوائى (٢٧٣-٢٧٧).
- علوم الحديث (مطالعة وتعارف): إشراف الشيخ عبد المعيد المدني (١٥-١٦).

١٩٣٩ م، ونشأ فيها وترعرع بين العلماء على حبّ العلم والدين.

مراحله الدراسية وشهاداته العلمية:

بدأ في الدراسة بداية مباركة، فحصل على شهادة حفظ القرآن الكريم من مدرسة دار العلوم بمئو، -فرع «مرزا هادى فوره»-سنة ١٩٥٣ م.

ثم أكمل مراحله الدراسية المختلفة في المدارس السلفية بمئو، وحصل على شهادة «الثانوية» من الجامعة العالية العربية سنة ١٩٥٩ م، وتخرّج في الجامعة الأثرية-دار الحديث-سنة ١٩٦٢ م.

وحصل على شهادات (مولوي، وعالم، وفاضل) الرسمية، من الهيئة التعليمية في حكومة «يو-بي» أيضا، في الفترة ما بين سنة ١٩٥٩-١٩٦٢ م.

ولمواصلة دراسته العليا رحل إلى مصر، والتحق بجامعة الأزهر، وحصل على شهادة الماجستير من كلية أصول الدين سنة ١٩٦٦ م، وسجّل «الدكتوراه»، ولكنه لم يتمكن من مواصلة الدراسة هناك، فرجع إلى الهند.

ثم حدا به الشوق-أيّام تدريسه بالجامعة السلفية-إلى إكمال دراسته العليا، فحصل على شهادة (ايم، فل) سنة ١٩٧٢م، ثمّ على شهادة «الدكتوراه» في الأدب العربي سنة ١٩٧٥م من جامعة على كره الإسلامية بالهند. ومن الجامعة نفسها حصل على شهادة الثانوية في اللغة الإنجليزية سنة ١٩٧١م، وعلى شهادة الكلية المتوسطة في الإنجليزية سنة ١٩٧٣م.

وبهذا انتهى مشواره الدراسي الطويل. وإن دلّ هذا على شيء، فإنما يدلّ على نهمته العلمية، وهمته العالية في الطلب، وجهده المتواصل الدؤوب لتكوين شخصيته العلمية.

ومن شيوخه الكبار في مراحله الدراسية المختلفة:

«الشيخ عبد العلى، والشيخ عبد المعيد، والشيخ عبد الرحمن، والشيخ

حبيب الرحمن الفيضى، والشيخ عظيم اللَّه، والشيخ عبد اللَّه شائق، والشيخ أبو القاسم الفيضى، والشيخ شمس الحق السلفي، والدكتور على عبد الواحد وافى، والدكتور شوقى ضيف وغيرهم، أحسن اللَّه لهم الجزاء».

وروده إلى الجامعة السلفية:

انضمّ إلى هيئة التدريس بالجامعة السلفية (بنارس-الهند)سنة ١٣٨٧هـ=١٩٦٨م، فتفرّس فيه أمينها العام الأوّل: الشيخ الفاضل عبد الوحيد بن عبد الحق السلفي [١] النبوغ والكفاءة، والهمّة والإرادة، مع التنظيم والإدارة،

(١) هو: الشيخ الجليل والفاضل النبيل: عبد الوحيد بن عبد الحق بن عبد الرحمن السلفي (١٩٢٤-١٩٨٩م). انحدر من أسرة سلفية ثريّة في مدينة «بنارس»، معروفة بتجارة الحرير على مستوى الهند.

هذه هي الأسرة الكريمة التي كانت تشرف على «الجامعة الرحمانية» (بنارس)، ثمّ تولّت أيضاً تأسيس «الجامعة السلفية» في بنارس سنة ١٩٦٣م، تحت إشراف جمعية أهل الحديث لعموم الهند، فاختير أول أمين عام لها، وبقي على منصبه حتى وفاته.

وقد تولّى الشيخ منصب الأمين العام للجامعة الرحمانية من (١٩٦٠-١٩٦٦م)، ثمّ للجامعة السلفية أيضاً، من (١٩٦٣-١٩٨٩م)، وكذلك تولى منصب الأمير لجمعية أهل الحديث لعموم الهند، من (١٩٧٩-١٩٨٩م).

وقد شارك في المؤتمرات الإسلامية، والندوات العلمية في داخل الهند وخارجها، وعقد هو كذلك عدّة مؤتمرات وندوات تحت إشراف الجامعة السلفية وجمعية أهل الحديث.

وكان الشيخ عبد الوحيد ذا أرومة كريمة، وجيها ذا هيبة ووقار، شفوقاً عادلا في تقييم الأمور. وأولا وأخيرا أنه كان إداريّا محنّكا، أولى اهتمامه البالغ بتطوير الجامعة السلفية في عهده، حتى احتلّت مكانة مرموقة بين مدارس شبه القارّة الهندية، ونالت شهرة عالمية، لتميّزها بمنهجها الدراسي المؤسس على الكتاب والسنة وفق فهم السلف الصالح.

ولا ريب أن الفضل في ذلك يرجع -بعد اللَّه عز وجل-إلى هذا الشيخ الجليل، وإلى مستشاريه المخلصين: أمثال شيخنا الأستاذ عبد الوحيد بن أبي القاسم الرحماني (شيخ الجامعة سابقا)، وشيخنا الدكتور مقتدى حسن (الرئيس الحالى للجامعة)، فجزاهم اللَّه خير ما يجازى به عباده الصالحين.

وبعد الشيخ عبد الوحيد السلفي تولّى منصب الأمين العام للجامعة السلفية، عالم هذه الأسرة=

فاختاره وكيل الجامعة السلفية، وجعله رئيس تحرير مجلّتها «صوت الأمة» (الآن)، منذ إنشائها ١٩٦٩م، وفوّض إليه الإشراف على «إدارة البحوث الإسلامية»، التي بلغت إصداراتها حتى الآن، أكثر من أربعمائة كتاب، ما بين صغير وكبير ومجلّدات، في العربية والأردية والهندية والإنجليزية، وكتب الدكتور على أغلب هذه الكتب مقدّمات نفيسة تحت عنوان «كلمة الناشر».

إنتاجاته العلمية:

* في ميدان الصحافة: يستمرّ بكتابة «الافتتاحية» لمجلة «صوت الأمّة» بنارس الهند منذ نشأتها سنة ١٩٦٩م، وغيرها من المقالات في الجرائد والمجلّات، التي بلغ عددها زهاء خمسمائة مقال في العربية والأردية حتى الآن.

* في ميدان التأليف: ألّف كتبا كثيرة، من أهمها:

-تأريخ الأدب العربي (بالأردية): (خمسة أجزاء).

-موقف الإسلام من المرأة (بالأوردية).

-حقيقة الأدب ووظيفته (بالأوردية).

-الثقافة الإسلامية والمسلمون.

=الكريمة، الأخ الفاضل النابه الشيخ: شاهد جنيد السلفي-حفظه اللّه-، فقام بواجباته تجاهها خير قيام.

ثمّ جاء دور زميلنا الفاضل، الأمين العام الحالي للجامعة، الأخ الشيخ: عبد اللّه سعود بن عبد الوحيد السلفي-حفظه اللّه- (وهو ابن الأمين العام الأوّل)، وهو يبذل جهده لخدمة هذا الصرح العلمى العظيم، الذي يعتبر منار السلفية في الهند، عند العلماء الثقات من العالم الإسلامي.

ومن هذا المكان البعيد أبثّ دعائي لأخي الشيخ عبد اللّه سعود، أن يوفّقه اللّه تعالى لبذل المزيد من جهده المبارك، ووقته الثمين، لتطوير الجامعة، حتى ترقى في مجال التعليم والتربية على مستوى العصر، وأن يجعله "خير خلف لخير سلف". وأقول أخيرا-لا آخرا-: «إن الخير من معدنه لا يستغرب».

-مسئولية الشباب المسلم في العصر الحاضر .

-مشكلة المسجد البابرى في ضوء التأريخ والكتابات المعاصرة .

* في ميدان الترجمة : نقل كتبا كثيرة من العربية إلى الأردية ، من أهمها :

-اقتضاء الصراط المستقيم : لشيخ الإسلام ابن تيمية .

-مختصر زاد المعاد : لإمام الدعوة محمد بن عبد الوهاب .

-إصلاح المساجد : للشيخ جمال الدين القاسمى .

-ويقوم باختصار فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية باللغة الأردية .

ونقل كتبا كثيرة إلى العربية ، منها :

-قرّة العينين في تفضيل الشيخين (بالفارسية) : للشاه ولى اللّه الدهلوى .

-رحمة للعالمين (في سيرة الرسول الأمين) (بالأردية) : للقاضى محمد سليمان المنصور فورى (ثلاثة أجزاء) .

-حركة الانطلاق الفكري وجهود الشاه ولى اللّه في التجديد (بالأردية) : للشيخ محمد إسماعيل السلفي .

-حجية الحديث الشريف (بالأردية) : له أيضاً .

تلامذته :

زاول التدريس في الجامعة الإسلامية (فيض عام) بمئو سنتين من (١٩٦٠-١٩٦٢م) وذلك قبل التحاقه بجامعة الأزهر بالقاهرة .

ودرّس مادّة الأدب العربي في جامعة على كره الإسلامية ، لمدّة سنة ، وذلك أثناء إقامته هناك للحصول على شهادة «الدكتوراه» .

وقام بالتدريس بالجامعة السلفية ، منذ (١٣٨٧هـ=١٩٦٨م) ، وقد درس عليه

أغلب من التحق بها من الطلبة من ذلك الوقت حتى الآن، وهم ألوف، وينتشرون في داخل الهند وخارجها، ويقومون بواجب التعليم والتربية، والدعوة والإرشاد، والإفتاء والإفادة، والإمامة والخطابة، والتأليف والترجمة، والبحث والتحقيق.

فهو الآن أستاذ الأساتذة حقاً. وها أنا كاتب هذه السطور (صلاح الدين مقبول أحمد) تتلمذت عليه، بدأت الكتابة باللغة العربية تحت إشرافه-حفظه اللّه-[1]».

عضويته للمجالس والهيئات والجمعيات:

شارك في كثير من المؤتمرات الإسلامية، والندوات العلمية في داخل الهند وخارجها، ببحوثه ودراساته، وكذلك أسهم في عقد كثير من المؤتمرات والندوات والمواسم في رحاب الجامعة السلفية (بنارس، الهند).

وزد إلى ذلك أنه اختير عضوا لعديد من المجالس العلمية، والهيئات الإسلامية، والجمعيات الأدبية والثقافية، منها:

-مجلس جامعة على كره الإسلامية بالهند.

-هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند.

-المجلس التنفيذي لجمعية أهل الحديث المركزية بالهند.

---

(١) هو من شيوخي الفضلاء في الجامعة السلفية، الذين لهم أثر بالغ في تعيين اتجاهاتي العلمية والدعوية. كنت أدعو اللّه تعالى-وأنا طالب-أن أكون خادما لهذه الجامعة الحبيبة التي قضيت في رحابها زهاء ثماني سنوات، من أي موقع كان. وقد تحقّق لي ذلك-والحمد للّه-. بقيت هناك بعد التخرّج فيها نحو سنة ونصف سنة، أنتظر التحاقي بالجامعة الإسلامية بالمدينة الطيبة، وأخدم المكتبة العامّة لها، وأشمّ عبيرها وأزيجها، وأكتب في مجلتها حول أعلام السلفين في الهند، تحت عنوان «شخصية في سطور».

وكل ذلك تيسّر لي-بعد فضل اللّه ومنه-بعناية شيخنا الدكتور مقتدى حسن-حفظه اللّه-، وبموافقة الأمين العام للجامعة السلفية حينذاك: الشيخ الفاضل النبيل: عبد الوحيد بن عبد الحق السلفي-رحمه الله تعالى-، فلا أنسى كريم فضلهما أبداً.

- رابطة الأدب الإسلامي بالهند.

- جمعية المثقّفين للتوعية الإسلامية بالهند.

- الجمعية التعليمية للجامعة المحمدية في ممباى.

هذا، وهو يرأس تحرير مجلة «صوت الأمة»، ويشرف على «إدارة البحوث الإسلامية» بالجامعة السلفية، وقد كان وكيل الجامعة سابقا، والآن هو رئيسها- حفظه اللّه تعالى-.

أخيرا-لا آخرا-:

إنه يحتل مكانة مرموقة بين الكتّاب والأدباء في شبه القارة الهندية، ويفوق أقرانه في كثرة الكتابات حول المناسبات الإسلامية والثقافية والأدبية. وله تجربة طويلة في مجال الصحافة والتحرير، والترجمة والتأليف. وهو معروف بيننا بتنظيم جهده، واستثمار وقته في النافع المفيد- عسى الله أن يتقبّله قبولا حسنا-.

هذه خطوط عريضة لحياة شيخنا الدكتور مقتدى حسن -حفظه اللّه-التي تنبض بالحيوية والنشاط في شئون التعليم والتربية، والصحافة والتأليف، والتنظيم والإدارة على السواء. وهو مستمرّ في عطائه الفيّاض في تخصّصاته كلّها، بفضل اللّه ومنّه.

متّعنا اللّه بطول حياته في طاعته- سبحانه -مع الصحة والعافية!

الجهراء-الكويت

يوم الأربعاء: ٦|٥|١٤٢٨هـ

٢٣|٥|٢٠٠٧م

كتبه تلميذه:

صلاح الدين مقبول أحمد

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

كلمة المترجم

وفقني اللَّه تعالى لترجمة بعض كتابات العلامة الشيخ محمد إسماعيل السلفي (ت ١٣٨٧ هـ) رحمه اللَّه تعالى، وذلك في بداية عهدي بالتدريس في الجامعة السلفية، والقيام بتحرير مجلتها باللغة العربية «صوت الجامعة». وبعد مراعاة اسم كتاب الشيخ السلفي بالأصل الأردي الآتي فيما بعد اخترت للنص العربي المترجم العنوان التالي «حركة الانطلاق الفكري وجهود الشاه ولي اللَّه في التجديد».

وقصة هذه الترجمة تبدأ بأمر قد يبدو صغيرا، ولكنه حادث هام ومناسبة كبيرة لا تزال بارزة أمام عيوني. إن الشيخ عبد الوحيد عبد الحق السلفي الأمين العام الأول للجامعة، رحمه اللَّه تعالى، كان في يوم من الأيام قد أعطاني نسخة من كتاب باللغة الأردية يحمل عنوان: «تحريك آزادي فكر اور شاه ولي اللَّه كي تجديدي مساعي»، أعجبت بالكتاب، فطالعته عدة مرات، ثم شاورت بعض الزملاء والأصدقاء في التدريس في أمر ترجمته إلى اللغة العربية. إنهم وافقوني على الترجمة، وشجعوني على ذلك، فبدأت أترجم الكتاب، وأنشر منه أجزاءا في المجلة، ومعظم قراء المجلة فرحوا بالترجمة، وأثنوا عليها لما تمتع به الأصل من الطرافة في البحث، والعمق في التحقيق، والاتزان في المناقشة، وهكذا تمت الترجمة على الأصل الذي ظهر به الكتاب في الطبعة الأولى. إن العلامة المحدث الشيخ عبيد اللَّه الرحماني، رحمه اللَّه تعالى، كان حينذاك يشغل منصب رئيس الجامعة السلفية، فرجوت منه أن يقدم الترجمة العربية بكلماته القيمة النافعة، وحظي هذا الطلب بموافقته الكريمة، وكذلك أشار علي بأن أضيف ترجمة موجزة للشيخ السلفي حتى يكون القراء على إلمام بسيرته وأعماله ففعلت، وهكذا ظهرت الطبعة الأولى لكتاب «حركة الانطلاق الفكري» في عام ١٣٩٧ هـ.

ولما ظهرت للكتاب بأصله الأردي طبعة ثانية بإضافة بعض البحوث إليه، أعدت الترجمة العربية على أساسها بطبعة ثانية بالعربية أيضا، وقد شاركني في مراجعة هذه الترجمة الدكتور عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي الأستاذ في قسم السنة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، فجزاه اللّه تعالى كل خير.

لقيت الترجمة العربية كأصلها عناية وإعجابا من القراء، فكانوا يثنون على المؤلف في دفاعه عن السنة، وهدوئه في المناقشة، ونزاهته في الأسلوب. وقد لمست أثناء تجوالي في البلدان العربية أن المهتمين بتاريخ الدعوة السلفية فيها يحرصون على مطالعة هذا الكتاب، وكذلك على كل ما يتعلق بهذا الموضوع، وإقبالهم هذا هو الذي شجعني على ترجمة بعض الكتابات الأخرى للشيخ محمد إسماعيل السلفي حتى تتبلور الفكرة، وتتميز المواقف، وتبرز الجهود التي بذلتها جماعة أهل الحديث في شبه القارة الهندية نشرا للسنة ودفاعا عنها، ودعوة إلى اتباعها، وتحذيرا من صور الشرك والبدع المنتشرة في صفوف الناس.

★★★

في سنة ١٤٠١ هـ ظهرت مجموعة تضمنت أربع مقالات للشيخ السلفي، رحمه اللّه، باسم (حجية الحديث). كانت المقالة الأولى عن (أهمية الحديث التشريعية)، والثانية عن (موقف الجماعة الإسلامية من الحديث)، والثالثة عن (السنة في مرآة القرآن)، والرابعة عن (حجية الحديث في ضوء سيرة الرسول ﷺ).

حظيت هذه المجموعة بعناية العلماء والباحثين، وخاصة الذين يدرسون السنة، ويحاولون فهمها في ضوء مناهج المحدثين، ويرون لها مكانة مستقلة في التشريع.

وحيث إن نظرة الجماعة الإسلامية إلى الحديث النبوي الشريف تختلف عن

نظرة جماعة أهل الحديث إليها ، فإن الأوساط العلمية اهتمت بالمقالة الخاصة بالجماعة الإسلامية أكثر، وقد ترجمها إلى اللغة العربية مع التعليق النافع الشيخ صلاح الدين مقبول أحمد، ونشرها من الكويت في صورة كتاب. وإني مدفوع إلى الاعتراف بأهمية هذا الكتاب، وأفرح فرح الأستاذ بإنجاز التلميذ في مجال البحث والكتابة.

★★★

وبما أن المقالات الثلاث في المجموعة المذكورة، وكذلك بعض المقالات الأخرى للشيخ السلفي كانت تتمتع بتأثير وأهمية في باب خدمة السنة النبوية، وتفنيد ما أثير حولها من الشكوك، وبيان دورها في مجال التشريع، فان المخلصين أشاروا عليّ بترجمتها إلى العربية أيضا، حتى يتمكن القراء العرب من الاطلاع على الآثار العلمية للشيخ السلفي، ومن الوقوف على نشاط البحث والتأليف الذي مارسته جماعة أهل الحديث في الهند، ومن الإلمام بالزوابع والأعاصير التي هبت ضد السنة في المنطقة.

وكنت معجبا بأسلوب الطرح والمناقشة والاستدلال في كتابات الشيخ السلفي، فنزلت عند رغبة الإخوة في الترجمة، وأنجزت هذا العمل قبل (١٥) سنة، ولكني ما وجدت الفراغ للمراجعة، وبقيت الكراسات في الانتظار إلى أن يسر اللّه تعالى النظر إلى الترجمة، ومقارنة النصوص مع الأصول، وتصحيح الملزمات بعد التصفيف، فالحمد للّه الذي بنعمته تتم الصالحات.

★★★

أما المقالات المترجمة وعناوينها فأود اثباتها هنا حتى يكون القاري على بينة من أمر هذه المجموعة:

المقالة الأولى في هذه المجموعة العربية عن أهمية الحديث التشريعية.

والمقالة الثانية عن السنة في مرآة القرآن.

والمقالة الثالثة عن حجية الحديث في ضوء سيرة الرسول ﷺ.

والمقالة الرابعة عن دراسة تاريخية لموضوع الدراية وفقه الراوي.

والمقالة الخامسة عن واقعة الإفك.

إن الإنسان مهما حاول لا يبلغ عمله الكمال، فحسبه ألّا تعدّ معايبه. حاولت الدقة في الترجمة، ورجعت إلى المصادر التي أحال إليها المؤلف، فاقتبست منها العبارة التي وردت في كلام المؤلف، ولكني لم أظفر ببعض العبارات في مظانها المشار إليها، وكذلك لم يتوفر لدىّ بعض المصادر التي استقى منها المؤلف. وهناك أعلام وقضايا تحتاج إلى التعليق، وقد أجلت ذلك إلى طبعة قادمة، حينما تجتمع لدىّ الملاحظات والاقتراحات من الإخوة المخلصين.

وختاما شكري وتقديري للقائمين على الجامعة الذين وافقوا على طبع الكتاب في المطبعة السلفية، وللعاملين في التصفيف والمطبعة، وفي المكتبة المركزية على جهدهم في إخراج الكتاب بهذا الشكل الأنيق. أسأل اللّه عز وجل للجميع الأجر الجزيل والتوفيق الشامل، إنه سميع مجيب.

(د. مقتدى حسن بن محمد ياسين)

الجامعة السلفية ببنارس

في ٢٢ / ٦ / ١٤٢٧ هـ

★★★

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المقالة الأولى

أهمية الحديث التشريعية

الحمد للّه رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الخلق أجمعين: محمد خاتم النبيين، وعلى أصحابه وآله، والذين اتبعوهم بإحسان من فقهاء المحدثين ومن حذا حذوهم إلى يوم الدين، أما بعد:

فهذه وريقات تشتمل على محاضرة ألقيتها في الحفلة السنوية لجمعية أهل الحديث بفيصل آباد، ننشرها بعد تهذيبها وتنقيحها، عسى اللّه أن ينفع بها طلاب العلم والحق الذي بعث اللّه به محمدا صلى اللّه عليه وسلم، ويهدي به من يشاء إلى صراط مستقيم.

يورد أئمة السنة ضمن ذكر الأدلة الشرعية بعد القرآن الكريم أربع كلمات عن علوم النبوة بصفة عامة، وهي: الخبر، والأثر، والحديث، والسنة.

والعاملون بالحديث، الذين يؤمنون بحجية الحديث بعد كتاب اللّه، ويرونه حجة شرعية، يُعرفون في كتب الدين بنسب مختلفة، مثل: أهل السنة، وأهل الحديث، وأهل الأثر.

الخبر:

يطلق «الخبر» على الإخبار عن حادث، وعلى حكاية.

الخَبْر والخَبَار: الأرض الرخوة السهلة.

والمخابرة: المزارعة على نصيب معين.

والخبر من الناحية اللغوية: يطلق على أي إخبار عن الحادث والحكاية عنه، ولكن حينما يطلق على أقوال الرسول ﷺ يكون مرادفا للحديث، أي أخبار

الرسول ﷺ. (لسان العرب ٤ / ٢٢٦ (خبر).

الأثر:

يطلق الأثر على بقية الشيء وعلامته، قال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ [الرُّوم: ٥٠].

ويُعبَّر عن النقل بالأثر، كما قال الشاعر:

إن الذي فيه تماريتما بُيّن للسامع والآثر

والمسائل التي نُقلت عن الصحابة والتابعين تسمى آثارا.

وفي التنزيل: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤].

والأثر يطلق على أقوال الرسول ﷺ أيضا، ويستعمل مضافا في الأغلب، فآثار الرسول مرادفة للحديث والسنة. وإذا أطلقت دون الإضافة، أريد بها آثار الصحابة أو معناها اللغوي. (لسان العرب ٤ / ٦ (أثر).

الحديث:

الحديث في اللغة[1] ضد القديم، ومصدره الحدث، وهو يطلق على العوارض الجديدة. والرجل الحدث: هو الإنسان الشاب.

واللّه تعالى قد خلق داخل فم الإنسان وبين أسنانه عضوا يخترع دون شعور وتأمل الألفاظ المتجددة. إن مئات الألوف من الكلمات يتم صوغها في جوف الفم بحركة الهواء وتموّجها إلى نهاية الحلق، ويكون كل واحد منها جديدا مختلفا عن الآخر. والأسنان مع الشفتين تساعد في صوغ الألفاظ وتصحيح

(١) (لسان العرب ١٣ / ٢٧٢).

المخارج. ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

للإنسان عشرات الأعضاء، ولكن مصنع الألفاظ ونظام النطق وضع في الفم. إننا لا نستطيع أن ندرك مدى فرح الإنسان الأول الذي استخدم أوّلا هذا النظام للتعبير والتفهيم، ولا نعلم عدد السجدات التي سجدها للّه تعالى على هذه النعمة: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

والحديث في اللغة العربية: يطلق على ما يتكلم به الإنسان، ويجمع على «الأحاديث» حسب المذهب الصحيح. وتطلق الأحاديث أيضا على القصص والحكايات التي تتعلق بعجائب الدنيا ووقائعها الغريبة، قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ [سبأ: ١٩] وقال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢].

قال الراغب [١]: الحديث وجود الشيء بعد أن لم يكن. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٧٠] وقوله: ﴿مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٦]: وقوله: ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

والحديث يطلق على أقوال النبي ﷺ، وعلى القرآن الكريم أيضا، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ [التحريم: ٣] وقال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

السنّة:

السنّ مع شدّ النون، تفيد القوة والثبات وتوارث العادات. وقد اشتقت كلمات: السن والسنان والمسنون والسنة من مادة واحدة. فالسن هو: العظم النابت في فم الحيوان، والسنان نصل الرمح، والمسنون متغير الرائحة، والسنة في اللغة: هي الطريق الواضح البين بكثرة المشي، ويعبر عنه بالطريق المعبد أيضا.

---

(١) (٣/ ١٠٢٥).

وعرف إطلاق السنة على العادة الراسخة والأعمال المستمرة. وهذا الإطلاق يعم الطريقة والسيرة أيضا. وورد في اللغة إطلاق السنة على العادة الحسنة والسيئة كلتيهما، كما في الحديث: من سن سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها، ومن سن سنة سيئة، فله أجرها وأجر من عمل بها. [صحيح الجامع الصغير: (٦٣٠٥)] فهذا من الناحية اللغوية. وإلا كيف توصف سنة النبي ﷺ بالسيئة، فإنها خير كلها. وكذلك أريد المعنى اللغوي للبدعة في قول بعض الصحابة: «نعمت البدعة هذه». فان البدعة المصطلحة قد حكم النبي ﷺ عليها بقوله: «كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة». والضلالة لا توصف بالحسنة.

والسنة في الشريعة: تطلق على قول النبي ﷺ وفعله وتقريره واجتهاده. إن المعتزلة أنكروا اجتهاد الأنبياء عليهم السلام واستنباطهم، ولكن أجازه لهم أئمة السنة. فإن لم يكن في حاجة إلى إصلاح من اللّه تعالى دخل في السنة أيضا.

وقد صرح بعض العلماء في متون أصول الفقه بأن لفظ السنة يطلق على أعمال النبي ﷺ، ولفظ الحديث على أقواله. ولكنهم لا يفرقون بينهما عند ذكر الأدلة الشرعية، بل يقولون بترادفهما. وحينما يضاف لفظ السنة إلى النبي ﷺ يراد به الأحاديث النبوية فقط. والسنة في مصطلح الشريعة: مصدر للأحكام الشرعية والدينية، وليس من الضروري أن يصرح بذكرها في القرآن الكريم، يقول الشوكاني: «اعلم أنه قد اتفق من يعتدّ به من أهل العلم على أن السنة المطهرة مستقلة بتشريع الأحكام، وأنها كالقرآن في تحليل الحلال وتحريم الحرام» (إرشاد الفحول: ص ٣١). والجدير بالتأمل أنه إذا ورد حكم ما في القرآن والسنة معا، فأي مزية للسنة في الالتزام به؟ إنه قرآن لا يسوغ إنكاره. نعم إن الحديث أو السنة إذا عارضت القرآن صريحا عمل بالقرآن، ولكن الواقع يحيل أن يعارض النبي ﷺ بقوله القرآن.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

موضوع البحث :

إن السنة والحديث، مترادفان في الموضوع الذي نحن بصدده، وهما حجتان في الشرع، بل الأحاديث التي يُعبَّر عنها بأقوال الرسول ﷺ، هي أيضا في الأصل أفعال، فإن القول فعل اللسان، وكذا التقرير والاجتهاد أيضا من الأفعال، والسنة تشملها جميعا، ولا يكمل الدين إلا بالإيمان بها كلها، فإن القرآن والسنة المتواترة مع كثرتها لا تشمل نواحي الحياة كلها.

أورد صاحب مسلم الثبوت تعريف السنة فقال :

«ما صدر عن الرسول غير القرآن من قول وفعل وتقرير». (شرح مسلم الثبوت لبحر العلوم ص ٣٨٦).

والسنة التي عدَّها أئمة السنة حجة شرعية، ورأوها مصدرا للأحكام: يجب أن تكون غير القرآن، وتكون تصريحاتها مختلفة عن تصريحات القرآن الكريم ولكنها لا تعارضها ولا تخالفها.

منزلة السنة :

لم تحصل للسنة المنزلة التي بلغتها ألفاظ القرآن الكريم في التواتر والقطعية. ومع تواتر ذخيرة كبيرة من السنة، فإن شرف التواتر والقطعية هذا لم يحصل لجميع المتون المروية. إن كثيرا من العبادات والأعمال ثبتت بالتواتر، فقد تواترت الصلاة وفرائضها وسننها وأذكارها مع تنوعها من حيث المجموع، ولكن ذخيرة كبيرة من المعاملات والمغازي والسير أخبار آحاد. وذخيرة الآحاد لا تتمتع بتلك القطعية بسبب مباحث علم الإسناد وجرح الرجال وتعديلهم. وبعض نواحي العبادة أيضا تحتاج إلى الآحاد، ولكن منزلة هذه الآحاد أيضا أرفع بكثير من الروايات الإخبارية. إن نقد المحدثين ونقلهم يختلفان عن الأخبار والتاريخ، ويتمتعان بتوثيق أكثر، بل اتفق العلماء على قبول أخبار الآحاد الصحيحة وعلى

وجوب العمل بها، والعلم الحاصل بها وان لم يكن مثل المتواتر ولكنه بنفسه في درجة الاستناد. وقد يمكن صرف النظر عن الآحاد عند التعارض، ولكن جميع الفقهاء والمحدثين قد قبلوا الآحاد في عامة الأحوال، واستنبطوا منها المسائل، ولم يجعلوا ظنية الآحاد مترادفة للشكوك والأوهام كما يزعم أكثر منكري الحديث ويتفوهون. وقد فضل أئمة الإسلام أخبار الآحاد على الرأي والقياس دائما، ولذلك اعتبر أهل العلم علم الحديث بمجموعه منفصلا عن التاريخ والروايات الأخبارية، وعلى هذا فالعلاقة بين أئمة الحديث وأئمة التاريخ هي علاقة العام مع الخاص، أي كل محدث أخباري، وليس كل أخباري محدثا.

وبعض أهل العلم قد جمعوا بين الفنين، مثل الحافظ ابن جرير، والحافظ ابن كثير، والإمام البخاري، والإمام الذهبي كلهم محدثون ومؤرخون، ولكن المؤرخين فيهم مسلم وغير مسلم، ولذا لا يكونون محدثين إلا بعضهم.

والذي أقصده هو أن ذخيرة الحديث كلها لم تتواتر مثلما تواتر القرآن الكريم، ولذلك جعل أئمة السنة الأحاديث في المنزلة الثانية بين الأدلة الشرعية، ولكن نصوص الحديث قد تُقدّم على القرآن أحيانا. إن المسألة تثبت بالحديث، والأمة تلتزم بها مدة، ثم ينزل القرآن يؤيدها بعد مدة، وذلك مثل:

١- فرضت الصلاة على النبي ﷺ ليلة المعراج، والسنة بينت أذكارها وعدد ركعاتها في ذلك الوقت، والقرآن الكريم أيد ذلك إجمالا، واستمرت الحال على ذلك لمدة.

٢ -إن الطهارة شرط للصلاة، وقد علّم جبرئيل النبي ﷺ طريقة الطهارة ليلة المعراج، والتزم الصحابة بالوضوء والصلاة، ولكن نزلت سورة المائدة بعد واقعة المعراج بنحو ثماني سنوات في السنة السادسة من الهجرة، وفيها تم بيان الوضوء وفرائضه. ومن المعلوم أن المعراج كان في السنة الثانية عشرة من النبوة أي قبل الهجرة بنحو سنتين.

٣ - كان الصحابة رضي الله عنهم قد بدأوا صلاة الجمعة في المدينة المنورة قبل هجرة النبي ﷺ إليها ، وكان أسعد بن زرارة يصلي بالناس الجمعة في المدينة المنورة قبل وصول النبي ﷺ إليها . ونزلت سورة الجمعة ، التي يستدل بها على فرضية الجمعة ، في سفر الهجرة قبل الوصول إلى المدينة ، على الروايات الصحيحة ، وكانت الجمعة قد بدأت قبل ذلك ، وسورة الجمعة أيدت ذلك . وإن قلنا بمدنية سورة الجمعة لنزولها في المدينة المنورة على أشهر الروايات ، فذلك يوضح المسألة أكثر ، ويدل على أن حكم فرضية الجمعة ورد في القرآن بعد بدء الجمعة في المدينة .

٤ - أكرم موسى بالنبوة بعد عودته من مدين ، ولكنه لم يُعط التوراة بعد ، وأقام الحجة على فرعون وهامان وأكابر القبط على أساس السنة ، واستمر ذلك على أساس الوحي غير المتلو . وقد صرح القرآن الكريم بأن موسى أعطى التوراة حينما كان مقيما في أرض التيه بعد هلاك فرعون ، وقد وقع حادث هلاك فرعون وتدميره بسبب مخالفة السنة ، كما قال تعالى في سورة القصص بعد إهلاك جنود فرعون :

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القصص : ٤٣] .

السنة في القرآن :

والآن نرى ضرورة السنة في القرآن الكريم ، ان بعض الأنبياء قد انحصر اعتمادهم على السنة طيلة الحياة ، فقد قال اللّه تعالى في سورة النساء :

١ - ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء : ١٦٣] .

شبّه في الآية وحي النبي ﷺ بوحي نوح ومن بعده من الأنبياء، ولم يرد عنهم ذكر كتاب سوى إبراهيم وعيسى وداود عليهم السلام، فكان وحيهم من قبيل السنة. وحيث إن وحي النبي ﷺ شبّه بالوحيين، المتلو وغير المتلو، فالظاهر أن النوعين من الوحي نزل على النبي ﷺ، أي نزّل عليه ألفاظ القرآن الكريم، ومعاني السنة.

وبناء على هذه التصريحات من كتاب اللّه والعقل السليم عن السنة، قال العلامة موسى جار اللّه:

«فالسنن في الشرائع والقوانين أصل الأصول، وهي في شرع الإسلام أصل أول بين الأصول الأربعة، والكتاب الكريم يؤيد الأصل الأول ويثبته» (كتاب السنة ص ٤).

٢ - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٥٠- ١٥٢].

فهذه الآيات الكريمة حينما تذكر أسباب الكفر تجعل كلا من اللّه تعالى ورسوله ﷺ في منزلة مستقلة، أي تصرح بأن إنكار الرسول سبب الكفر كما أن إنكار اللّه سبب له، وكذلك لكل من اللّه ورسله منزلة مستقلة في أمر الإيمان، أي للرسول مكانة مستقلة في إيجاب الإيمان. والحاصل أن الإيمان بالرسول واجب مثل وجوب الإيمان باللّه، وجحود الرسول كفر مثل جحود اللّه تعالى.

ومن المعلوم أيضا أن اللّه والرسول ليسا واحدا من ناحية الذات، بل أحدهما خالق والآخر مخلوق، وأحدهما آمر والآخر مأمور، وأحدهما قادر والآخر عاجز، وأحدهما غني والآخر محتاج. والنبي ﷺ لم يدّع طوال حياته الغنى

والصمدية والاختيار الكامل، وهذا هو الحق، فان الذي يهدد دائما بالموت والزوال والحدوث كيف يدعي الاستغناء والاختيار الكامل. ولذا لم يقل أحد من عقلاء العالم بوحدة اللّه والأنبياء، وليس من المعقول أن يرمى من يفرق بينهما بالكفر.

وعلى هذا فالتفريق الذي وصف في الآية بالكفر، هو التفريق في الإطاعة دون شك، وقد ورد ذكر سير المنافقين بهذا الأسلوب:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء: ٦١].

أي إنهم يعلمون أن كلام اللّه عز وجل يتضمن جوامع الكلم، ولذا يمكن تأويله، ولكن شروح الرسول وتوضيحاته إنما تسدّ جميع منافذ الفوضى والتخبط. ولذلك أحب أهل النفاق أن يستمر التفريق بين اللّه والرسول من ناحية الإطاعة. إن أقوال الرسول حينما تُبعد عن منزلة الحجة والطاعة، لتحققت النجاة من تفاصيل السنة، وتوفرت السعة لفوضى الحياة. ولكن القرآن يصرح بأن ذلك طريق الكفر البواح، ومنزلة السنة مستقلة قطعا في الطاعة. فكما أن نصوص القرآن واجبة الإطاعة، فكذلك تلك التصريحات المروية عن الرسول ﷺ سوى القرآن تجب طاعتها بنص من القرآن، وإن لم توجد صراحة في النصوص القرآنية، ومن أنكرها فانه كافر.

والآية رقم(١٥٢) من سورة النساء، لفتت الأنظار إلى الوحدة في الإطاعة، وعرّفت بأهل الإيمان فقالت: «ولم يفرقوا بين أحد منهم». وذلك بأنهم يرون طاعتهما واجبة، وأقوالهما حجة، فان طاعتهما في الحقيقة ليست طاعتين، بل منبعهما واحد: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] أي لا فرق بين الطاعتين، بل طاعة الرسول في الحقيقة هي طاعة اللّه، يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤].

٣ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

ذكر القرآن الكريم هنا ثلاث إطاعات، الأولان منها مستقلان، لا يمكن أن يقع فيهما تعارض ونزاع حتى يضطر الإنسان إلى الرد والتحاكم.

ولكن الإطاعة الثالثة عارضة غير مستقلة، فمن الممكن أن يصدر من الأمراء وأصحاب السلطة فعل ينافي رضا اللَّه وأقوال الرسول ﷺ، وفي مثل هذه الصورة تزول هذه الإطاعة، فمهما كانت مصالح أصحاب السلطة لا يسمح لهم بالنزاع مع اللَّه تعالى ورسوله ﷺ، ولذا فإطاعتهم عارضة غير مستقلة سواء أردنا بأولي الأمر الخلافة الإلهية أو الإمارة الشرعية أو مركز الملة، ولذا يجب على أولي الأمر أن يلتزموا بإطاعة اللَّه ورسوله ولا ينازعوهما.

وفحوى الآية أن إطاعة القائد والرئيس، مهما كان اسمه وتفسيره، واجبة بشرط أن يوفوا اللَّه ورسوله. وقد أشير إلى هذا في قوله ﷺ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» [صحيح الجامع: رقم ٧٥٢٠].

٤ - ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١﴾ [الأحزاب: ٢١].

الإسوة بالكسر، وتضمّ: القدوة، وما يأتسي به الحزين ج: إساً بالكسر ويضمّ. (ترتيب القاموس المحيط: ١ / ١٤٩).

وهذه الآية تؤكد أن إطاعة الرسول ﷺ في أقواله وأفعاله، والاقتداء به طريقة مثلى، وهذا الاقتداء هو الدليل على الإيمان باللَّه تعالى وبالآخرة. فإن خلا قلب من عاطفة اتباع النبي ﷺ، فينبغي أن لا يرجو من اللَّه تعالى شيئا، وكذلك لا يعقل أن يستقيم إيمانه بيوم القيامة: «محمد فرق بين الناس» الحديث.

وهذه الآية في سورة الأحزاب، وقبل ذلك ورد قضاء النبي ﷺ في نكاح زوجة المتبنى، ثم توجيهات لأمهات المؤمنين وحقوقهن، ثم إتباع أحكام النبي ﷺ في الحرب، وهذه الأمور كلها تدخل في الأسوة. وهذه الآية جعلت النبي ﷺ أسوة في الدين والدنيا جميعا، وصرحت بأن ذلك أساس الإيمان باللَّه والإيمان بالآخرة.

وقد تّم بيان سيرة النبي ﷺ في القرآن الكريم بأسلوب حكيم جدا، واستيعاب قراءة هذه المواضيع بدقة وروية لا يترك شبهة في حجية السنة ووجوب اتباع النبي ﷺ. وهذا باب مستقل نرجو أن نعود إليه في فرصة أخرى حتى يتضح منهج القرآن الكريم في سيرة الرسول ﷺ.

(وقد أورد الشيخ موسى جار اللَّه في كتاب السنة مبحثا موجزا لطيفا عن هذا الموضوع).

وقد بين القرآن الكريم هذا الموضوع بعناوين وطرق مختلفة، ويتضح بأسلوب القرآن أن هذه المسألة ذات مكانة أساسية في نظر القرآن، ولو صرفنا النظر عن الرسول لبقي القرآن والإسلام كلاهما كاليتيم والمسكين.

إني شرحت هذا الموضوع بإيجاز في اجتماع «فيصل آباد»، ونظرا لأهميته أوردت هنا نوعا من التفصيل، ولكنه أيضا في غاية الإيجاز، ولمزيد من التفصيل تراجع رسالة «مقام الحديث» التي طبعت في الماضي.

إنكار السنة المكشوف في القرن الرابع عشر:

المولوي عبد اللَّه الجكرالوى هو أول من عارض علوم السنة بصراحة، انه لم يستسغ ذكر إطاعة الرسل، وقد حاول التخلص من هذه الإطاعة بتفسير الرسول بالقرآن، ولكن القرآن مملوء بذكر هذه الإطاعة، وقد تكررت في سورة الشعراء في نحو عشرة مواضع هذه الجملة: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

كأن الإطاعة شيء يساوي تقوى اللّه في المنزلة.

وقال في سورة آل عمران: ﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عمران: ٥٠].

وقد تكرر في نحو (٤٠) موضعا من القرآن الكريم ذكر إطاعة الرسول بأساليب مختلفة، ويدرك صاحب الفهم العادي أن التعبير جاء بالرسول في كل موضع، ولم يرد باللفظ الأصلي مرة، مع أن ذكر القرآن والفرقان والكتاب ورد في موضعه، فما هو وجه العدول عن هذا التعبير في كل موضع؟

والحقيقة أن لفظ الرسول عبّر به عن ذلك الداعي الذي أتى بدعوته، وعرض دعوته ووضح مكانته في كل عصر بصفة مستقلة، ولذلك لا نرى في حيل وتأويلات المولوي عبد اللّه الجكرالوي وأتباعه أي نوع من القوة والمنطق. إن صرف النظر عن شخصية الرسول ﷺ يهدم بيت التدين بكامله، ويقضى على التشريع الذي أتى به الإسلام.

القرآن وتواتره:

سبق أن قلنا إن القرآن وصل إلينا بالتواتر، فلا نحتاج فيه إلى مباحث السند، ولكن يبدأ هذا التواتر بالنبي ﷺ، وهو في موضعه واحد.

والمعتقدون في السنة، لا يثيرون أمامكم مبحث الرسول وبشريته وما يلزمها، ولكن لو أثار رجل غير مسلم البحث عن ذات النبي ﷺ، فالتواتر لا يحقق فائدة، فإن الرسول ﷺ يكون وحيدا في هذا التواتر.

إن النصارى واليهود يعتقدون صلب المسيح بتواتر واتفاق كبير، ولكن ينتهي هذا التواتر إلى الجلّاد الذي قام بصلب المسيح في عاصفة شديدة وظلمة قاتمة مثيرة للتراب، ولم يوجد هناك أحد من اليهود أو حواريي المسيح أو رجال الحكومة، والقرآن الكريم أنكر صلب المسيح مع هذا التواتر، وكذلك أنكر

قتله. والعالم الإسلامي كله، سوى القاديانية ومن ذهب مذهبها، لم يبال بهذا التواتر المشبوه، فإنه في بدايته لم يتواتر.

وحسب تفكير منكري الحديث لو صارت عصمة الرسول واجتهاده وتعبيره محل نظر لانتفت الثقة بالنبوة وعواملها، فأي فائدة تحصل لكم حينئذ بالتواتر؟ إن التواتر يجب له أن لا تخلو سلسلة من سلاسله بموجباته حتى يوجب اليقين.

إنكم لو أعفيتم النبي ﷺ والأنبياء قبله من نكاتكم الجدلية حفاظا على حجية القرآن وتواتره، ولو سلمت منزلة النبوة من هجمات ظنونكم وأوهامكم، لصارت السنة أيضا في منجى من الأخطار. إنكم تعلمون أن السنة تطلق على الأعمال الشرعية لذلك الرسول الذي حفظ لكم القرآن الكريم.

وإن لم تسلم منزلة النبوة من ذلك التدقيق وتلك الأخطار المظنونة، لم يبق ملاذ للقرآن الكريم، ولا مصدر للإسلام والإيمان، ولا مانع لحرياتكم.

شبهات منكري السنة:

لم يقع بصري على كتابة جامعة لمنكري السنة، ذهبوا فيها ضد السنة ومنزلة النبي ﷺ مذهب الجد بشمول. إنهم أوردوا شبهات على بعض الأحاديث، وأقصى ما تقتضي هذه الشبهات هو إنكار تلك الأحاديث العديدة التي لم يطمئن القلب نحوها، ولكن لا يعقل رفض ذخيرة الأحاديث كلها بناء على تلك الشبهات التي نشأت حول أحاديث معدودة. إن متخبطا لو استعصى عليه فهم بعض آيات القرآن الكريم لما استجاز عاقل أن ينكر القرآن كله.

إن شبهات معدودة استخرجتها من كتابات منكري السنة تدور حولها كتابتي هذه. وسبق أن عرضت وجهة نظري نحو الروايات التي تم فيها الطعن، ونحو بعض الشبهات المهمة في الرسالة التي ألفتها استعراضا لنظرية الشيخ أبي الأعلى المودودي نحو الحديث، وهي منشورة مع هذه المجموعة، وقد تكلمت فيها

حول تعاريض إبراهيم ولطمة موسى عليهما السلام بقدر الحاجة، وأريد في هذا المقام إيراد بعض النقاط الأصولية فقط. [لا تحتوي هذه المجموعة على الرسالة المشار إليها، بل أنها ترجمت إلى العربية، وطبعت على حدة].

شبهة الظنية في الحديث:

منذ أن تحولت الأوهام والوساوس في الحديث إلى حركة، وتبنّى بعضُ المفكرين عرض هذه الوساوس في صورة تجارية، تحولت هذه الأوهام لدى العامة إلى الدلائل، وصار إنكار الحديث شغلا شاغلا. إن الألسنة غير العلمية تلوك المصطلحات المعروفة فتستعملها في المعاني غير الاصطلاحية، وبذلك تزل أقدام السذّج من الناس. ومن هذه المصطلحات «الظنُّ»، وقد تم التشكيك في الحديث بأنه ظني. ومن هنا مست الحاجة إلى نفض الغبار وتصفية الجو من الكدر الذي جاء من قبل حركة إنكار الحديث.

التحقيق العلمي للظن:

وقبل أن ننظر في معنى الظن في الشرع والعرف واللغة، يجب أن نلم بخلفية هذه المغالطة.

يستعمل لفظ الظن في العربية والأردية معا، ولكنه يستعمل في الأردية بمعنى الشك والوهم، وتستعمل ألفاظ «المشكوك» و«الموهوم» و«المظنون» مترادفة، وهذا الاستعمال أدى إلى زلة منكري السنة.

ولكن لم يستعمل لفظ الظن في العربية دون قرينة بالمعنى المذكور. يقول الراغب:

«الظن اسم لما يحصل عن أمارة، ومتى قويت أدت إلى العلم، ومتى ضعفت جدا لم يتجاوز حد التوهم». (مفردات ألفاظ القرآن ص ٥٣٩).

ويقول محمد بن مكرم بن منظور:

«الظن شك ويقين، إلا انه ليس بيقين عيان، إنما هو تدبر».

وفي تهذيب الصحاح:

«الظن يقين وشك، وأنشد أبو عبيدة:

ظني بهم كعسى وهم بتنوفة يتنازعون جوائز الأمثال

ومثل هذه التصريحات وردت في أقرب الموارد والقاموس والمنجد وغيرها من كتب اللغة. وفي ضوء هذه التصريحات يتضح معنى الظن العرفي، أي انه يطلق على العلم واليقين، وعلى الشك والتخمين، فالمدار على القرائن، أي يتحدد معنى الظن بعد النظر إلى القرائن».

ورأي علماء العربية في هذا اللفظ أوضح، يقول العلامة أبو البقاء يعيش بن علي بن يعيش (م ٦٤٣ هـ) في شرحه للمفصل:

«الظن أن يتعارض دليلان، ويترجح أحدهما على الآخر، وقد يقوى المرجح فيستعمل بمعنى العلم واليقين، نحو قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦] (ابن يعيش ٢ / ٧٧).

وفي الجزء السابع من نفس الكتاب وضّح المسألة أكثر فقال: إن القول والرؤية أيضا يستعملان بمعنى الظن أحيانا».

والحاصل أن الأشياء التي يتم إدراكها بالحواس الظاهرة تسمى ضرورية أو بديهية، وهكذا الأشياء التي تتعلق بالوجدان تكون بديهية وضرورية. أما الأشياء التي تتعلق بالعقل، وتعارضت فيها الأدلة العقلية، ولم يظهر وجه الترجيح فهو تردد أو شك، وإن ظهر وجه الترجيح فالراجح هو الظن، والمرجوح يعبر عنه بالشك أو الوهم اهـ (ابن يعيش ٧ / ٧٨).

وقد وضع العلامة حسين بن محمد بن مفضل الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢ هـ) في مفردات القرآن هذه القرائن في صورة قاعدة فقال:

«ومتى قوي أو تصوّر تصور القوي استُعمل معه أنّ المشدودة وأن المخففة منها، ومتى ضعف استُعمل أن المختصة بالمعدومين من القول والفعل. (مفردات ٥٣٩) [ويحسن الرجوع إلى الموسوعة الفقهية ٢٩ / ١٧٨ وما بعدها، والبحر المحيط للزركشي ١ / ٧٤ وبعدها].

وبعد ذلك ساق شواهد كثيرة من القرآن الكريم تأييدا لقوله:

١ - ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦].

٢ - ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [المطففين ٤ . ٥].

٣ - ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ۝٢٨﴾ [القيامة: ٢٨].

٤ - ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم﴾ [الحشر: ٢].

٥ - ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجن: ١٢].

٦ - ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ [الجن: ٧].

٧ - ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ﴾ [الفتح: ١٢] فقد استعمل الظن في هذه الآيات كلها في معنى العلم واليقين، سواء في الواقع أو وفق خيال المتكلم.

ولو فكرتم في القرآن الكريم مثل طلاب العلم لوجدتم توضيح هذا الفرق بطريق آخر، حيث استعمل > الظن < إزاء الحق، كما انه استعمل في معنى الشك والوهم:

﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢].

وقال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣].

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

منشأ الخطأ الحقيقي:

المنشأ الحقيقي للخطأ هو استعمال كلمة > الظن < في اللغة البنجابية، ثم جهل هؤلاء اللغة العربية وما فيها من أساليب الاستعمال وأنواع الدلالة. والظنية عند أئمة الحديث تعني أن صحة الحديث ثابتة بالأدلة العقلية، وليست من قبيل المرئيات والسمعيات، بل أثبت أئمة الحديث مستدلين بأحوال الرجال والقرائن ومستخدمين العقل والشعور في البحث والنظر صحة الأحاديث، وليس ذلك شيئا مرئيا بالنظر أو مسموعا بالأذن، بل منزلة هذا العلم واليقين تلي منزلة العلم واليقين الحاصلين بالسمع والبصر.

ثم إن الأشياء التي أمام أعيننا، أو التي ندركها بالسمع يحصل لنا العلم واليقين عنها، ولكن القطعية لا تزال محل نظر هناك أيضا، فإن رؤية العين في حجم النجوم ليست على صواب، وخطأ النظر في المرئيات والأشباح من الحقائق المسلّم بها، مع أن تلك الأشياء أمام عيوننا. والأشجار الباسقة على الجبال مرتفعة نحو عشرات الأمتار، ولكنها تظهر للبعيد مثل الأغصان. فإذا كان عين اليقين أو العلم بالعيان معرّضا للخطأ، ندر وجود القطعية في العالم.

وعلى هذا يبقى لمنكري الحديث طريقان. الأول: أن يقبلوا مثل عامة الناس الظنيات في الأخبار والأحكام. والثاني: أن يهاجروا إلى العالم الذي لا يتصلون فيه بالظنيات، بل تمتلئ بيئتهم جزما ويقينا. ولعلنا نجد مئات من الأحاديث المتواترة، ولكن يندر وجود القطعية في هذا العالم أيضا.

أهمية الظن في الشريعة الإسلامية

وبصرف النظر عن عامة الناس، إذا نظرنا إلى الشريعة الإسلامية وجدنا أنها أنزلت الظنيات منزلة الاستناد، إن محكمة القضاء تعتبر أساسا في الأحكام الشرعية، ولكن من يضمن الصحة لجميع الأقضية التي يصدرها كل قاض ؟ لا

حاجة للنظر إلى القضاة غير الأمناء، ولكن القاضي الأمين أيضا لن يكون معصوما أبدا، فمن الممكن جدا أن يصدر القضاء بإحسان النية وإخلاصها، ولكنه لا يتصف بالصحة في الواقع، ويوضح ذلك قول النبي ﷺ:

«إنما أنا بشر، وإنه يأتيني الخصم، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض، فأحسب أنه صادق، فأقضي له بذلك، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار، فليأخذ أو ليتركها»[1].

وإذا كان الأمر كذلك عن قضاء الرسول، فأين نجد اليقين والقطعية في قضاء الآخرين ؟

الشهادة:

تعتمد محكمة القضاء في الأغلب على الشهادة والقرائن، ولكننا نعلم بداهة أن الشهادة قد تكون خطأ أو مبنية على سوء التفاهم، وصحتها ظنية على كل حال، وعلى أساس هذا الظن تقوم جميع المحاكم العاملة في الساحة، وهذه المحاكم العدلية تتوقف من الناحية الشرعية والقانونية على الشهادة، وهذه ظنية من أوّلها إلى آخرها.

واشتراط العدالة وغيرها في الشهادة محاولة لإيجاد نوع من الاعتماد والوثوق في ذلك الظن. وأضاف الشافعية وأئمة الحديث إلى الشهادة اليمين حتى ينشأ فيها قدر من الرجحان الذي يقربها إلى الظن.

والآية الكريمة ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ [المائدة: ١٠٧] تنبئ عن إمكان الخطأ في الشهادة، وهذا الإمكان يجعل صدق الشهادة ظنيا.

---

(١) (البخاري مع الفتح ١٣ / ١٧٢).

التحكيم:

التحكيم قريب من القضاء، والظنية توجد فيه مثل وجودها في القضاء. إن الحاج لو اصطاد دابة فعليه أن يقدّم دابة مثلها:

قال تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥].

وهذا الحكم ظني دون شك، فان المثلية قد تكون تامة وقد تكون ناقصة.

وقال تعالى عن الشقاق بين الزوجين: ﴿فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ ۚ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ [النساء: ٣٥].

فان الشرطية قد أظهرت ظنية هذا التحكيم، وقد أمر القرآن الكريم بالتحكيم في هذه المواضع شرعا. وتنبني المصالح العامة والمفاسد على الظن، فلا ندري من همس في آذان منكري الحديث بأن الظن لا يستند إليه شرعا؟ والآن نختم هذا البحث بشهادة الحافظ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام (ت ٦٦٠ هـ)، يقول الشيخ:

«فصل في بيان جلب مصالح الدارين ودرء مفاسدهما على الظنون، الاعتماد في جلب معظم مصالح الدارين ودرء مفاسدهما على ما يظهر في الظنون، وللدارين مصالح إذا فاتت فسد أمرهما، ومفاسد إذا تحققت هلك أهلهما، وتحصيل معظم هذه المصالح بتعاطي أسبابها مظنون غير مقطوع به، فإن عمال الآخرة لا يقطعون بحسن الخاتمة، وإنما يعملون بناء على حسن الظن، وهم مع ذلك يخافون ألا يقبل منهم ما يعملون، وقد جاء التنزيل بذلك في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠] فكذلك أهل الدنيا، إنما يتصرفون بناء على حسن الظنون، وإنما اعتمدنا عليها لأن الغالب صدقها عند قيام أسبابها، فإن التجار يسافرون على ظن أنهم يسلمون ويربحون، والصناع يخرجون من منازلهم على أنهم يستعملون بما به يرتفقون، والأكّارون يحرثون

ويزرعون بناء على أنهم يستغلون، والجمالون والبغالون يتصدون للكراء لعلهم يستأجرون، والملوك يجندون الأجناد ويحصنون البلاد بناء على أنهم بذلك ينتصرون، وكذلك يأخذ الأجناد الحذر والأسلحة على ظن أنهم يغلبون ويسلمون، والشفعاء يشفعون على ظن إنهم يشفعون. والعلماء يشتغلون بالعلوم على ظن أنهم ينجحون ويتميزون، وكذلك الناظرون في الأدلة، والمجتهدون في تعرف الأحكام يعتمدون في الأكثر على ظن أنهم يظفرون بما يطلبون، والمرضى يداوون لعلهم يشفون ويبرءون. ومعظم هذه الظنون صادق موافق غير مخالف ولا كاذب، فلا يجوز تعطيل هذه المصالح الغالبة الوقوع خوفاً من ندور كذب الظنون، ولا يفعل ذلك إلا الجاهلون»[1].

والظاهر أن الكون كله يقوم على الأمل، والشارع أيضا قد بني أكثر أحكامه على الظن، ومختلف الطبقات في العالم المتحضر تسير على الظن والأمل. وقد أسس أئمة الحديث علم نقد الحديث وتصحيحه وتضعيفه على أمور يقينية أقوى مما فيه عامة الدنيا، ومع ذلك اختاروا مصطلح «الظنّ» الذي حمله منكرو الحديث على الشك والشبهة ورفضوه، وقد نشأ هذا الخطأ بسبب جهلهم باللغة وتصاريفها وتنوع دلالتها. فكلمة تستعمل في العربية بمعنى الحيلة والتدبير، ثم في حيلة السوء، ولما انتقلت هذه الكلمة إلى اللغة الأردية والبنجابية اقتصرت دلالتها على الخديعة والغش، حتى اعترض المسكين «البندت ديانند» على القرآن فقال: إنه وصف اللّه تعالى بالمكر:

وكم من عائب قولا صحيحا وآفته من الفهم السقيم

فالشرع اعتمد على الظن، واستند إليه في كل مرحلة ملائمة، وبنى عليه الأحكام. يقول الحافظ ابن رجب الحنبلي:

---

(١) (قواعد الأحكام في مصالح الأنام ت عبد الغني الدقر ص ٢٢).

«والشارع لم يكلف العباد بما في نفس الأمر، بل بما ظهر وبدا، وإن كان مخالفا لنفس الأمر»[1].

وصرح القرآن الكريم فقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

فالعبد ليس مكلفا بما ليس في مستطاعه، نعم انه مطالب بمعالجة الشبهات وإزالتها حسب القدرة، وحيث لم يمكن ذلك فعليه أن لا يقع فريسة للشكوك والشبهات، وهذا هو ما فعله أئمة الحديث أيضا، رحمهم اللّه تعالى.

شبهة منتنة:

نظرية إنكار الحديث عمرها نحو سبعين سنة، وقد بدأت على أيدي المولوي عبد اللّه، والمولوي حشمت علي من لاهور، والمولوي رمضان علي من غجرانواله، ورشيد الدولة من غجرات، ومنكري الحديث في ملتان وفي ديرة غازي خان، وقد وجّه هؤلاء إلى الحديث وأئمته وأصوله نقدا لاذعا، ولكنهم لم يتفوهوا قط بشبهة المؤامرة الفارسية في الحديث، بل تفرد باختلاق التاريخ وبهذا الكشف العجيب مؤسسة «طلوع إسلام» والشيخ محمد أسلم الجيراجفوري. ويرى هؤلاء أن عددا كبيرا من أئمة الحديث من أهل فارس، وكانت الدولة الفارسية قد انتهت في القرن الأول الهجري، وكانت سلطة أهل فارس قد تم القضاء عليها بعد موت يزد جرد. وهنا، كما يرى منكرو الحديث، تواطأ أئمة الحديث مع من بقي من الدولة الفارسية لتدمير الإسلام. فمجاميع الحديث الكبيرة وذخيرة الرجال العلمية والتاريخية وقواعد أصول الحديث العقلية واللغوية، كل ذلك نتج عن انهزام أفراد الحكومة الفارسية ومؤامرة العلماء، وبذلك تطرق الفساد إلى الإسلام. ومنذ سنوات تذاع هذه التهمة بقوة، ويتقبلها الفكر المعاصر الساذج بسبب فتح فارس.

---

(١) (القواعد ٣٥٦).

وإني أود تفصيل الكلام في التعليق على هذه النقطة، وأوكد أولا أن القضية بأسرها أسطورة وافتراء ومجرد وهم لم يقم عليه دليل، بل الذين يقومون بالدعاية لهذه المؤامرة، هم أنفسهم وقعوا فريسة لمؤامرة.

أسباب المؤامرة:

إن الحكم في عصرنا الديمقراطي يكون للشعب جميعا، وقد تقرر في طرق الانتخاب السائدة أن أرباب الحكم يمثلون عن السكان كلهم، وبما أن هؤلاء مسئولون أمام الشعب، والسلطة حصلت لهم بأصوات الشعب فإن الحكم هو حكم الشعب. ومثل هذه الحكومة لو ذهبت لتعسر فهم أن السلطة انتقلت من السكان إلى الأيدي الأجنبية، ولذا فإن المؤامرة ممكنة في مثل هذه الأحوال.

وقبل اليوم بنحو قرن لم تكن الحكومة انتخابية، ولا متمتعة بالتمثيل الشعبي، ولا مسئولة أمام الشعب، بل كانت شخصية، أو على الأكثر كان الحكم يستتب لقوم، وبقية الناس يبقون محكومين، والمسئولية أمام الشعب لم تكن قط في الحسبان، وكذلك لم تكن الحكومة ملتزمة بقانون ودستور، كان رأي الملك ومرسومه هو الدستور، ثم رأي الذين تقربوا إلى الملك بتأييدهم له.

والولاء لمثل هذه الحكومات كان ينشأ بالحاجات الشخصية أو بسيرة الملك الذاتية وسلوكه. ولو حدثت ثورة لتأثرت بها البلاد، ولكن لم يكن ذلك ناشئا عن الولاء للملك أو لأسرته، بل بسبب المصالح الخاصة بالحكومة السابقة أو اللاحقة.

وكانت حكومة فارس شخصية انتهت بموت يزد جرد، وأسرته تعرضت دون شك للدمار والاندثار، ولكن التاريخ لا يدل على مؤامرة دبّرت حينذاك على سبيل الموالاة مع تلك الأسرة.

وبصفة عامة كانت حكومة فارس بعد أنوشيروان تميل إلى الانهيار، وكان

سلوك الحكام يتطرق إليه يوما بعد يوم الظلم والجور مكان العدل والقسط، ولم يكن للشعب ولاء وسودة مع الحكومة، فمن أين يأتي التساؤل عن المؤامرة ؟

إن الحكومة الفارسية كانت على المجوسية، والإسلام قد أثر بصفاء عقيدة التوحيد في اليهودية والنصرانية، ولم تقم أمامه الوثنية، فكيف بالمجوسية. إن توجيهات الإسلام في هذا الباب كانت في غاية الوضوح، ولم يكن منها شيء في الخفاء، وموقف الإسلام من عقيدة التوحيد كان كتابا مفتوحا. انه كان يستمع إلى شبهات الآخرين واعتراضاتهم بصدر رحب، ولم يكن يألو في الرد عليها أو تصحيحها، ولا يفرض على أحد شيئا من نظرياته بإكراه. فمن يتآمر ضده ولماذا وكيف ؟ إن حكومة فارس سقطت في زمن الخليفة الراشد الثاني، وقتل يزد جرد بأيدي رعيته، وهذه الرعية ساعدت عساكر المسلمين في القضاء على تلك الحكومة، فكيف مست الحاجة إلى مؤامرة ؟

وتوجد في شهادة عمر رضي الله عنه بعض الأقوال المثيرة للشبهة، ولكن الطريقة التي تمت بها عقوبة القاتل لا تترك مجالا للمؤامرة، بل تؤكد أن محاولته كانت ثأرا ذاتيا.

فإن كان هناك -خوف مؤامرة أغلق باب المدينة المنورة على الأعاجم، ولكنه ظل مفتوحا مع التخوف من بعض المتطرفين. إن العداوات الذاتية قد تؤدي أحيانا إلى القتل، وهذا الأمر قد أدى إلى شهادة عمر. وعلى سبيل الفرض إن كانت هناك مؤامرة فعلى الأقل لم تكن عامة يقف الشعب وراءها، بل انحصرت في أسرة فارسية واحدة فقط.

بعد الفتح :

بقي ألوف من الفرس بعد فتح فارس على دين آبائهم يعطون الجزية، ولم يتعرض لهم أحد، وبقيت معابدهم مدة طويلة كما كانت، ومن رغب منهم في الإسلام قبله المسلمون بمودة وإكرام.

فالحرية توفرت للدين، وصارت السياسة دون تأثير، وفرح الشعب بانتصارات المسلمين، وأبدى حزنه الشديد حيث تأخروا عن موضع تحقيقا للمصالح العسكرية.

فالعجب كل العجب أن مؤسسة طلوع إسلام والشيخ أسلم الجيراجفوري أبصروا جراثيم المؤامرة في مثل هذا الوضع!

إن التاريخ يدل على أن أهل فارس اطمأنوا تماما بعدالة المسلمين وقيامهم بالقسط، واعتزلوا مجال السياسة، وقد توجه أذكياؤهم إلى الاشتغال بالعلم إذ لمسوا حب الفاتحين للعلم وتشجيعهم للعلماء. وهكذا حازوا شهرة عظيمة في دنيا العلم بجانب فوزهم بالعزة والكرامة في الآخرة، وهكذا لم يفكروا قط في المؤامرة ضد الحكومة.

إن قصة المؤامرة هذه بكاملها قد اختُرِعت في بيت الجيراجفوري ومكتب مؤسسة طلوع إسلام، وإثباتها في ضوء الوقائع ليس صعبا فحسب بل غير ممكن قطعا. نعم حينما سيطر البرامكة في الدولة العباسية على الوزارة قامت جبهة ضد عقائد الإسلام الواضحة بسبب ما ترجم من العلوم اليونانية، ولكن كانت مجاميع الحديث قد تم ضبطها وتدوينها قبل ذلك، حتى إن الخليفة هارون الرشيد كان قد أبدى طمأنينة نحوها، أما العلوم اليونانية فقد رد عليها أئمة السنة بجرأة بالغة حتى فقدت تأثيرها وضعفت عن مقاومة هجمات أئمة السنة.

وجه مضحك للمؤامرة:

من الأنواع الغريبة للمؤامرة أن قبل المتآمرون دين الفاتحين، ثم خدموا علومهم خدمة أغنتهم عن مزيد من الجهود لها، وطمأنتهم على مستقبلها، ثم تولى الفاتحون حماية أكثر هذه العلوم ومن اشتغل بها. يقول ابن خلدون:

«ودفعوا ذلك إلى من قام به من العجم والمولّدين، وما زالوا يرون لهم حق

القيام به فانه دينهم وعلومهم، ولا يتحقرون حملتها كل الاحتقار»[1] .

ومن المعلوم أن الأعاجم في بلاط الخلفاء الأمويين لم يتمتعوا بالسلطة التي حصلت للبرامكة في بلاط العباسيين، ولكن لم يكن لهم نصيب من خدمة الدين، فالبرامكة لم يوفقوا لخدمة اللغة العربية، فضلا عن القرآن والسنة والعلوم الدينية.

حاول هارون الرشيد أن يتولى الإمام مالكا ودروسه، ولكن رد الإمام هذا العرض دون مبالاة، وقدم الخليفة له مالا فردّه باستغناء.

إن أقصى ما يُستهدف من المؤامرة هو الوصول إلى البلاط الملكي والحصول على المال والمساهمة في الحكم، وحينما يحضر الخليفة بنفسه إلى الإمام، ويقدّم له أمواله بكل تواضع وتكريم، والإمام يعتذر عن قبول ذلك كله باستغناء تام، فبأي شيء نفسّر هذا الموقف النزيه ؟ أهكذا يفعل المتآمرون ؟

ثم إن الخليفة يرجو من الإمام أن يقدم بغداد، ويؤمّن له كل تعظيم وتكريم، ولكن يرد عليه الإمام، الذي انتهت إليه رئاسة فن الحديث، ولكن زعمه الأفاكون زعيم المؤامرة الفارسية، فيقول: والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون.

ومعنى ذلك أنه رأى مغادرة المدينة غير ممكن لنفسه.

ثم إن طائفة المتآمرين بأسرها تتوجه من مختلف بلاد العجم إلى المدينة المنورة، وتصل إليها بعد قطع آلاف الأميال من المسافة، وتتقدم إلى الإمام لتحصيل العلم، ولا يفكر أحد منهم أن إمامهم شيخ عربي قد يكشف سر المؤامرة التي حاك خيوطها هؤلاء الأعاجم !

والتلاميذ الأعاجم يستفيدون من شيخهم العربي مدة طويلة، ويتلقون

---

(١) (مقدمة ابن خلدون ٥٨) .

الدروس عنده، وفي سبيل هذا التحصيل يوجه الزميل نقدا إلى زميله، ويكثر الحديث عن الضعف والنقص اللذين قد يوجدان بينهم، والمحدث العربي ينتقد علماء العجم، والعجمي يدل على نقائص العرب، ولكن لم يعثر أحد منهم على المؤامرة التي تفرد باكتشافها ـ بل باختراعها ـ مكتب «طلوع إسلام» عربيا كان أو عجميا، شيخا كان أو تلميذا أو زميلا.

ثم العجب فوق العجب أن فارس فتحت أوائل القرن الأول الهجري، وتم وضع خطة المؤامرة في القرن الثالث، أي نام البلهاء من الفرس نحو قرنين كاملين بهدوء وراحة، ولم يشعروا بمرارة الهزيمة وآلامها في وقتها، ولكن انتابهم القلق والألم بعد ثلاثة قرون، فتشكَّل المتآمرون الفرس في أشكال البخاري ومسلم ومؤلفي الصحاح الآخرين، فيا للعقول وأربابها!!!

ثم إن هذه المؤامرة العظيمة التي أحاطت بالعالم الإسلامي والتعليمي كله، لم يتفطن لها أحد، عميت أبصار مؤرخي العالم، مسلمين وغير مسلمين، وانكسرت أقلامهم، وخرست ألسنتهم حتى خلت مؤلفاتهم الضخمة من ذكر هذه المؤامرة الخطيرة، وانكشف هذا السر أول مرة للملحدين الأوروبيين، ثم استعار منهم المتسوّلون في مكتب «طلوع إسلام» عظاما عديدة ينهشونها ! ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩]!

المؤامرة الأعجمية والعلوم الدينية:

يعلم طلاب الحديث أن فن الحديث قد مر في بدايته بثلاث مراحل: الأولى جمع الحديث، والثانية تدوينه، والثالثة ترتيبه.

المرحلة الأولى مرحلة الجمع والحفظ:

إن مرحلة جمع الحديث وحفظه كانت قد بدأت في حياة النبي ﷺ الطاهرة، وتحت رعايته الشريفة، وقد خص ﷺ علماء الحديث وطلابه

بدعوات مثل قوله : رحم اللّه امرءا سمع مقالتي فوعاها ثم أداها كما سمعها[١] . .

وكان الصحابة يتذاكرون الحديث فيما بينهم ويعاودونه، يقول أبو سعيد الخدري : تذاكروا الحديث، فان الحديث يهيج الحديث[٢] .

ويقول ابن عباس :

تذاكروا هذا الحديث، لا ينفلت منكم فانه ليس مثل القرآن مجموع محفوظ، وأنكم إن لم تذاكروا هذا الحديث ينفلت منكم، ولا يقولن أحدكم حدثت أمس فلا أحدث اليوم، بل حدث أمس، ولتحدث اليوم، ولتحدث غدا (أيضا) .

ويقول ابن أبي ليلى : تذاكروا فان إحياء الحديث مذاكرته[٣] .

ويقول علقمة : تذاكروا الحديث فان ذكره حياته . (أيضا)

وكان الصحابة يجلسون بعد صلاة العشاء للدرس والمذاكرة إلى أن يؤذن للفجر . ومثل هذه الآثار توجد بكثرة في سنن الدارمي وغيره من كتب الحديث . وكانت لدى الصحابة والتابعين مجاميع حديثية مكتوبة، وكتب الحديث تذكر بكثرة صحائف عبد اللّه بن عمرو، وعبد اللّه بن عمر، وأبي هريرة .

كان الدرس والمذاكرة تجري في حياة النبي ﷺ، وكان الصحابة يكتبون دروسهم، يقول أبو قبيل :

«سمعت عبد اللّه بن عمرو قال : بينما نحن حول رسول اللّه ﷺ فنكتب فسئل رسول اللّه ﷺ أي المدينتين تفتح أولا، قسطنطنية أو رومية؟ فقال رسول اللّه ﷺ : لا بل مدينة هرقل»[٤] .

---

(١) (مع خلاف في الألفاظ في مشكاة المصابيح ١ / ٧٨ ت الألباني) .
(٢) (الدارمي ت السيد عبد اللّه هاشم ١ / ١١٩) .
(٣) (الدارمي ١ / ١١٩) .
(٤) (الدارمي ١ / ١٠٤) .

وبهذا الأثر يُعلم بوضوح أن درس النبي ﷺ للحديث يكتب بحضوره ﷺ، وأن الصحابة كانوا يكتبون دروسهم للحديث للحفظ والتذكرة.

الكذب في الحديث ووعيده:

لم يكن بد من كتابة الحديث بعد وعيد النبي ﷺ لمن يتعمد الكذب في الحديث، فمن المعلوم أن هذا الحديث متواتر مثل القرآن الكريم، وبعد هذا الحديث ليس هناك معنى للبحث عن جواز كتابة الحديث وعدمه، فانه يدل قطعا على أن الحديث وثيقة موثوق بها وحجة شرعية، وأنه لا يسع كذبا وخلطا. وبوجود هذه الحقيقة يجب أن تتخذ كل وسيلة للحفاظ على هذه الذخيرة، سواء بالحفظ والضبط أو بالكتابة والتحرير أو بكليهما، فإن كل واحد منهما يحتمل بانفراده الخطأ والسهو.

وأنسب وقت لذلك هو حياة الرسول ﷺ ووجود جم غفير من الصحابة، وإلا لم تكن حاجة إلى وسائل الحفظ.

والآثار السابقة تدل على أن أمر كتابة الحديث استمر في سيره الطبيعي في المناطق المختلفة التي تواجد فيها علماء الصحابة طوال القرن الأول الهجري، والصحابة جمعوا كتبا ضخاما للتذكرة، وكانوا يرجعون إليها وقت الحاجة ويصححون الأحاديث، حتى لا ينسب إلى النبي ﷺ شيء خطأ، وتفصيل ذلك يوجد في كتب السنة في مواضعه.

القرن الثاني:

في أوائل القرن الثاني أفل نجم الدولة الأموية، وانتكست راية هذه الحكومة إلى الأبد، فتوقف نشاط أئمة الحديث وتحركهم لمدة سنوات بسبب الفوضى السياسية، وانحصرت خزائن العلم هذه في مناطقها، واشتغل بتدريس الحديث في مناطقهم علماء الكوفة والبصرة وبغداد وخراسان ومكة المكرمة والمدينة

المنورة ونجد واليمن ومصر وغيرها، وهكذا انتشرت علومهم ودروسهم في مناطقهم، واستمر عمل حفظ الحديث وكتابته فيها حسب الطاقة والاستعداد.

إن الزعماء الأمويين والهاشميين والعباسيين كانوا في صراع شديد، وعواصف الثورة والانقلاب تهب بقوة، ولكن المتآمرين كانوا مشتغلين في مدارسهم بجمع الحديث وحفظه بهدوء تام! فان ساء ظن أحد الملوك في عالم ألقاه في السجن، ولما مضت مدة السجن خرج العالم من السجن إلى مدرسته يمارس خدمة الدين، ولم يخط خطوة عملية، مؤيدة أو معارضة، نحو تلك الفرق المتحاربة، إن سوء الظن وقع بمجرد إبداء الرأي أو ميلان الطبع، مع أن المؤامرات تنتظر مثل هذه الأوقات. إن أحسن وقت للهجوم على العدو هو الذي ينشغل فيه بناحية أخرى. إن التاريخ يذكر بعض الوقائع الخاصة بالاشتغال السياسي عن الإمام أبي حنيفة، ولكن ظهر فيها هذا المتآمر الفارسي العظيم مؤيدا للدولة الهاشمية العربية!

إن قرأتم تاريخ هذا العصر وجدتم بعض الأحداث الخاصة بتعدى الحكومة على أهل العلم، ولكن التاريخ ساكت عن إنشاء هؤلاء العلماء جبهة ضد الحكومة. والحقيقة أن ملف المؤامرة بتمامه أعدّ في مكتب «طلوع إسلام» وفي بيت العلامة الجيراجفوري، وبقي هناك، ولعل هؤلاء يحملون أثقال هذا الاتهام على أكتافهم حينما يقفون أمام اللّه: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

المرحلة الثانية مرحلة التدوين:

وفي القرن الثالث حينما رسخت أقدام الحكومة العباسية، وخلت ساحة الخلافة من الأمويين والهاشميين، واستتب الأمن والسلام في البلاد بعد أيام من الفوضى والاضطراب، هَبَّ أئمة الحديث من جديد، وشمروا عن ساق الجد في قطع المسافات، وقرروا القضاء على اتجاه تقسيم العلم حسب الوطن والإقليم،

فاستخدم ملوك العلم هؤلاء وسائل السفر الممكنة لغزو الأرض علميا من خراسان إلى المغرب الأقصى، فتهيأ الجو لتقسيم العلم العادل، وهكذا وصل المحدثون بسخائهم العلمي بين أرجاء الشرق والغرب.

كان عمل الجمع والحفظ قد انتهى في هذا الوقت، وتجمعت المجاميع في مكتبات أهل العلم دون ترتيب، فتوجه الطلاب إلى تدوين الصحف المكتوبة بعد تصحيحها وإصلاحها. حقا تم تدوين بعض الكتب في القرن الثاني، ولكن بدأ عمل التدوين كحركة ومهمة في القرن الثالث، فقام أئمة الحديث بتدوين الفن بطرق مختلفة، فقد جمع البعض الأحاديث المرفوعة وآثار الصحابة جميعا، والبعض اكتفى بالأحاديث المرفوعة فقط، وذكر البعض مع الأحاديث المرفوعة مذاهب الفقهاء أيضا، وفصل البعض ذكر الأسانيد والرجال، حينما وقف البعض لدى الحاجة ولم يذهب إلى التفصيل، وجمع بعضهم مسند كل صحابي في موضع واحد ورتب هذه المسانيد في نظام، وبعضهم جمع هذه الذخيرة في صورة المعجم، وأورد بعضهم أول حرف من متن الحديث في صورة العنوان، ورتب بعضهم المعجم بأسماء الرواة، وذكر بعضهم جميع أبواب الحديث ومسائله فدخل فيه السير والمغازي وأشراط الساعة وغيرها، مثل البخاري والترمذي وغيرهما، واكتفى البعض بالسنن فقط، فدخلت فيه تفاصيل العبادات والمعاملات، وجمع البعض صحاح الأحاديث فقط، بينما قدم البعض ذخيرة مختلطة بالصحيح والضعيف، وألف البعض مستدركا، وجمع البعض أدلة مذهب واحد، والحاصل أن جهودهم جمعت ونظمت أزهارا جميلة متنوعة في سلك فن الحديث.

وأكثر أئمة الحديث كانوا فقهاء، وكانت لديهم قدرة تامة على استنباط المسائل، وقد جمع الله تعالى فيهم جميع شروط الاجتهاد، فأتوا بمؤلفاتهم إلى سوق العلم على أحسن تبويب.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المرحلة الثالثة مرحلة الترتيب :

استلزمت مرحلة التدوين مرحلة الترتيب، ولا تزال هذه المرحلة مجالا خصبا لأفكار العلماء يدلون فيه بدلائهم، فتم ترتيب المجاميع حول موضوعات الأخلاق والأموال والمغازي والاقتصاد والطب والأدعية والأربعينيات والخمسينيات والأجزاء وما إلى ذلك، ثم خدمت الأمة هذا الفن في صور الشروح وحل اللغات والقواعد ترجمة الرجال والتمييز بين المختلطات والإجازة والوجادة وغيرها، ورتبوا علومه، وجعلوا ذلك شغل حياتهم الشاغل، فما أعجب هذه المؤامرة التي صارت غاية للحياة، أطارت النوم من العيون، وأنستهم مشاغل الدنيا كلها، فلم تبق لهم رغبة في المأكل المستلذ، ولا طلب للمسكن المريح ولا علاقة ببلاط الملوك !

وسبق أن وجّهت مجلّة «بيان القرآن» الصادرة من أمرتسر إلى المحدثين تهمة مقاطعة البلاط وإضاعة أحسن الفرص السانحة لخدمة البلاد.

والأصل أن الطعن والاتهام من أسهل الأعمال، وخاصة في الذين انتقلوا إلى رحمة اللّه قبل القرون، ومن الذين خلت حياتهم من معرفة اللّه وتقواه والأعمال الصالحة واتباع السنة وخشية اللّه. إن أكبر خدمة دينية لدى هؤلاء الطاعنين ومنتهى علمهم هو بيع الكتب، وإدارة المكاتب بالصدق والكذب، وإرضاء الأغنياء. فلو كان أئمة الحديث أحياء لأنشدوا لهؤلاء المعترضين أبيات عمر الخيام الآتية التي ترجمتها :

يا صاحب الفتوى ! نحن أعقل منك
ومع السكر أصحى منك
أنت تأكل دماءَ الناس، ونحن دماءَ العنب
فقل بالعدل أينا أسفك للدماء ؟

إن أئمة الحديث ليسوا معصومين، ولذا يمكن أن يقع خطأ في الجمع والتدوين والترتيب، والمعروف عنهم أنهم ينتقدون ويستدركون، ولا يقرون أحدا على خطأ مهما كان كبيرا، ولكن لا يمكن أن يتطرق إليهم أدنى احتمال لقيامهم بمؤامرة أو خيانة:

أولئك الذين ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وكزة بعد الحرب

التجأ منكرو الحديث إلى وسيلة الاتهام بالمؤامرة بعد تأخير كبير، فكأنه وكزة بعد الحرب ينبغي توجيهها إلى أقربائهم. ان عمل الجمع والتدوين انتهى في أواخر القرن الثالث، وبعد مضى ألف سنة عاد الصحو إلى منكري الحديث، فظنوا أن المحدثين قاموا بالمؤامرة، وصار فن الحديث ضحية للمتآمرين. فهل يمكن التحقيق في قضية جنائية بعد هذه المدة، وهل يرضى عاقل بالتفكير فيها الآن، وهل يصل هذا التحقيق إلى نتيجة؟

وعلى سبيل المثال: ذكر القرآن الكريم قضية مضت عليها آلاف السنين، أن ملكة مصر وقعت في حب غلام لها فدعته إلى قصرها وغلقت الأبواب، وقالت هيت لك، قلبي لا يطمئن إلا بذلك، وليس لدى مكان للرفض والاعتذار. إن الغلام العفيف تنحى عن الملكة، وقال لها بجرأة: لا ينفع إغلاق الأبواب، فإن عين اللّه تعالى محيطة بنواحي هذا القصر كلها، ونافذة إلى كل ذرة فيه، ثم لا يمكن أن أخون سيدي. جرى الغلام إلى الباب، وتبعته الملكة، وانخرق قميص الغلام في هذا الجري، فلما وصلا إلى فناء البيت وجدا الملك هناك، فوجهت الملكة التهمة إلى الغلام، بأنه بدأ المعاكسة، وعليه أن يسجن، وحينما استفسر عزيز مصر عن حقيقة الأمر ظهرت صورة للقضاء، فقال قائل من الحضور: ليس الأمر صعبا، إن المحاولة لو بدأت من الغلام فلابد أن تكون مواجهة إلى الملكة،

فإن كان قميصه قدّ من قبل صدقنا الملكة في كلامها، واستحق الغلام العقوبة، وإن كان قميصه قدّ من دبر فالأمر واضح، أي الملكة تبعت الغلام حالة هروبه، فهو صادق، ولا ينبغي صرف النظر عن تجاسر الملكة، أما الغلام فهو برئ.

وبعد التحقيق تبين صدق الغلام، فإن قميصه كان قدّ من دبر. وهذا الخصام وقع قبل الآن بمئات السنين، وتم الفصل فيه آنذاك وفق مقياس العدالة في ذلك المجتمع، وثبتت براءة يوسف بشرف.

والآن ينظر النظام القضائي المعاصر إلى تلك القضية بمنظار أذهان اليوم الشاطرة وتدقيق فن المحاماة فيتجاسر على القول بأن الطعن في الملكة لم يكن في موضعه، فإنها ملكة عاشت بأنوثتها قبل مئات السنين، فكيف يصدق العقل بأن تمد يدها إلى غلامها، وتجرى وراء، إن العقل لن يقبل ذلك، ومهما كان الغلام جميلا فهل تجهل الملكة مكانتها، وكيف تجرى وراءها ؟ ان القصة بأسرها معارضة لأصول الدراية. ان القرآن وثّق رواية القصة، ولكن كيف يصرف النظر عن الدراية ؟

من الممكن أن انخرق قميص الغلام بصدفة قبل الحادث، أو انشق في التلاعب مع الأولاد، ويكون للشاهد تعاطف مع الغلام، أو وصل الأمر إلى هذا الحد بصدفة، والقضاء لم يفكر في مثل هذا الاحتمال والإمكان، ولذا تطرق الشك إلى براءة يوسف، وعلى هذا ينبغي أن يعاد النظر في جريمة امرأة العزيز وقضاء محكمة مصر في محكمة القانون. وفضلا عن ذلك كيف يمكن أن يسرع شاب قوي في الهروب، فتجرى وراءه امرأة بسرعة وتخرق ذيله ؟ لا يمكن أن تجرى امرأة بهذه السرعة. إن بنية جسم المرأة ووضع أعضائها يقتضيان أن لا تتمكن من إمساك رجل شاب ولا من الجري وراءه. إن قضاء محكمة مصر عاطفي محض يحتاج إلى مرافعة، فمن الممكن أن يكون اتهام الملكة للغلام صائبا، وتبرّئ الدراية ذيل ملكة مصر!

إن المحامي الماهر المتفنن يتمكن من توليد مثل هذا التنقيح بواسطة «ماكينة الاحتمال والإمكان» ومحب الدراية يستطيع تقطيع الأحداث بمنشار الدراية.

إن الرد على مثل هذه المحاماة من الإنسان الأمين البسيط القلب أن القضاء الذي أصدرته محكمة ذلك المجتمع في تلك البيئة بعد التحقيق كان صائبا.

إني صرفت النظر بتعمد عن وضع شاهد يوسف من ناحية ما ورد في الحديث، لأن مخاطبنا لا يعترف به، وإنه هنا معارض للقرآن، فإن القرآن أطلق الشاهد على من تجمعت فيه شروط الشهادة الفقهية، ولدى هؤلاء ليست للمعجزة والكرامة أهمية ما!

وهناك قصص أخرى في القرآن الكريم تحتمل البحث، ولا يطمئن إليها الاتجاه القانوني المعاصر، ويشعر المحامون والقضاة المعاصرون بأنها في حاجة إلى المرافعة وإعادة النظر، ويمكن الهجوم على القرآن أيضا بسلاح الإمكان والدراية، وهذا هو المقصد الأصلي لأهل القرآن.

إن قضية النعاج رفعت إلى داود، وأنه أصدر حكمه لصالح من عنده نعجة واحدة، ضد من عنده تسع وتسعون نعجة دون أن يسمع من المدعى عليه، سمع قصة المستغيث وقضى لصالحه، ولكن يمكن أن يكون صاحب النعجة الواحدة مقصّرا في حقها، ويرى المدعى عليه أنها تتربى على طريقة أحسن إذ تنضم إلى قطيعة النعاج، فحكم داود عليه بالبغي والظلم يستحق المرافعة دون شك إذا نظرنا بمنظار القضاء المعاصر، والدراية ترى أنه محل نظر.

وذكرت في سورة ن قصة أصحاب الجنة الذين استحقوا سخط اللّه بسبب تجمع المتسولين والحرص على الحفاظ على جنتهم، ولم يكن لهم ذنب غير ذلك، إنهم ورثوا الجنة عن أبيهم، وإعطاء المسكين ومنعه موكول إلى رضا المالك في الشرع، ثم ينشأ تساؤل عن الاستحقاق وعدمه، ولكن دمرت جنتهم بالسخط دون تنبيه وإنذار. لاشك وقع ذلك بحكم اللّه، ولكن جيوش العقل

والشعور إن نزلت إلى الساحة لحماية الحقوق الإنسانية والعدل والقسط فلابد أن تظهر الحقائق مكشوفة. إن المرافعة باسم اللّه والرسول في مثل هذه المواضع غير ممكنة، وللمدافع عن العقل والشعور حق في أن يقول كلمة الدفاع ولو اتجهت إلى اللّه أو الرسول، فان مقتضى العدل والحقوق الإنسانية أيضا من وضعهما وتعليمهما، فلماذا لا يلتزمانها، ولا يتوجه إليهما نقد العقل والدراية ؟ إن الأصول تطبق على الجميع.

إن أوضعنا فرس العقل والاحتمال كما أطلق زمامه ضد السنة والحديث، فإن هجماته تتعدى إلى اللّه والرسول أيضا، ولا تبقى صيانة لحقيقة وأصل. إن قضية إبليس المسكين نفسه تشبه ذلك، إنه استحق الطرد واللعنة إلى الأبد بالمؤاخذة اليسيرة التي استند فيها إلى العقل والدراية حتى لم يمهل للمرافعة.

مواضع المؤامرة :

أقول لمرضَى المؤامرة هؤلاء : إن قضيتكم لم تبق في صالحكم، كان ينبغي أن توجدوا قبل الآن بقرون، وكان يجب أن تتوظفوا في مصلحة مماثلة للشرطة، وتظفروا بضباط يساعدونكم حتى يصدر حكم لصالحكم وان ضعفت قضيتكم، وتكون شهادات المكتشفين الأوربيين لصالحكم. إنكم فكرتم في المؤامرة بعد مضي وقتها، حيث مضت قرون على تكميل الفن وموت المتهمين. إنكم شعرتم بالمؤامرة بعد ثلاثة عشر قرنا عن الحديث فقط، ولكن المؤامرة عمّت دنيا العلم كلها. إنكم تغترون بالتواتر اللفظي للقرآن الكريم، ولكن لم يسلم هذا التواتر أيضا من الآثار الأعجمية. إنكم تعلمون أن معاني القرآن لم تتواتر، بل ألفاظه متواترة، والقرآن متواتر مع اختلاف القراءة. وهذه القراءة وفن التجويد قد وصلا إلينا بواسطة القراء السبعة، وأكثرهم من الأعاجم، فالتواتر الذي تغترون به مفتاحه في أيدي الأعاجم.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

القراء السبعة :

١ - عبد اللَّه بن كثير بن المطلب المكي المتوفى ١٢٠ هـ.

٢ - نافع بن عبد الرحمن المدني المتوفى ١٦٩ هـ.

٣ - عبد اللَّه بن يزيد بن تميم بن عامر المتوفى ١١٨ هـ.

٤ - أبو عمرو بن العلاء المقرئ البصري المتوفى ١٥٤ هـ.

٥ - عاصم بن أبي النجود (بفتح النون) الكوفي المتوفى ١٢٧ هـ.

٦ - حمزة بن حبيب بن عمارة المتوفى ١٥٨ هـ.

٧ - أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي المتوفى ١٢٩ هـ.

إن اثنين فقط من هؤلاء السبعة عرب، أي ابن عامر وأبو عمرو، كما قال: «وليس في هؤلاء السبعة من العرب إلا ابن عامر وأبو عمرو»[١].

وإمامة العربية أيضا وُكّلت إلى الأعاجم، يقول ابن خلدون:

«فكان صاحب صناعة النحو سيبويه، والفارسي بعده، والزجاج من بعدهما، وكلهم عجم في أنسابهم»[٢].

وقال أيضا: وكان علماء أصول الفقه كلهم عجما (أيضا).

وقال: وكذا حملة علم الكلام، وكذا أكثر المفسرين، ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم (أيضا).

والحاصل أن مسئولية الحفاظ على علوم الدين وقعت في الأغلب على العلماء الأعاجم، وبقيتم في نوم الأرانب.

---

(١) (الجواهر المضيئة ٢ / ٤٢٢).

(٢) (مقدمة ابن خلدون ص ٥٤٤، طبعة دار القلم، ١٩٨١م).

انظروا ! إنكم حسبتم أن المؤامرة وقعت في الحديث فقط، ولكن السيطرة الأعجمية وقعت على متاعكم العلمي كله، والأسف أنكم عرفتم هذه المؤامرة بعد أن تم نهبكم، وتمت سيطرة الأعاجم على جميع العلوم منذ قرون. ان المكتشفين الأوربيين أخبروكم عن الحديث فقط، وحسبتموه اكتشافا عظيما بسبب جهلكم، وهكذا أفاعيل الجهل !

الفرق بين العلم والجهل :

ابن خلدون إمام مسلّم به بين المؤرخين الأوربيين، والتدوين الحديث للتاريخ مدين به، كان نفسه من سكان الأندلس ومن العجم، ولكنه عالم، مطلع على تدوين العلوم وتاريخ تطورها، إنه يحلل علميا حقيقة سيطرة الأعاجم على العلوم الدينية، ويكشف عن سببه وكيفيته، فيقول :

«ومن الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم، ولا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية إلا القليل النادر، وان كان منهم العربي في نسبته فهو عجمي في لغته ومرباه ومشيخته، مع أن الملة عربية، وصاحب شريعتها عربي»[1] .

ويتكلم ابن خلدون بعد ذلك عن سببه، فيقول :

«والسبب في ذلك أن الملة في أولها لم يكن فيها علم ولا صِناعة لمقتضى أحوال السذاجة والبداوة، وإنما أحكام الشريعة التي هي أوامر اللّه ونواهيه، كان الرجال ينقلونها في صدورهم، وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه، والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين، ولا دُفعوا إليه، ولا دعتهم إليه حاجة، وجرى الأمر على ذلك زمن الصحابة والتابعين، وكانوا يسمون المختصين بحمل ذلك ونقله إلى القراء، أي

(١) (مقدمة ابن خلدون ٥٤٣) .

الذين يقرأون الكتاب، وليسوا أميين، لأن الأمية يومئذ صفة عامة في الصحابة بما كانوا عربا، فقيل لحملة القرآن يومئذ «قراء» إشارة إلى هذا، فهم قراء لكتاب اللَّه والسنة المأثورة عن رسول اللَّه، لأنهم لم يعرفوا الأحكام الشرعية إلا منه ومن الحديث الذي هو في غالب موارده تفسير له وشرح».

فلما بعد النقل من لدن دولة الرشيد فما بعد، احتيج إلى وضع التفاسير القرآنية وتقييد الحديث مخافة ضياعه، ثم احتيج إلى معرفة الأسانيد وتعديل الناقلين للتمييز بين الصحيح من الأسانيد وما دونه، ثم كثر استخراج أحكام الواقعات من الكتاب والسنة، وفسد مع ذلك اللسان فاحتيج إلى وضع القوانين النحوية، وصارت العلوم الشرعية كلها ملكات في الاستنباطات والاستخراج والتنظير والقياس.

إلى أن قال:

«وقد كنا قدمنا أن الصنائع من منتحل الحضارة، وأن العرب أبعد الناس عنها، فصارت العلوم لذلك حضرية، وبعد عنها العرب وعن سوقها، والحضر لذلك العهد هم العجم، أو من هم في معناهم من الموالي وأهل الحواضر الذين هم يومئذ تبع للعجم في الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف لإنهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس»[1] الخ. وهكذا لم تكن هناك مؤامرة أو خداع، بل تقسيم طبيعي للعمل وقع بنفسه. ومن قدرة اللَّه تعالى أن أكابر أهل العلم وفحولهم سلموا في القرون الاثنى عشر من تفكير المؤامرة الأعجمية، وفي أواخر القرن الثالث عشر شعر بآلامها بعض الموظفين المتقاعدين عن المصلحة الحكومية وظهر أثره في العامة، منح اللَّه الجميع الصحة، ورزقهم التفكير بعقل وأمانة.

---

(١) (مقدمة ابن خلدون ص ٥٤٣).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

آثار المؤامرة :

على المرء العاقل أن يفكر في أمره من كل ناحية، وينظر إلى مكامن الخطر بعين مفتوحة. إن الشعور بخطر المؤامرة الفارسية انتابنا بسبب فتحنا لفارس وذهاب الحكومة الفارسية بعده. ونرى في الأحوال المعاصرة أن الحكومات الغربية تتآمر فيما بينها، فتخضع الدول الصغيرة بحجة الانتداب، وتمد خيوط المؤامرة في الدول الضعيفة بحيلة المساعدات الفنية، وتشتري الذمم والضمائر بتقديم بعض المعونات، وشيئا فشيئا تتعود الدول الصغيرة الحياة بواسطتها.

إنكم ظننتم أن الخليفة الثاني حينما قضى على الملوكية الفارسية فلابد أن قام الفرس بمؤامرة ضد العرب ! إن هذا الاستدلال يبدو مبنيا على الوقائع، فيسترعى الانتباه قليلا، ويزلّ به العامي الذي يجهل تاريخه وتاريخ أمته، ولكن التعمق اليسير يكشف عن الخلل الكبير الذي يكمن في الاستدلال المذكور، ويجعله ساقطا :

١ - لا يصح قياس تلك الحكومات على طبيعة حكومات اليوم، ففي طبائع حكومات اليوم توجد آثار الجمهورية، والحكومات الشخصية والملوكية كانت خالية من هذه الطبيعة، ومعنى ذلك أن طبيعة العصر قد تغيرت، وولّى عصر الاستبداد إلى حد كبير، ولذا لا ينبغي أن تقاس تلك الحكومات الشخصية الملكية على الحكومات الجمهورية المعاصرة.

٢ - الملوك المستبدون في ذلك العصر كانوا يناصبون أقاربهم وأعزتهم العداوة في الأغلب، إن تاريخ الملوكية مملوء بمثل هذه الحوادث، فالأخ قتل الأخ، والابن ضرّج يده بدم أبيه، فمن يتعصب لمثل هؤلاء الناس، ويقوم بالمؤامرة والثورة لحمايتهم ؟

٣ - حقا كانت خراسان مركزا للثورة ضد حكومة مروان الحمار، ولكن ليس

سبب ذلك كثرة العنصر الفارسي فيها، فان رؤساء هذه الثورة كانوا من العرب، وكان الثوار يدّعون حماية الهاشميين والعباسيين من أهل البيت، وبهذه الحجة يقومون بأعمالهم الثورية، والتاريخ لا يذكر الحماة الفارسيين للأسرة الفارسية الملكية. وقد تم انتخاب تلك المنطقة للثورة لبعدها عن العاصمة: الشام، فكانت الأخبار تصل إليها بتأخير، وبالتالي تتأخر الإجراءات التي تقمع الثوار، وتواجه كثيرا من الصعوبات. فمثل هذه الحادثة لا يمكن أن تكون دليلا على المؤامرة الفارسية ضد الحديث النبوي.

٤ - ثم إنكم هل فكرتم قط في أن الدولة الإسلامية بدأت من الحجاز وامتدت رقعتها إلى مئات الألوف من الأميال في أقطار العالم ؟ فكروا، هل انضم بلد إلى هذه الدولة بالصلح ؟ إن كل خطوة في أرض الحجاز وقعت فيها الحرب، فمست الحاجة إلى غزو مكة، وفتحت نجد بالحرب، وكذلك وقعت الحرب في الشام والعراق والحبشة وبعض مناطق اليمن، وتعرضت مناطق البحر الساحلية للحرب، وقد اضطر النبي ﷺ في حياته الطيبة لنحو اثنتين وثمانين (٨٢) حربا، ثم استمرت سلسلة الحروب هذه إلى وسط عصر حكومة الخليفة الثالث، واستغرق الصراع الداخلي أواخر عصر الخليفة الثالث وجميع عصر حكومة علي رضي الله عنه، وبمجرد أن استتب الأمن في البلاد سنة ٦١ هـ بدأ خلفاء بني أمية مع ما كان فيهم من الضعف الشخصي، سلسلة الجهاد في سبيل اللّه، فتم فتح الهند والأندلس وبلاد البربر والجزائر والمناطق الأخرى.

فلماذا جرى قلمكم وتفكيركم إلى اتهام فارس وحدها بالمؤامرة ؟ إن كانت السيطرة على مقاليد الحكم وفتوح البلاد تحمل على اختراع الثورات والمؤامرات، فلماذا لم يتم اختراع المؤامرة الحجازية والمؤامرة الهندية والمؤامرة البربرية والمؤامرة الأندلسية وما شابهها ؟ هل كان يهود الشام معصومين ؟ وهل كان مشركو العراق والروم ونصاراهما أعف من الفرس ؟ ألم يتم القضاء على حكوماتهم بأيدي المسلمين ؟ ألم تذهب شوكة القبطيين

والمصريين بفتح مصر ؟ فلماذا لا تفكرون في المؤامرة المصرية ؟

إن بقيت لكم عقول، ففكروا في تاريخ فتوحكم كله، لعلكم لا تجدون بلدا غير الصين لم تتلون أرضه بدماء المسلمين، إن جيوشكم بقيت مرابطة على سواحل البحر الغربي سنوات، فلماذا لم تتهموهم بالمؤامرة ؟ الأصل إنكم بأنفسكم صرتم ضحايا مؤامرتهم !

لماذا لا يعدّ الغزالي وابن مكرم وابن عربي وابن العربي والشاطبي وابن حزم ويحيى بن يحيى والمسعودي وغيرهم من علماء قرطبة والأندلس من المتآمرين ؟ إن كانت تهمة المؤامرة ضد الحديث قد وجهت إلى علماء خراسان وبخارا وقزوين وترمذ ونسا بسبب تمهيدهم لتدوين الحديث من الصحف القديمة للسنة ومبيّضات الصحابة والتابعين ومسودات سلف الأمة، فان علماء الأندلس ليسوا أقل خدمة منهم للحديث، إنهم ألفوا مئات الألوف من الصفحات في شرح الحديث وفقهه وفي خدمة علوم السنة الأخرى، فلماذا لم تتهم هذه الخدمات بالمؤامرة ؟ هل خلت أسرة منكري الحديث من عاقل يفكر في هذه الحقائق بجد ؟ هل وجدتم علماء فارس فقط بين المشتغلين بالعلوم الدينية وفنون النبوة مجرمين :

من كان هذا القدر مبلغ علمه فليستتر بالصمت والكتمان

إني تكلمت بنوع من التفصيل عن المؤامرة الفارسية، لأن أذهان العامة تأثرت بهذه التهمة، وذبذبت هذه التهمة بعض المثقفين أيضا، أما علماء الدين والمطلعون على تاريخهم العلمي فلم تتأثر أذهانهم بها، والذين لهم إلمام قليل بالرجال وتاريخهم لا يداخلهم الشك أيضا، ولكنهم يتألمون بالاتهام المذكور لأنه موجّه إلى أساطين علوم الدين، وهم كالأقطاب التي تدور عليهم سماوات العلوم الدينية والشرعية، فان صدقت فيهم تهمة التآمر انهار بنيان الإسلام كله.

ولو فرضنا أن الصالحين مثل الإمام أبي حنيفة والإمام الشافعي والإمام مالك

والإمام أحمد بن حنبل والإمام البخاري والإمام مسلم بن الحجاج والإمام أبي عيسى الترمذي تآمروا ضد الإسلام صار كل من الفقه والحديث مشتبها وغير موثوق به.

ثم لو اتسعت هذه السلسلة هكذا صار كل من الصرف والنحو والمعاني والبيان والأصول والكلام والعلوم الأخرى موضع شك وارتياب، وذهبت الجهود التي بذلها العرب والعجم جميعا في ثلاثة عشر قرنا سدى، بل لزَمنا الاعترافُ بأن الأمة كلها قليلة الفهم فاقدة العقل حيث لم تتمكن إلى الآن من ادراك هذه المؤامرة الخبيثة، إن ذلك منتهى البلاهة !

ثم في نقلة الآثار هؤلاء يوجد من العرب الخلص مثل الإمام الشافعي المطّلبي، والإمام مالك، والإمام أحمد بن حنبل، وأبو عبيد القاسم بن سلام، وهكذا في كل عصر اجتمع العرب والعجم على خدمة الكتاب والسنة والعلوم الدينية حسب الاستطاعة، ولم يشعر أحد منهم بكونه ضحية للمؤامرة الأعجمية. إن الاعتقاد بمثل هذه المؤامرة استخفاف مضحك بالأمة، وخاصة بعد العلم بأن المؤامرة كشف عنها بعد عدة قرون الموظفون الذين يوصفون بعدم العلم أو قلته، ان عقلاء العالم يتعجبون من تساهل أكابر الأمة هذا ويضحكون عليه ! مع أنه ليس فيه إلا الجهل وحب الغرابة، أرجو أن الأحبة يفكرون في هذه الكلمات الموجزة.

تطور حركة إنكار الحديث :

كان اتجاه تفكير هذه الحركة من المولوي عبد اللّه إلى المولوي محمد رمضان والمولوي حشمت علي كأنها تنظر إلى سكان بيت واحد فقط يملكه ويشرف على إدارته «الشيخ جتو»، ويسكن فيه المولوي عبد اللّه وغيره بصفة المولوي، ويشتغل بعضهم بالكتابة، والبعض الآخر بتعليم الأطفال، وجل مقتضى الإسلام عندهم أن لا يسخط الشيخ جتو، وأن يستمر المولوي عبد اللّه

في القراءة والكتابة، حتى يمكن إقناع العامة بأن «المولويين» أحدثوا في الإسلام فسادا كبيرا، فتكبّر الإسلام كثيرا، وزادت فيه الأحاديث أيضا.

وهكذا استمر هذا المصنع الصغير في سيره من المولوي عبد اللّه إلى المولوي رمضان، وصدر الأمر إلى هؤلاء الأشخاص بأن يقوموا باختراع صلاة خفيفة تنجي من صلاة المولويين القديمة، استمر العمل لاختراع الصلاة، واشتغل أفاضل منكري الحديث ليلا ونهارا، ووجهوا إلى أكابر الأمة أنواعا من الاستهزاء والسخرية لنحو خمسين سنة، وتبين بعد هذه المدة الطويلة إنهم لم ينجحوا في اختراع صلاة يتفقون عليها، ولا في تحديد ركعاتها وأورادها وأوقاتها، بل اختصم عمال المصنع، بعضهم مع بعض، بعد المدة المذكورة، ورمى كل واحد منهم عمل الآخر بالخطأ والنقص!

وهكذا لم يتم اختراع الصلاة، وتبرّم صاحبُ المصنع فألغى طلبه، وأقفل المصنع، فرجع العمال إلى ملتان، وغجرانواله وديرة غازي خان.

كان الإسلام إلى الآن مجموعة عدة مسائل فقهية، اختاروا منها أولا الصلاة ولكن لم ينجحوا في اختراعها أيضا، إن هؤلاء لم يروا الإسلام نظاما للحياة، ولا بذلوا جهدهم لذلك.

وبعد خمسين سنة أحيل إلى التقاعد عدة موظفين، وكان أشخاص ممن أعجبوا بأوربا متبرمين بتفاصيل الأحاديث، غير راضين بمسائل الصلاة والزكاة والحج والأضحية وغيرها، فاستعاروا الفكرة من المولوي عبد اللّه، واستفادوا بخبرتهم السابقة، فصرفوا أنظارهم عن أركان الإسلام من الصلاة والصيام وغيره بحجة أنها غير ضرورية، وقالوا: كانت هذه الأحكام موقتة أمرت بها الأمة، ولكن العالم تقدم اليوم، وتغير مقتضى الوقت، وصارت الصلاة والوضوء والصيام وغيرها من العبادات فلسفة بالية، والمهمة الأصلية أن نسبق أوربا في معترك الحياة، ولذا ينبغي أن تتخلى المرأة عن الحجاب، وتبدي زينتها وجمالها

في المجالس، وتلتقي بالأصدقاء في النوادي، وعلى الرجل أن لا يسيئ الظن نحوها، فان للجميع الحق في إشباع رغبته، والأحاديث هي التي أدخلت في الدين هذه القيود ومسائل الستر والحياء والتعفف، ولم تبق الآن حاجة إلى ألفاظ القرآن أو ترجمته، بل ينبغي أن نفهم الآن معناه وهدفه فقط، ونجعل القرآن والإسلام متلائمين مع المقتضيات الحديثة وأساليب الحياة الجديدة، وإن لم ندخل هذا التوسع في الإسلام لسبقته الحياة وتخلف الإسلام ، ولذا ينبغي أن نفسّر القرآن وفق هذا الزمن، والحديث ليس إلا كتاريخ لا يستند إليه، وإن مست الحاجة ألقينا إليه نظرة، ولكن لو رأينا أن تفاصيله وأقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقاريره من الدين، لضاق الإسلام ، وتعسّر على المسلمين البقاء في الدنيا، لا ينبغي أن نجعلها أساسا للقانون، إن أهل كل عصر يفسرون القرآن في الحوادث الطارئة وفق أحوالهم، ولا يلتزمون في التفسير بأقوال النبي ﷺ أو بأقوال السلف أو الخلف، ويتم تعيين المجتهدين والمفسرين بانتخاب الجمهور. أما تفسير القرآن الكريم وتطبيق كلياته على الجزئيات، فكل ما يقرره ممثلو العامة بهذا الصدد يكتسب صفة القانون[1] .

وبمثل هؤلاء الممثلين يتم تشكيل «مركز الملة»، ومركز الملة في كل عصر يصدر أحكامه بحرية تامة عن الأحكام الإسلامية من الصلاة والصيام والحج والزكاة والنكاح والطلاق والبيوع والإجارة والميراث وأموال الغنيمة والضرائب وما إلى ذلك، ولا يتقيد هذا المركز بحكم الرسول ﷺ والصحابة، وأحكام مركز ملة آخر لا تتمتع عنده بصفة شرعية أو دينية .

قبل الآن والآن :

سبق أن ذكرنا حالة إنكار الحديث في مرحلته الأولى، والآن يحسب المثقفون

---

(١) (منصب رسالت نمبر ص ٢٥٦).

من منكري الحديث أن الإسلام إقليم صغير يسكن فيه عدة آلاف نسمة، والممثلون المنتخبون لهذا الإقليم هم يعتنون بحاجات هؤلاء السكان ولا غير. أو الإسلام مكتب يشتغل فيه عدة مثقفين، ومن مسئولياتهم أن يهتموا بحاجات زملائهم في المكتب. أما الإسلام بصفته نظاما للحياة أو للإنسانية، فانه لم يكن موضع عناية السابقين من منكري الحديث، ولا يرى المثقفون بعدهم إلى الحياة الدينية والاقتصادية للعالم كله. اتفق الناس الآن على خطأ وخيبة المولوي عبد اللّه وأقرانه، ونحن سبقنا الناس في هذا الحكم، والآن يراهم أصحاب مذهبهم أيضا على الخطأ. فتراجم القرآن وتفاسيره التي ألفها المولوي عبد اللّه والمولوي رمضان والمولوي حشمت علي ومحبوب شاه من غجرانواله، التي تبناها السابقون من منكري الحديث، ليست صحيحة، ولا الصلاة التي أنفق فيها السابقون إلى إنكار الحديث نحو خمسين سنة، وكذلك لا يعد كتاب بيان القرآن للمولوي أحمد دين الأمرتسري ذخيرة علمية تنفع في حل حاجات العصر. فحل جميع هذه المشكلات الآن لدى هؤلاء المثقفين هو مركز الملة والانتخاب لأجله.

مشكلات مركز الملة:

ليس أمامنا كتاب جامع لمنشيء مركز الملة يوضح حقيقة هذا المركز بوجه تام، ولا نُشِر، حسبما نعلم، من أوساطهم دستور أو ميثاق يبيّن البرنامج المفصل لمركز الملة ومنهاج عمله، ولا نعلم بيانا عن وضعه الدستوري قامت باصداره جماعة مسئولة عن منكري السنة الجدد، ولذا يتجه نقدنا إلى المشكلات الممكنة أو المحتملة لذلك المركز:

١ - إن قام بتشكيل مركز الملة ممثلو الشعب، ويكون مستواهم في فهم القرآن مثل الشعب، كان مركز الملة هذا مجموعة الجهلاء، كما نرى الممثلين في المجالس والبرلمانات والجامعات، فلا يفهم أولئك المساكين شيئا سوى أن يرفعوا أيديهم لتأييد وجهة نظر الحزب. فمثل هذا المركز لا ينفع البتة في الفقه

والتفسير والاستدلال والاجتهاد، بل يضر دون شك.

٢- وان وجبت على الممثلين قيود والتزامات، فبصرف النظر عن كونهم لا يمثلون الشعب، لا يفهم الشعب بجهله منزلتهم العلمية، ومن هنا يسيئون استخدام أصواتهم، كما نرى في الانتخابات السياسية أن الشعب لا يحسن استخدام صوته على الوجه الصحيح، وكثيرا ما رأينا أنه أدلى بصوته لجاهل، لا يعرف أن يوقّع، ضد عالم أو محام!

٣ - ولعلكم تقولون: إن حق الانتخاب يمنح للمجتمع القرآني، وهنا نتساءل: من أين يأتي هذا المجتمع القرآني؟ وإلى متى تنتظره الدنيا؟ ونظرا إلى الظاهر لو قضت اليوم حكومة بقوة السيف على مخالفة العلماء المعاصرين، فإنه لا يمكن تكوُّن مجتمع قرآني موثوق به لمدة سنتين، فكأن هذا الاقتراح يُدفن في القبر قبل وجوده.

٤ - ومع ذلك لم تعرف الدنيا إلى الآن طريقا للانتخاب يضمن انتخابَ الممثلين المستقيمين الأكفاء، فالضعف العملي يمكن تحمله في شئون الدنيا، ولكن كيف يُتحمل في شئون الدين أن يتبوأ عرش مركز الملة رجال فاسدون منحرفون، فيصدق عليهم قول الرسول ﷺ: «أفتوا بغير علم فضلّوا وأضلّوا» [صحيح] ويؤدي الجهال بجهلهم إلى هلاك الشعب وضياعهم؟

إنهم يأخذون الحذر في أمور الدين، فيبطلون العمل بالأحاديث بحجة أنها ظنية في الاصطلاح، ويقبلون الوهم الحقيقي الملموس «وضع مركز الملة» بحجة أن جهالا أوصلوهم إلى الكراسي بأغلبية عدة أصوات!

إن الانتخاب والجمهورية يفشلان عمليا في جميع البلاد، فمن الممكن أن يؤدي هذا الفشل العملي إلى الفشل النظري، وتتوجه الدنيا إلى البحث عن نظرية أخرى، وهنا تشخَص أبصار المتعبدين للجمهورية إلى الدنيا!

٥ - ثم لو اتفق أن تكوّن على علاته لبضع سنوات مجتمع يمتاز في الواقع

بالصحة والعلم والكفاءة، فمن يضمن بأن تفكير أفراد هذا المجتمع يتصف بالصحة والصواب، ولماذا يتقيد به الناس، وينزلون اجتهادهم منزلة الدين والشريعة ؟ إن اجتهادات المجتهدين السابقين لم تصل إلى منزلة الدين والشريعة، بل تعرضت في كل عصر للنقد والمناقشة، فلماذا يوصف الاجتهاد المذكور بالدين والشريعة ؟

٦ - من الظاهر أن أحكام هذا المركز الملي لا يكون دينا، والمركز الملي القادم يتمتع دون شك بحق الاختلاف والمعارضة مع هذا المركز. فلو تم بعد عدة سنوات جمع تقارير الأعمال التي قامت بها هذه المراكز، فإن هذه المجموعة تشبه الأضحوكة دون شك، وتصفها الأجيال القادمة بسفاهة مبينة.

٧ - ولعل قائلا يقول: متى وصفنا الاجتهاد المذكور بالشريعة والدين ؟ ومتى ألزمنا الناس اتباعه ؟ وهنا نتساءل: فما هي الجدة في هذا الاجتهاد ؟ وما هو الفرق بين فقه المجتهدين السابقين وبين أحكام هذا المركز الملي ؟ إن أحكام المجتهدين كانت تتمتع باعتقاد واحترام علميين، ولكن أحكام المركز الملي لم تصل إلى ذلك الاحترام، بل الحكومة تمنح بعض الأشخاص لقب «مركز الملة» فلو ذهبت هذه السلطة المادية فإن اجتهادات المركز الملي لا تُعَدّ شيئا تتزين به المقاهي والمطاعم.

٨ - وكل ما يقال في الجواب بصفة الكلمة الأخيرة هو أن هذا الضغط المادي محاولة لحفظ النظام في الحقيقة، كما أن الحكومة تقوم بتنفيذ قوانينها، والخلافة بتنفيذ أحكامها. ونقول: إن الفرق بيّن بين التنفيذين، فان الحكومة القانونية، جمهورية كانت أو شخصية، لا تتمتع أحكامها بصبغة شرعية، والحكومة الدينية تنفذ الأحكام بقوتها المادية، ولكنها لا تقوم بوضع هذه الأحكام، حتى ان الرسول مع وضعه المستقل يعبر عن الطاعة الالهية: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وبالنظر إلى ذلك يشبه مركز الملة هذا مخلوقا ذا وجوه لا يمت إلى الدين ولا السياسة بصلة، ومع ذلك يحاول السيطرة على الاثنين: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الصافات: ١٥٤].

٩ - ثم انه من الجدير بالتأمل: ما هو حاصل هذا المصطلح الجديد؟ إن كان هذا النظام دينيا فأطلِقوا عليه اسم الخلافة أو الإمارة، وإن كان محاولة فقهية فسمّوه اجتهادا. أما مركزية الملة فإنها لن تتيسر له. إن إيقاع الخلاف بين الملة بتقليب المصطلحات والألفاظ محاولة إجرامية، والزعامة التي تقوم على الاختلاف بين المسلمين لا تستحق نوعا من الاحترام.

الاجتهاد الاجتماعي:

إن الفكرة التي ذكرت عن مركز الملة في الأوقات المختلفة لا يطمئن إليها الذهن، ولا تتبلور حقيقتها. نعم تؤثر اجتماعية الاجتهاد في الذهن، ويمكن أن تكون الطريقة الجماعية للاجتهاد أنفع من الطريقة الفردية، فإن مهرة العلوم المختلفة لو اجتمعوا في مكان وتفكروا، فالأغلب أن التفكير في المصالح المختلفة وفيما يقابلها من المضار يتم بجدّية أكثر، ولكن لو أقحم معه الانتخاب فإن ذلك سيقضي على فوائد الاجتهاد كلها، فالمجتهدون إما ينشغلون بالانتخاب، أو يتوجهون إلى الاجتهاد. وان جرى الانتخاب على ما عرفناه في عصر الحكومة الانجليزية، فان المجتهد مع اجتهاده يصير رهن الانتخاب أو يسدّد الديون في أيامه الباقية ويقبض الرشاوي للتخلص من مشكلته المالية!

والخلاصة أن ذكر مركز الملة كشيء مفروض قد يمتّع الأسماع، ويتبرك به الناس كالورد والوظيفة، ولكنه أمر مهمل قطعا من ناحية العمل والإفادة، حتى إن محب العمل يكره ذكره.

إن تصوّر مركز الملة بعد رفض علم مقدس نافع مثل السنة، زلة العقل وخيبة الفكر. إن الذين يصفون السنة بالظنية وقعوا في أوهام ومزخرفات، ولم

يستطيعوا التفكير في منزلة أحكام هذا المركز، هل هي مثل القرآن أو الأحاديث المتواترة أو الآحاد ؟ ومنزلة هذا المركز كما نرى أحطّ من الأوهام والمزخرفات، وأنه لا يؤدي عمليا إلا إلى الجدل العقيم.

نظرة إلى تنقيح مبنى على الأخطاء لقاض محترم

تحقيق الحديث في العصر الحاضر :

يقول السيد محمد شفيع قاضي المحكمة العالية بباكستان الغربية :

«إني لا أؤيد جَعْلَ الأحاديث التي جمعها المحدثون مصدرا من مصادر التشريع الإسلامي، دون فحصها وتمحيصها مرة أخرى، على أن يكون هذا التمحيص بعيدا عن ضيق النظر والتعصب، بل ينبغي أن نستأنف استخدام تلك القواعد والشروط التي قررها الإمام البخاري وغيره لانتقاء الأحاديث الصحيحة من بين الأحاديث الكثيرة المكذوبة والموضوعة والمزيفة، وكذلك ينبغي استخدام تلك المعايير التي وفّرتها لنا الحقائق والتجارب الحديثة»[1].

فحصُ الأحاديث بالأسلوب الجديد نداء يقرع الأسماعَ منذ مدة بعد وروده على الألسنة والأقلام، مضت مدة نحو خمسين سنة على هذه الغيوم المرعدة، وملّت الآذان سماع المطالبة بفحص الحديث في ضوء الأصول الحديثة ومعايير النقد.

يتم صنع الأسلحة لنقد الأحاديث في مصانع المخترعين بأوربا، ونحن ننتظر منذ نحو نصف قرن، ولكن الغيوم لم تمطر، والأسلحة لم تظهر. أفادونا بأن الحديث ينبغي أن لا يعارض القرآن، ونحن سلّمنا بذلك، ولكن دلّونا على معيار صحة معنى القرآن، عسى أن لا تحتاجوا إلى تجشم عناء الفحص والتمحيص،

(١) (عدد خاص لمجلة ترجمان القرآن بلاهور عن مكانة الرسالة ص ٢٧٦).

ثم هذه الأصول توجد لدى أئمة الحديث القدامى في كتب الحديث أم لا ؟ إن المشكلة تكمن في عدم وجود الأصل والمعيار عندكم لفهم القرآن، ولذا لم يتعدّ الأمر خلط المبحث.

ثم قالوا: لا يكون الحديث معارضا للعقل. قلنا: صحيح جدّا، ولكننا رأينا العقلاء يزلون منذ القرون، حتى إن علم المنطق بأسره وضع لإنقاذهم من الزلل، ولكنه بنفسه صار معمل الزلات ومصنعها دون أن يقضى على الزلات. فالمقياس الذي يحتاج إلى مقياس آخر خلّوه يكتمل. وفي الوضع المذكور نصرف النظر عن عقول الأفراد، وننظر إلى عقول الجماعة، إن أئمة السنة وفقهاء الحديث لم ينكروا دورها، فيا ترى ما هو سبب سخطكم ؟

والحقيقة إنكم تسمعون اعتذارنا وتعبيرنا على ألسنة منكري الحديث ومؤسسة طلوع إسلام، وهؤلاء المثقفون البكم لم يستطيعوا الإبانة عن مبتغاهم إلى اليوم، بل كل ما فعلوه إلى اليوم هو سلب وتخريب، أما البناء والإيجاب فلاحظ لهم منهما، مع أن العيون لا تزال في انتظار.

وقالوا: لا يكون الحديث معارضا للمتواترات. قلنا: نسلّم ولكن ما هو معيار البحث لصحة الوقائع؟ وهنا التجأوا إلى صمت يشبه الموت.

وهؤلاء !

هذا الحديث ملخص المناظرات والمجادلات الطويلة التي أتى بها هؤلاء بدءا من المولوي عبد اللّه إلى غلام أحمد برويز، ولعل أحدا منهم لم يرزق فطانة. وضع الأصول أمر عظيم، إنهم لا يستطيعون استنباط الفروع الفقهية العامة واستخراجها، يمكنهم توجيه الاعتراض، ولكنهم بعيدون كل البعد عن استخراج الجزئيات بعد النظر الجامع الشامل إلى المصالح، وعن وضع القواعد الكلية.

وحيث إن القاضي محمد شفيع كان قد تكلّم من موضع عال موثوق به، فظننا

أنه يأتي بشيء نافع بناء، ولكن حديثه لم يتعد التعبير عن برويز والتقليد للمولوي محمد علي اللاهوري من جانب واحد.

وليته سمع شيئا من أئمة السنة وناقدي الحديث، حتى يَعرِف أن الذي يريده بل أكثر منه يوجد لديهم، والذي لا يوجد لديهم فإن التجربة تدل على أن الحاجة إليه قُضِيَت بأمر آخر:

وكم من عائب قولا صحيحا وآفته من الفهم السقيم

علم الحديث متحرك:

فن الحديث تدرَّج إلى الرقي، وهكذا يوجد في أصوله تطور تدريجي، فالإمامان أبو حنيفة ومالك رأيا المراسيل حجة، ولما تتبع الإمام الشافعي الأسانيد شعر بإمكان الضعف فيها، فربما يأتي عديد من التابعين بعد الصحابي، وعلى هذا لا يلزم أن يكون الراوي المتروك بعد التابعي صحابيا، وقبل علماء الحديث نكتة الشافعي هذه، وأنكروا حجية المرسل، مع أن الإمام مالكا يعدّ شيخهم في الحديث، والإمام أبا حنيفة شيخهم في الفقه.

كان الإمام مالك يرى عمل أهل المدينة حجة، ظنّا منه أن عملهم مأخوذ من السنة، ولكن رفض أئمة الحديث هذا الأصل، ينظر لذلك المحلّى، والإحكام في أصول الأحكام، كلاهما لابن حزم، وإعلام الموقعين لابن القيم، ورسالة ابن تيمية باسم مذهب أهل المدينة. وكان بعض الأئمة يرى أن فتوى الراوي إن عارض روايته المرفوعة فالفتوى ترجح على الرواية. ولكن حكم أئمة الحديث بعد التحقيق بأن حديثا مرفوعا لو لم يؤيد هذه الفتوى فان لها احتمالات أخرى، فالصحيح أن الترجيح يكون للرواية والحديث المرفوع.

واختلفت أقوال العلماء في تعريف الحديث الصحيح، وقد أوردها الجزائري في توجيه النظر، والخطيب في الكفاية، ولكن تقرّر أخيرا التعريف الآتي للحديث الصحيح: هو ما يرويه عادل ضابط غير معلل ولا شاذ، بسماعه عمن يرويه.

والحاصل أن الحكم تقرر في عديد من المسائل بتدريج، ومعنى التدريج أن تصل المسألة بعد البحث والنظر إلى مرحلة قطعية. وجرى هذا الطريق في الحديث وأهله، حتى لم تبق سعة ولا حاجة إلى البحث والنظر في أكثر المسائل.

ولا يوجد لدينا اليوم أيضا حكم للقرآن أو قضاء من السنة بحيث انسدت طرق نقد الروايات والنظر في الأحاديث وبحثها. لا شك أن الفن متحرك، ولكن العلماء شعروا بعد البحث والتفكير في جميع النواحي بأن الفن قد اكتمل بقدر الحاجة، فلا ينبغي أن نوضع خيول الاحتمال والإمكان في الأمور التي وقعت قبل القرون، فإن مثل هذه المناقشة لا تنفع إلا المناقشة.

وهكذا الحال في الصرف والنحو والمعاني والبيان، فإن هذه الفنون اكتملت تقريبا، والشارع لم يمنع من النظر في هذه الفنون، ولكن الوقائع دلت على أن الحاجة إلى ذلك لم تمس:

أصول الرواية:

قال العلامة شبلي المتوفى في سنة ١٩١٤ م في كتابه «سيرة النعمان» مؤيدا للفقه الحنفي: «إن أصول الحديث لم يتم بحثها من ناحية الدراية. ولكنه لم يأت بمعلومات نافعة في هذه المسألة، وصارت أقواله وآراؤه في سيرة النعمان موضع تساؤل وتفنيد لدى كل من العلامة عبد العزيز الرحيم آبادي في كتابه «حسن البيان»، والعلامة عبد السلام المباركفوري في كتابه «سيرة البخاري»، والعلامة أبي يحيى محمد الشاه جهان فوري في كتابه «الإرشاد». وقد بلغ هؤلاء العلماء الأفاضل بهذا المبحث غايته، حتى غيّر العلامة شبلي منهج سيرة النعمان في المؤلفات التي جاءت بعد هذه السيرة، بل لم يسلك هذا المسلك في التأليف بعد ذلك».

إن علماء السنة لا يرون قطعا أن الزيادة في أصول الحديث ممنوع شرعا، أو نقد هذه الأصول غير صحيح شرعا، أو قبولها كما هي واجب شرعا، بل رأيهم

أن تمحيص الحديث وقواعده بلغ غاية لا تحتاج إلى مزيد من البحث.

إن قواعد أصول الحديث تتعلق باللغة أو الوقائع أو العقل، وهي بلغت حدا مناسبا بعد البحث والنظر، فلا يمكن الآن تبديل تلك الحقائق بمجرد الاحتمال.

بعض الأمثلة:

١ - يقول الإمام مسلم: إن أمكن اللقاء بين الراوي والمروي عنه فان ذلك في حكم الاتصال، فإنه لا يرى إثبات اللقاء بينهما في الواقع واجبا. ولكن الإمام البخاري يقول: يجب ثبوت اللقاء بينهما في الواقع مرة على الأقل، وإلا دخل الشك في الاتصال. وحاول الإمام مسلم تنقيح هذا المبحث في مقدمة صحيحة، ولكن رأي الإمام البخاري يعتبر تكميلا للمبحث لدى جمهور الأئمة، فلا يبقى الآن إلا القول بأن تكرار اللقاء واجب لكل رواية. فانظروا، إن الرأي المذكور مرادف لسوء الفهم، فإن صدق الإنسان لو ثبت مرة أو مرتين فإن اتهامه بالكذب ليس له معنى.

٢ - كان الأئمة مختلفين في رواية أهل البدعة، فمنهم من ردها بإطلاق، ومنهم من قبلها دون شرط، وأخيرا استقر رأيهم على أن الراوي إن كان داعيا لا تقبل روايته، وكذلك إن تضمنت روايته تأييد البدعة، نعم لا تأثير للمذهب والعقيدة في قبول الرواية وردها عند أئمة الحديث، ولذا يقبلون روايات الشيعة والخوارج بالشرط المذكور مع الاختلاف في المذهب والعقيدة.

والحاصل أنه ليس هناك جمود في أصول الحديث، بل توجد فيها كفاءة تامة للتطور والرقي، ولكن إذا وصل البحث والنظر إلى نقطة خاصة فإن مجال التكلم ينتهي بنفسه. ان أهل الفن يصلون بعد البحث والنظر إلى مقام لا يرون فيه الحاجة إلى مزيد من البحث، وليس ذلك جمودا في الفن، بل اكتمالا له، ولكن الحكم باكتمال مراحل الفن لا يصح إلا من المهرة فيه. إن قضاة المحكمة العالية يحكمون في القانون، ولكن حكمهم في الطب والهندسة لا يتمتع بأهمية.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

نظر أئمة الحديث على الرجال :

١ - هيثم بن بشر الواسطي من تلاميذ الزهري، والشيخ وتلميذه كلاهما من الثقات ومن رجال البخاري، ولكن رواية هيثم عن الزهري لا تصح، ولذا لم توجد في صحيح البخاري رواية لهيثم عن الزهري. ومن دقة نظر المحدثين أنهم يتعمقون في النظر إلى مرويات كل تلميذ عن شيخه، وإنهم يعلمون موضع الخلل في الضبط، وموضع تقصير التلميذ في الأخذ عن الشيخ.

٢ - ورقاء بن يعمر اليشكري ثقة، ولكن ضبطه ليس تاما في الرواية عن منصور بن المعتمر، وكلاهما من رجال البخاري، ولكنكم لا تجدون رواية ورقاء عن منصور في صحيح البخاري، فان ورقاء ليس ثقة في الرواية عن منصور. يحق لكم الهجوم على الفن بالأسلحة الحديثة، ولكن ما هو اللون الجديد الذي يضيفه اختراعكم إلى الوقائع ؟ إن الراوي يبقى راويا، والمروي عنه مرويا عنه، فأي تجديد تقومون به فيهما ؟

٣ - وضاح بن عبد اللّه ثقة مأمون باتفاق الأئمة، ولكنه ليس ثقة في الرواية عن قتادة، ولذا يرى البخاري ذكر حديث وضاح عن قتادة معارضا لشرطه، مع كون كل منها ثقة.

فأي باب تزيده طرقكم الحديثة في مثل هذه الوقائع ؟ وأي ذروة تعتلونها بهذا الصدد ؟ إن صورة الوقائع الماضية لا تتغير ببحثكم الجديد.

٤ - وليد بن مسلم الدمشقي ثقة باتفاق، ولكن روايته عن الإمام مالك لا تصحّ، ولذا لا توجد في الأصول الستة رواية لوليد عن مالك، نعم ذكر الإمام البخاري رواية وليد عن الإمام الأوزاعي وغيره، فالأئمة لا يصححون روايته عن مالك مع الوثاقة.

٥ - يقول السيوطي في تدريب الراوي: همام وابن جريج كلاهما ثقة،

ولكن رواية همام عن ابن جريج لا تصحّ .

دقة نظر المحدثين :

من أهداف هذا التوضيح بيان عمق نظر أئمة الحديث في رجال الحديث، وفي العلاقة بين الشيخ وتلميذه، واستعداد التلميذ للتلقي عن الشيخ .

والهدف الثاني: هو سؤالكم عن تلك النظرة التحقيقية إلى نواحي الفن الخفية هل تنشأ عن مؤامرة أو عواطف الحب العميقة والاعتقاد البالغ ؟ إني أرجو من المخلصين الذي تأثروا بنظرية إنكار الحديث أن يدرسوا كتاب توجيه النظر للعلامة طاهر بن صالح الجزائري، وقواعد التحديث للشيخ جمال الدين القاسمي، وتدريب الراوي للسيوطي، وعلوم الحديث للحاكم، ومقدمة ابن الصلاح، واختصار علوم الحديث للحافظ ابن كثير دراسة متنوعة، ثم يسألوا ضميرهم وأمانتهم عن طبيعة عمل المتآمرين، أهكذا تكون ؟

أما مؤسسة «طلوع إسلام» فلا يرجى منها علم وفهم وتقوى وأمانة، ولذا يقولون دون تأمل: إن عدم رواية الإمام البخاري عن أولئك الرواة مؤامرة فارسية، فلو نقل رواياتهم لانتهت تلك المؤامرة الفارسية !

نظيرى رابمحفل بردم وكويا غلط كردم

مرا رسوائي عالم ساخت جشم كريه آلودش

(ذهبت بالشاعر «نظيري» إلى المجلس فكأني أخطأت فيه، لأن عينه الباكية أخجلتني في العالم) .

وخير مكان لهؤلاء القوم السجن أو مستشفى الأمراض العقلية : ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨] .

ويعلم من كتاب شروط الأئمة الخمسة للحافظ الحازمي مدى اجتهادهم في جمع الحديث وتدوينه، ومدى دقة نظرهم في ترتيب الأبواب الفقهية، حتى يتم

الانتفاع بتلك العلوم أكثر فأكثر، إن إساءة الظن في هؤلاء باتهامهم بالتآمر حرب ضد الإيمان والأمانة.

التعري في الأحاديث:

قال القاضي محمد شفيع بعد ذكر بعض أحاديث عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما، الخاصة بغسل الجنابة والعلاقة بين الزوجين:

«إني لا أستطيع التيقن بأن هاتين الزوجتين الكاملتين من كل ناحية، تكشفان بهذا التفصيل عن أمورهما الخاصة التي وقعت بينهما وبين النبي محمد ﷺ كزوج وزوجة».

صحيح أن بعض الأمور ذكرت في بعض الأحاديث بصورة مكشوفة، وسبق أن اعترض عليها النصارى وفرقة الهنادك المعروفة بآريا سماج. وتلقّيا من هؤلاء ردّدها بعض الشيعة وأهل القرآن، فوجهوا مطاعنهم إلى تلك الأحاديث. ولكن لم أقلق ولم أستغرب موقفهم في الكلام، فإن وجهة نظرهم معروفة من ذي قبل. ولكن المنصب الذي تكلم منه القاضي محمد شفيع يثق المفكرون برزانة عقول أصحابه وأفهامهم، فلم يكن يرُجى أن مثل هذا النقد الساذج المهمل يصدر منه!

ان التعري في الكلام عيب من ناحية الخلق، ولا يجوز شرعا ذكر ما بين الزوجين من العلاقة الخاصة دون سبب، ولكن الحاجة إذا دعت فإن مثل هذا التعري لا يصير جائزا فحسب بل واجبا.

ولعل القاضي محمد شفيع سمع أحيانا قضايا الزنا مع الإكراه، حيث يخشى من ناحية عقوبة الزنا مع الإكراه، ومن ناحية أخرى مقتضى التستر الخلقي، ولكن لا يحول هذا المقتضى في التحقيق عن الجريمة دون شك.

وهكذا إذا اشتكت الزوجة ضد الزوج بأنه لا يقدر على القيام بالوظيفة الجنسية، فان ذلك يعني المطالبة بقطع العلاقة الزوجية من ناحية، ومن ناحية

أخرى يقتضي المبدأ الخلقي عدم كشف المعاملة بين الزوجين، قولوا: أي ناحية ترجحون، وأي حل تختارون ؟ وإن أنكر الزوج صحة دعوى الزوجة، فلعل هذا التعري وصل إلى الكشف الطبي، والآن يجوز ذلك شرعا وخلقا.

وهكذا الحال في التعليم والتعلم، إن عائشة وأم سلمه لم ترويا تلك الأحاديث في خطاب موجه إلى العامة، بل سأل بعض الأولاد أمهاتهم عن المسائل، وبما إنهم يرون السنة حجة شرعية، فإنهم يريدون حل المسألة من قول النبي ﷺ أو فعله أو تقريره. وهنا يبرز المقتضيان: الأول مقتضى العلم والفهم. والثاني مقتضى الأخلاق والتستر.

فإن تم هنا احترام القيم الخلقية العادية لم يتيسر فهم المسألة، ولم تحصل الطمأنينة للطالب والسائل.

وبصرف النظر عن التدريس في المدارس والقضايا في المحاكم، يحصل ذكر مثل هذه الأمور في بعض المشاجرات العائلية بصفة مكشوفة أكثر، ولا يتحقق حسم النزاع فيها إلا بالكشف عن بعض الأمور التي يحب الإنسان التستر فيها. وأحيانا يسأل الناس في المساجد عن مسائل الطهارة، فتضطر النساء أيضا للكشف عن بعض الأمور الخفية لدى المفتى.

وبعد التصريح المذكور نقول: إن قاضي المحكمة العالية لو فكر تفكير العامة فإن ذلك لا يشوه سمعة المحكمة العالية فحسب، بل تضيق ذرعا المحاكم التابعة لها من مثل هذه المحاكمة، فإن هذه المحاكم تصدر حكمها بعد الاستفسار والتحقيق، وأنتم تقولون بدلال: إني لا أستطيع التيقن بأن امرأة تدلى ببيان مكشوف هكذا في المحكمة !

التعري في القرآن الكريم:

إن القرآن الكريم أيضا اختار أسلوبا مكشوفا جدا عند الحاجات الملحة،

ومثال ذلك أن اتهام علماء اليهود وغلو النصارى قد أحدثا وضعا وجب فيه تبرئة ذيل المسيح حتى يضطر الفريقان إلى النظر في مواقفهما، ويتم التمحيص في الأمر حتى يشعروا بأخطائهم، ولم يمكن ذلك إلا ببيان مكشوف، قال تعالى:

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَانَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢].

وقال: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١].

إن مرجع الضمير المذكر في سورة التحريم إلى لفظ «الفرج»، وفي سورة الأنبياء إلى مريم الصديقة.

كانت الحاجة ماسة إلى هذا التعري، فلم تكن اليهود تتخلى عن تعنتهم ولا تترك النصارى غلوهم دون هذا التعري، كانت المصلحة تقتضي أن يكون في الحديث نوع من الكشف.

فهل يقول القاضي محمد شفيع: إني لا أستطيع التيقن بأن اللّه تعالى يستعمل لامرأة عفيفة طاهرة تلك الكلمات المكشوفة؟ بلى، لم يكن بد من ذلك.

ثم اقرؤوا نفس القصة في سورة مريم، يقول تعالى:

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾[مريم: ٢٠].

وهكذا يوجد كثير من التعري في طريق الاعتذار الذي اختارته مريم عن ولادة الطفل في آية آل عمران: ٤٧. فإن صدقتم أو ما صدقتم فإن الأوضاع اقتضت أن تستعمل كلمات مكشوفة في مقام التبرئة.

وقال اللّه تعالى عند ذكر النساء اللاتي يحرم نكاحهن:

﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٣].

فالشرط الذي ذكره عن والدة الربيبة التي يحرم نكاحها هو المرحلة النهائية

للعلاقة الزوجية، فلعلكم تصدقون بأنه في غاية الكشف والتعري، ولكنه لم يكن بد من ذلك. وقال تعالى:

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

فهل تشعرون في ذلك نوعا من التعري؟

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ [القيامة: ٣٧].

وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [النجم ٤٥-٤٦].

وقال: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الواقعة ٥٨ - ٥٩].

فالمعاني التي تعبر عنها كلمات: «يمنى، وتمنى، وما تمنون» فيها كثير من التعري، ولكن هذا التعري هو الطريق الأنسب لإبراز نعمة التخليق، فمهما كان الرجل محبا للحياء والتستر، ولكنه يضطر لمثل ذلك الأسلوب المكشوف في المقامات المذكورة.

وقد اختار القرآن الكريم مثل هذا التعري في عدة مواضع، ويتعرض كل إنسان في مختلف مراحل الحياة للكشف والتعري قليلا كان أو كثيرا، فان ذلك مقتضى الطبيعة البشرية. إن طبائعكم الرقيقة لا ترضى بالانشراح في الحديث، مع أن التكشف العملي جريمة شرعية وخلقية وعرفية، ولكن أبيح هذا التكشف في بعض المواقع دون قيد لمسيس الحاجة إليه، يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾﴾ [المؤمنون ٥ - ٦].

فلعلكم تصدقون بأن القرآن سمح هنا بالتكشف كاملا للحاجة، والإنسان يحب هذا التكشف بالطبيعة وللحاجة أيضا.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

أصل المصيبة :

وأصل المصيبة أنكم لا ترون الدين محيطا بالحياة وجميع نواحيها، بل ترونه من شئون الإنسان الخاصة، وتقيسون مصالحه العامة بمقاييس الاختلاف الشخصي الخاص. ومن المعلوم أن مقاييس البشرية العامة تختلف عن مقاييس الأفراد الشخصية. وكذلك ترون مسئوليات النبي ﷺ مساوية لمسئوليات قاض كبير على الأكثر، ولذلك يصعب عليكم التصديق بالمصالح التي يعتبرها رسول أو خاتم النبيين ﷺ الذي عمت رسالته جميع الدنيا إلى يوم القيامة. ثم إنكم ترون أحوال الصحابة الفكرية وصِلتَهم بقول النبي ﷺ وفعله وسنته مثل صلتكم به وتفكيركم نحوه، إنكم ترون أنه ﷺ كان إنسانا طيبا في عصره، ثم تقيسونه بالمقياس الذي تقيسون به إنسانا طيبا عندكم، ولكن المسلمين يرون النبي ﷺ إنسانا يجب اتباعه عليهم في جميع الشئون، ولذا يوجد فرق كبير بين مقياسكم وبين مقياس الصحابة وعامة المسلمين. وهذا هو الفرق الذي يوجد بين تفكير منكري الحديث ومقلدي أوربا وبين تفكير الصحابة والمسلمين الصادقين. إنكم تقصرون فيما يجب عليكم نحو عيالكم وأطفالكم، حينما تحمل الصحابة والمسلمون مسئولية العالم كله بنجاح تام، وأدّوها على طريقة صحيحة.

كثرة الأحاديث :

يذكر أئمة الحديث مئات الألوف من الأحاديث عامة حينما يشرحون مسائلهم ومنهج الانتخاب وشروط الصحة التي التزموها في مؤلفاتهم، ومثال ذلك أن الإمام البخاري انتخب جامعه الصحيح من سبع مائة ألف حديث (٠٠٠ ، ٧٠٠) ، وانتخب الإمام أحمد مسنده من ثلاث مائة ألف حديث (٠٠٠ ، ٣٠٠) ، وانتخب الإمام مسلم صحيحه من ثلاث مائة ألف حديث (٠٠٠ ، ٣٠٠) أيضا، وكان أبو زرعة يحفظ سبع مائة ألف حديث (٠٠٠ ، ٧٠٠).

ويُحدِث مثلُ هذه التصريحات في عامة الناس أثرين اثنين :

الأول: أن عمر النبي ﷺ بعد النبوة نحو (٢٣) أو (٢٥) سنة، وفي مثل هذه المدة الوجيزة لا يمكن أن يكون حديثه ﷺ بهذا القدر، ولذا لا تكون الأحاديث الصحيحة الموثوق بها بالقدر المذكور.

والثاني: أن عدد الأحاديث في الكتب المؤلفة يبلغ بصعوبة الألوف، ولذا ما يزيد على هذا العدد فهو كله من الموضوعات. يوجد في البخاري نحو سبعة آلاف حديث مع المكررات، وبدون المكررات نحو أربعة آلاف حديث. وكذلك انتخب الإمام مسلم صحيحه من مئات الألوف من الأحاديث.

فمن يجهل هذا الفن يظن أن الأحاديث التي تركها هؤلاء الأئمة، ولم يرد ذكرها في مؤلفاتهم هي كلها غلط وموضوع. ومثل هذه الآراء أبداها القاضي محمد شفيع في حكمه الذي أصدره بصدد الحضانة (منصب رسالت نمبر ص ٢٦٦).

والشبهتان مبنيتان على قلة المطالعة وعدم العلم، فحينما يذكر المحدثون عدد الأحاديث بإطلاق، يريدون بالحديث معناه العام، أي يعبرون به عن المرفوع والموقوف والآثار وتعدد الأسانيد وطرق الأحاديث العديدة، بل الأقوال المختلفة التي رويت عن أئمة السلف لبيان معاني الكلمات في تفاسير المحدثين فضلا عن إطلاقه على الضعاف والموضوعات. وبناء على هذا المعنى العام يبلغ عدد الأحاديث مئات الألوف دون شك، ولكن بعد تجريد الأحاديث من الموضوعات، وصرف النظر عن تكرار الأسانيد، لا يكون عدد الأحاديث الواقعي أكثر من خمسين ألفا. يقول السيوطي: «قال العراقي في هذا الكلام نظرا لقول البخاري: أحفظ مائة ألف حديث صحيح، ومائتي ألف حديث غير صحيح. قال: ولعل البخاري أراد بالأحاديث المكررة الأسانيد والموقوفات، فربما عدّ الحديث الواحد المروي بإسنادين حديثين»[1].

(١) (تدريب الراوي ١ / ٧٦).

ويقول بعد ذلك: قيل ويؤيد أن هذا هو المراد أن الأحاديث الصحاح التي بين أظهرنا، بل وغير الصحاح، لو تتبعت من المسانيد والجوامع والسنن والأجزاء وغيرها لما بلغت مائة ألف بلا تكرار، بل ولا خمسين ألفا (أيضا ١/ ٧٦).

شبهة وحلّها:

وشبهته «أن ما بقي من الحديث بعد مراعاة شروط المحدثين الخاصة فإنه كله غلط» مبنية على الجهل وقصور الإدراك، يقول الإمام البخاري نفسه:

«ما تركت من الصحاح أكثر»[1].

إن انتخاب صحيحي البخاري ومسلم وقع بشروط خاصة، فليس معنى ذلك استيعاب جميع الأحاديث الصحيحة، ولا أن غيرها من الأحاديث غلط، بل كان أئمة الحديث يلتزمون ببعض الشروط عند تأليف الكتب، فالأحاديث التي جاءت وفق هذه الشروط في نظرهم أدخلوها في كتبهم، ومن الممكن أن وقع إخلال بهذه الشروط في موضع أو آخر، ومثال ذلك أن الإمام مسلما ذكر من شروطه في صحيحه: «إنما وضعت ههنا ما أجمعوا عليه». ولكن المعلوم أن هذا الشرط لم يسلم في مواضع عديدة، فذكر أحاديث لم يجمع على صحتها أئمة الحديث، يقول الإمام البخاري: «أحفظ مائة ألف حديث صحيح، ومائتي ألف غير الصحيح».

وحيث إن صحيح البخاري يحتوي على أربعة آلاف حديث فمن الخطأ الزعم بأن الأحاديث التي لم تذكر في صحيح البخاري ليست صحيحة، نعم يمكن التعبير بأنها ليست وفق شروطه.

تم التزام شرط الصحة في تأليف كتب: المستدرك للحاكم، وصحيح ابن

---

(١) (تدريب الراوي ١ / ٧٥).

حبان، وصحيح ابن خزيمة، فمعظم ما وجد فيها صحيح لدى المحدثين مع ورود الاعتراض على البعض، أما الأصول الخمسة، وهي صحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن أبي داود. وجامع الترمذي وسنن النسائي فتحتوي على ذخيرة صالحة للصحاح، ولكن مع ذلك لا تستقيم دعوى الاستيعاب، ففي غيرها من كتب الحديث ذخيرة الأحاديث الصحيحة، نعم وجدت مشكلات في بعض المواضع فتعسر التمييز. والذخيرة التي توجد في كتب الطبراني والسيوطي والهيثمي تحتاج لفحصها وتمحيصها إلى مهرة الفن.

وقد قسم الشاه ولي اللّه في كتابه «حجة اللّه» المحدثين وطبقات كتب الحديث بطريق لو درسها الطالب بروية لاستفاد شيئا كثيرا[١].

إن وضع منكري الحديث في عصرنا بالنسبة إلى أهمية فن الحديث يُشبه الرجلَ الذي يريد نَقب بيت متين، ولكنه لا يعرف خريطته الداخلية، ولا طرقه الملتوية، ولذا يتم القبضُ عليه مقبلا أو مدبرا. ونحن نثنى على منكري الحديث بأنهم واصلوا المحاولة مع تواتر الفشل والندامة، كما رأينا في التشبيه المذكور.

حديث لا يُعقل:

يقول القاضي محمد شفيع: «فالأمر واضح جدا، إن قراءة القرآن وفهمه ليس حقا خاصا بواحد واثنين، إن القرآن بلسان سهل ساذج يستطيع فهمه كل شخص، إن ذلك حق مُنح لكل مسلم، ولا يستطيع أحد مهما كان عالما عالي المرتبة أن يسلب المسلم حق قراءة القرآن وفهمه»[٢].

ثم يقول: «بما أن أحوال الإنسان ومسائله تتغير في هذه الدنيا، فإن الأحكام والقوانين المستقلة التي لا تقبل التغير والتبدل لا تساير الدنيا المتغيرة». والقرآن

---

(١) (حجة اللّه البالغة ١ / ١٠٥).

(٢) (منصب رسالت نمبر ص ٢٤٨).

الكريم أيضا لا يستثني من هذه القاعدة العامة (أيضا).

إن هذه الأفكار تأتي من المقام السامي الذي لا يرجى منه سوى العقل والفهم.

وعلى قول القاضي محمد شفيع يتساءل المرء: لو منح كل إنسان حق تفسير القرآن وشرحه دون مراعاة مستوى علمه، فهل يتم السماح بهذه السعة بخصوص شرح القانون وتوضيحه بحجة أن القانون يتعلق بعامة الناس، فلا يمنح حق فهمه وتعليله لأشخاص معدودين؟ فكما أنه لا يعقل أن يسيطر على حق فهم القرآن وتفسيره عدة دراويش وأئمة المساجد، فكذلك لا يعقل أن يتفرد عدة محامين أو قضاة بحق فهم القانون!

فلو وجدتم دليلا للحفاظ على القانون من هذه الفوضى فإننا نرجو بل نتيقن بأنه نفسه ينفع في سبيل القرآن والسنة. وهكذا لو سُلِّم بصحة ما يقال من أن القانون المستقل لا يقبل في الأحوال المتغيرة، ولذا يخضع القرآن أيضا لإرادتكم، فإننا نتساءل: ما معنى إحاطة علم اللّه ووحيه وكونه بصيرا بعباده؟ وما هي الميزة بين القوانين البشرية وبين القوانين الإلهية؟ إننا لا نقول في هذا المقام شيئا سوى أن نرجو من الإنسان أن يعرف مكانته.

إلى منكري السنة والمفكرين المعترضين:

نقول لمنكري السنة: إن فن الحديث مثل البحر الذي لا يدرك له قعر، والأمة قد خدمت هذا الفن نحو ثلاثة عشر قرنا بطرق مختلفة، فانظروا إلى علوم الحديث لابن الصلاح، ومعرفة علوم الحديث للحاكم، حتى تعرفوا التنوع في خدمة هذا الفن. وفي الكفاية للحافظ البغدادي أيضا مادة كثيرة لعلوم الحديث.

وبهذه الخدمات المتنوعة تمتع هذا الفن بالاحترام والاعتقاد عبر القرون، ومحاولة إنزاله من منزلته الرفيعة تحتاج إلى كفاءة فنية، وتوجيهُ النقد إليه دون

ملاحظة نكاته ودقائقه يُعرّض الإنسان بلا شك للندامة والخجل.

ومن دأبكم أنكم تدرسون طول العمر القانون الانجليزي واللغة الانجليزية، ثم تتوظفون، ثم تتقاعدون، هذه الفرصة الأخيرة التي منحها اللّه لكم للعبادة، تضيّعونها في مناقشة السنة وتوجيه الاعتراض إليها، فتُضحكون أهلَ الفن على أنفسكم.

أو تهاجمون هذا الفن الكريم من الكراسي العالية، مع أن اختصاصكم في القانون، ولا تعرفون علوم الحديث، فلا ينبغي هذا التصيّد من وراء تلك الكراسي.

انزلوا إلى الأسفل من مقامكم، وجالسوا أهل الفن حتى تتدبروا مشكلاته وآدابه ولوازمه ونتائجه، فإن لم يطمئن ضميركم فانتقدوه:

بلاتي هين موجين كه طـوفان مين اترو

كهـــان تك جلــوكِ كنـــاري كنـاري

(تدعو الأمواج للنزول إلى الطوفان، فإلى متى تسيرون في الشاطئ).

ونحن نؤمن بأنكم لو عرفتم آداب هذا الفن ولوازمه، لما قدرتم على توجيه الاعتراض، بل انضممتم إلى طائفة أولئك الدراويش، وإلا كان نقدكم وجيها ذا وزن ينفع القراء». انتهى.

★ ★ ★

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المقالة الثانية

السنة في مرآة القرآن

ورد الحديث والسنة مترادفين، فقد أطلق اللفظان على قول النبي ﷺ وفعله وتقريره واجتهاده، وأقوال النبي ﷺ تستحق نفس الاحترام الذي تستحقه ذاته ﷺ. وآيات القرآن الكريم تدل على أن هذه المنزلة نفسها حصلت لكل نبي في عصره.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: ٦٤].

وأنزل على بعض الأنبياء كتب سماوية خاصة مثل التوراة والإنجيل والزبور والقرآن وصحف موسى وإبراهيم، وأنزلت على بعضهم الأحاديث فقط، فهي كانت شريعتهم وأحكامهم. وكان إسماعيل وإسحاق ويونس ولوط وهود وغيرهم عليهم السلام أنبياء من هذا النوع، فلم ينزل عليهم شيء سوى الأحاديث، ولمخالفة أحاديثهم هذه نزل العذاب عليهم، فافتضحوا إلى يوم القيامة. ولم يذكر القرآن كتابا خاصا عن هؤلاء الأنبياء، ولا ورد عنه شيء في الأحاديث.

وأنزل على النبي ﷺ النوعان من الوحي، يقول تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [النساء: ١٦٣] أي أنزل القرآن وكذا الحديث والسنة أيضا.

طرق الوحي المختلفة:

قال الله تعالى مبينا طرق الوحي: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ﴾ [الشورى: ٥١] ويمكن أن مخاطبة الأنبياء السابقين لم تتم بمجموع هذه الطرق الثلاثة، بل نزل عليهم الوحي بأحد

هذه الطرق، ولكن ورد التصريح عن النبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

وهذه طرق وحي الحديث الشريف، أما القرآن الكريم فقد وضح طريق نزوله بقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤].

ومن هنا مسّت الحاجة إلى استنطاق القرآن الكريم لمعرفة أهمية أقوال النبي ﷺ في نظره. إن منزل القرآن لم تخف عليه مشكلات المستقبل وحفظ الرواة وعدالتهم ونقائص الشذوذ والعلة، بل كان تعالى يعلم تماما أن سلسة الرواية تورث الشكوك والشبهات والظنون، ومع ذلك لو قبل القرآن الكريم أهمية أحاديث رسول اللّه ﷺ لم يبق لنا حق الاعتراض، بل يدل ذلك على أن القرآن يقبل هذا الفرع من العلم على علاته، ولا يسعنا إنكار ضرورته مع الظنون والشبهات، إن ذلك جزء من تعليم القرآن، والنقائص التي تزيد في شبهاتنا، ونعبر عنها بالشك والظن والوهم، ليست عيبا في نظر القرآن، ولذا لا يمكن رد الأحاديث على هذا الأساس. وإن كان الحديث مثل التاريخ العام أو حوادث الدهر ولم تكن له أهمية خاصة، لما أعطاه القرآن الكريم هذه الأهمية، ولما قال عنه تلك الأقوال الثابتة القوية، ولما كررها مرة بعد أخرى.

ذكر الأحاديث في القرآن الكريم:

نجد ذكر الأحاديث في القرآن الكريم على نوعين. الأول: أن القرآن ذكر إطاعة الرسول ﷺ مستقلة عن إطاعة اللّه تعالى. والثاني: أنه أورد في آياته ذكر المقاصد التي لا تتم إلا بالحديث. ونورد هنا آيات تتضمن ذكر الأحاديث بالنوعين المذكورين.

١- قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧] وردت في الآية كلمة «آتاكم» بإزاء نهاكم، ومقابل النهى هو الأمر، ولذا يكون

معنى آتاكم أمركم، أي اعملوا بما يأمركم به الرسول ﷺ بقوة. الأمر يفيد الوجوب، والنهي يقتضى الحرمة، أي يجب العمل بما يأمر به الرسول ﷺ، ويحرم فعل ما ينهى عنه، فعموم الآية يتضمن وجوب إطاعة الرسول ﷺ. وقوله فخذوه يدل على هذا الوجوب والتأكيد. ولو حملت الآية على تقسيم الغنائم لما تغيرت صورة المسألة، فإن ذلك التقسيم أيضا يكون على أساس أمر الرسول ﷺ ونهيه. والآية منحت خيار التشريع للنبي ﷺ، فأقواله ﷺ في الوجوب والتحريم قطعية ومحتمة وفرض على الناس، والعمل واجب بأمر النبي ﷺ ونهيه، ولا ينتظر شيء آخر، وهذا هو معنى حجية الحديث عندنا.

٢ - قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: ٦٤] جعلت هذه الآية الإطاعة مقصدا حقيقيا للرسالة، فإن آمن أحد بالرسالة أو الرسول، ولكنه لا يرى إطاعته والانقياد لأحكامه ضروريا، فالمؤكد أنه يجهل غاية النبوة ومقصدها، وجحود غاية الشيء ومقصده يعنى جحود ناحية الإفادة وإنكار نفعه، فيا ترى أي شيء يسمى الكفر والفجور بعد ذلك. وحيث أن الرسول مُنِحَ هذه المنزلة بإذن اللّه تعالى، فإن إنكار هذه المنزلة إعلان حرب مع اللّه تعالى، أعاذنا اللّه من ذلك.

٣ ﷺ قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥﴾ [النساء: ٦٥].

في هذه الآية أمور جديرة بالتأمل:

١- ذكر الاختلاف والمشاجرة كأصول موضوعة وكالمسلّمات، وهذا هو النتيجة اللازمة لاختلاف الطبائع، أي لابد من وقوع الاختلاف.

٢- ثم إن طريقة القضاء عليه رفعه إلى النبي ﷺ وحكمه فيه.

٣- لم يسمح بوساوس القلب وخطراته في قبول ذلك الحكم.

٤- عُلِم أن ذلك النزاع وحكم النبي ﷺ فيه كلاهما ما سوى القرآن الكريم، فلو أردنا بالنزاع النزاع حول الأمور الدنيوية، ويكون حكم الرسول ﷺ فيه مثل حكم الأمير والحاكم، فإن ذلك أيضا لا يضر الحجية، فإن عموم الآية يتضمن النوعين.

أما صفة الرسول فتنقسم، فإنه أمير وحاكم من الناحية الدنيوية، ورسول من ناحية منزلته الروحية، فإن كان جحود حكمه من الناحية الدنيوية يؤدّي إلى نفى الإيمان، فالاختلاف مع منزلته الروحية أو إنكار حجيته يقضي على الإيمان بطريق أولى، ولذا فإن الآية نصّ على حجية الحديث، فأين المفرّ ؟

٤- قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

دلت الآية على ما يأتي:

(١) قبول حكم النبي ﷺ شرط للإيمان.

(٢) لا يبقى مجال للخيار الذاتي بعد حكم النبي ﷺ.

(٣) فإن أصرّ أحد على خياره، ويحاول الحكم وفق رؤيته، فإنه موعد بالضلال المبين.

(٤) التخلي عن الخيار الذاتي شرط الإيمان. وبهذه الآية تتضح حجية قول النبي ﷺ وفعله واجتهاده، وليس من ذنب أهل الحديث إلا إنهم لا يرضون بالحطّ من منزلة الرسول ﷺ. إن حكم كل ذي أمر يعتبر حجة في نطاق تأثيره، ولكن الرسول ﷺ يحرم هذا الحق الواجب، لماذا ؟

در حيرتم تمام كه اين جه بو العجبي ست

(داخلتني حيرة بالغة بهذا السخف).

٥- قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ

يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

تدبّروا تصريحات هذه الآية:

(١) حكم دعاء الرسول ﷺ يختلف عن حديث الناس العادي (أي تجوز مخالفة الواحد لآخر في الحديث الذي يدور فيما بينهم، ولكن أمر النبي ﷺ يختلف عن ذلك قطعا) ولا يسع هنا أحدا رفض حكم النبي ﷺ.

(٢) لا يجوز صرف النظر عن أحكام النبي ﷺ ولو بالحيل والأعذار، فإن ذلك من دأب المنافقين.

(٣) الذين يخالفون عن أمر النبي ﷺ (أي لا يرونها حجة) يستحقون العذاب الأليم. وجملة «يخالفون عن أمره» تتطلب كثيرا من التأمل من المخالفين.

٦- قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النور: ٥٦].

﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المجادلة: ١٣].

في هاتين الآيتين فرضت إطاعة الرسول مثل الصلاة والزكاة، وورد في سورة النور وسورة الأحزاب وسورة المجادلة ذكر مقام الرسالة وإطاعته بكثرة، وللتأكيد على ذلك جرى تصرف حكيم بديع في أسلوب البيان لا يتمتع بروعته إلا من ذاق العربية.

ذكر في سورة النور «الرسول» معرّفا، فالمراد به محمد رسول اللّه ﷺ فقط.

وفي سورة المجادلة ورد ذكر اللّه والرسول كليهما، والمعنى واحد،

وأسلوب التعبير لطيف. وفي «رسوله» نسب الرسالة إلى نفسه فدل على نسبة الرسول إليه تعالى.

٧- قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١].

إن حب اللّه تعالى مطلوب مسلّم به يسعى له الموحد والمشرك، فبين أن سبيل ذلك هو اتباع الرسول ﷺ فقط، وهذا لا يدل على حبكم فحسب بل يحبكم اللّه تعالى أيضا، فتصيرون محبوبين بدل المحبين، وتغفر لكم ذنوبكم، فان العفو عن زلات المحبوب نتيجة طبيعية للحب.

إن الأسلوب الذي أوجب به اتباع النبي ﷺ حكيم جدا، لقد منّ اللّه تعالى على الوالهين بالحب الإلهي والمضحين في سبيله بإخبارهم عن وصفة المحبوبية، ودل المحبين على أن يكون محبوبين.

عزيزان را ازين معنى خبرنيست

كه سلطانِ جهان با ماست امروز

(لا يعرف الأعزة أن سلطان العالم معنا اليوم).

وجميع هذا التكرم مرتبط باتباع النبي ﷺ، وهذا الفلاح العظيم مضمون بالإطاعة العملية له ﷺ. فالعجب كل العجب من الذين يسدون طريقي المحبة والمحبوبية بإنكار حجية أقوال النبي ﷺ! ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣].

٨- قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥].

(١) جعلت علة إنزال الكتاب بالحق الحكم النبوي، فإن لم يكن للنبي ﷺ حق الحكم، ولم يكن قبول هذا الحكم واجبا، لم تكن حاجة إلى إنزال الكتاب

على النبي ﷺ.

(٢) إن الحكم المذكور في الآية لا يكون بالوحي الناطق فان قوله «أراك اللّه» يوضّح أن هذا الحكم يكون بالتفكير والاجتهاد، ويصدره النبي ﷺ برأيه.

(٣) عهد إلى النبي ﷺ أن لا يكون خصيما للخائنين.

فالآية تحسم الأمر، إمّا أن ننكر نزول القرآن على النبي ﷺ، أو نؤمن بأن اجتهادات النبي ﷺ أيضاً من اللّه تعالى. إن أقوال النبي ﷺ ليست تراثا تاريخيا فحسب، بل هي أحكام يجب العمل بها وحقائق ناطقة: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

خديعة:

امتّن بعض منكري السنة كثيرا فقالوا: نحن لا ننكر الأحاديث، بل إنها تراث تاريخي ثمين ووثيقة تاريخية مقدسة: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [الكهف: ٥] وليس معنى هذا القول بعد فهم منزلة النبوة إلا إنكار النبوة، بل غاية إهانة للنبي ﷺ، أعاذنا اللّه منه. وزخرفة القول هذه لا تعني إلا أن منزلة النبي ﷺ تشبه منزلة ابن خلدون وابن جرير وابن كثير والمؤرخين الآخرين، فتكون أقل أو أكثر، ويحق لكل إنسان أن ينتقده، فيكون الرسول هدفا للبحوث التاريخية، وتدقيق البحث والنظر يحيط بجو النبوة. إن هذه المنزلة لجميع العلماء، بل نشر ملحدو أوربا تراثا تاريخيا أفضل في سوق العلم يهيئ لأهل النظر مادة فكرية.

فليفكر أصدقاؤنا (إن لم ينعدم الحياء من الدنيا) في المنزلة التي يمنحونها النبي ﷺ. هذا كما يقول شخص عن أبيه: إني لست ابنا له، ولكنه رجل شريف، إن أكثر ملحدي أوربا يحسبون النبي ﷺ إنسانا مقدسا، ولكنهم لا يرونه نبيا! وهذه المنزلة أعطاها أهل القرآن الأنبياء عليهم السلام فعليهم أن يفكروا بأمانة ما هو الفرق الذي يوجد بين منزلة النبوة ومنزلة العلم العام؟

﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

الحقيقة أن هؤلاء يملكون نفسية انهزامية، واعتقادهم في محققي أوربا قد أغفل عن أنظارهم الإسلام وعقائده والأنبياء ومنزلتهم: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [المدثر: ٤٨] فبدل أن يعتزوا بالتراث العلمي الذي ورثته الأمة عن رسولها قرنا بعد قرن، يرون فيه عارا، وتندم قلوبهم على الإيمان به: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ [يونس: ٣٩].

ولعل أجزاء السنة التي تتضمن بعض القصص التاريخية، نرتضى لها كلمة التاريخ قليلا، ولكنها كيف تطلق على الأوامر والنواهي والترغيب والترهيب والزهد والورع والأخلاق والعبادات والأذكار والأدعية؟ إن منكري الحديث قد أبدوا في هذه المسألة كرما فكريا لا يسمى إلا ذهولا علميا، بل كلامهم في هذا الموضوع إنما هو خداع ودجل لا ينبغي لملحد ذي همة وكافر جرئ ومنكر غير مبال، إنه تشم منه رائحة النفاق: ﴿وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨] إن هذه الكلمات لا تصدر إلا عن الألسنة التي خلت قلوب أصحابها من حلاوة الإيمان. اللَّهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه.

٩- قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة: ١٦ ـ ١٩].

(١) كان النبي ﷺ يسعى عند نزول الوحي لضبطه حتى لا تنفلت كلمة من الذاكرة، ولذلك أمره اللَّه تعالى بأن يطمئن من الانفلات، لأن جمع القرآن وإقراءه على اللَّه.

(٢) ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ ليس معنى البيان هنا سوى التعبير عن المقاصد، وهذا يختلف تماما عن الجمع والقراءة. ومقصود الأمرين (الجمع والقراءة) حفظ ألفاظ القرآن. والمقصود من البيان التعبير عن المعاني التي هي روح

الوحي. ولو لم تحفظ المعاني لم ينفع الحفاظ على الألفاظ كثيرا، وهذا البيان هو الذي قام به النبي ﷺ بقوله وفعله وتقريره. واللَّه تعالى قد تولى بنفسه البيان حيث أتى بحرف التأكيد «إن» ثم قدم قوله «علينا» فالبيان خاص به تعالى. وعلينا الآن أن نتدبر أن البيان الذي تولاه اللَّه تعالى وقع أم لا؟ وحفظ أم لا؟ والآية تشير إلى أن حفظ البيان أيضا مما تولاه اللَّه تعالى.

(٣) فإن كانت الظنون والشكوك في الرواة والرواية والأسانيد والرجال تستطيع أن تبطل ذلك البيان، وتحفظات العلوم الإنسانية تفقد الثقة به، فما هي فائدة الدعوى المؤكدة في قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾؟

(٤) إن لم يصدق هذا البيان على الأحاديث المصطلحة، فأين هو في هذه الدنيا؟ وعلى كل فإنه زائد على وجود القرآن اللفظي.

(٥) إن لم يتم حفظ هذا البيان في الواقع، وكان التأكيد المذكور تظاهرا دينيا فقط، فما هي فائدة حفظ الألفاظ إذن؟ إن حفظ الألفاظ لا يتم به حفظ المعاني والمقاصد.

(٦) ومع ذلك يجب التفكير فيما إذا كان الحفاظ على اللغة أقوى من الحفاظ على الحديث؟ وهل سلمت لغة القرآن (العربية) من التطورات إلى الآن؟ إن التفكير في النقاط السابقة بالعقل والأمانة يوضح حجية السنة، وأنها مقتضى القرآن ومقصده.

١٠- قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ [مريم: ٩٧].

(ألف) يحتمل أن يراد باللسان اللغة العربية، أو أقوال النبي ﷺ التي في صورة السنة والحديث، والثاني هو الأرجح في رأيي المتواضع، ولا ينبغي أن نريد به اللغة العربية فقط، وذلك أن اللسان هنا أضيف إلى كاف الخطاب «ك» ومن المعلوم أن اللغة العربية يتكلم بها مئات الألوف من الناس، فما هي فائدة هذا

التخصيص والإضافة؟ إن نزول القرآن باللغة العربية مزية أخرى ذكرها القرآن في مواضع آخري.

وإن أردنا باللسان هنا اللغة العربية، فان لام التعليل في «لتبشر» تكون مهملة، فلا يكون ذلك مزية للنبي ﷺ، بل يستطيع كل واحد من أهل اللغة أن يفعل ذلك، وهكذا لا تكون في ترتيب الآية فائدة خاصة.

ب- بعد تقييد يسر القرآن وسهولته بلسان النبي ﷺ ذكر أمرين كعلة له:

(١) البشارة لأهل التقوى.

(٢) إنذار محبي الجدل والخصومة. ومن المعلوم أن هذا المقصد لا يحصل بتلاوة الألفاظ فقط، بل يجب له الإفهام والتفهيم والشرح والتوضيح، ويستوي في ذلك العرب (عارفو اللغة) والعجم كلهم.

فإن لم يكن هذا الشرح والتوضيح حجة، فالحصر بإنما وترتب البشارة والإنذار عليه يصير دون هدف، ويتهدم بناء النبوة وغاياتها تماما. ولعل هؤلاء المفكرين (منكري الحديث) لم يقرؤوا القرآن قط بتدبر: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨].

١١- قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المائدة: ١٠٤].

ذكر قوله «إلى الرسول» معطوفا، ومن المعلوم أن المعطوف والمعطوف عليه يستقلان ويتغايران في عامة الأحوال، فحينما نقول: «عندنا فلوس وأرض» فان الفلوس والأرض في هذا المثال لا يكونان شيئا واحدا، بل هما شيئان مستقلان منفصلان.

كان الراحل المولى عبد اللّه الجكرالوى يريد بالرسول أيضا القرآن، وهذا في رأيي جهل عظيم ناشئ عن عدم معرفة اللغة العربية، فإن معنى الدعوة إلى

الرسول هنا ليس إلا الدعوة إلى سنة الرسول ﷺ، وهذان أمران مستقلان في الظاهر، ومنزلتهما سواء (أوتيت القرآن ومثله معه). «الرسول» ركن مستقل للدعوة السماوية، وإذا كانت كل سنة صالحة جديرة بالاتباع، فلما ذا تحرم سنة الرسولِ ذلك؟ إنها تستحق أن تجب إطاعتها أكثر.

١٢- قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٥٠ - ١٥٢].

هذه الآية تحكى عن طريق أهل الكفر وطريق أهل الإيمان، فأهل الكفر يفرقون بين اللّه تعالى وبين رسله، فيؤمنون بالبعض، ويكفرون بالبعض، وهذا هو طريق الكفر. أما أهل الإيمان فلا يفرقون بين اللّه تعالى وبين أنبيائه، فهؤلاء يستحقون الأجر عند اللّه، ولهم رحمة اللّه ومغفرته.

إن اللّه ورسوله ينفصلان بالذات والوجود، ولكنهما يتحدان بالنظر إلى وجوب الإيمان، والتفريق بينهما كفر، والإيمان بالرسول واجب مثلما يجب الإيمان باللّه. والآية حكمت بالكفر القطعي على الذين يفرّقون في هذا المقام، فيؤمنون ببعض الأنبياء، حينما يكفرون بالبعض الآخر، أو يؤمنون باللّه ولكن يكفرون بالرسل.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١].

والتفريق الذي ورد ذكره في الآية السابقة، لعله هو فرار أهل الكفر والنفاق من أقوال النبي ﷺ.

ومن علامات أهل الإيمان أنهم لا يؤمنون ببعض أقسام الوحي ولا يكفرون

بالبعض، بل يؤمنون بالوحي كليا، ولا يفرقون بين الإيمان باللَّه وبين الإيمان بالرسل.

١٣ - قال تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ١- ٥] ذكر هنا عصمة الرسول ﷺ من الضلالة والغواية، ثم وصف أقواله كلها بالوحي، وجعلها بعيدة عن هوى النفس.

والظاهر أن كل قول من أقوال النبي ﷺ مطهر من هوى النفس، ومؤيد بالوحي الإلهى، ولذا يكون حجة شرعية ومقبولا. والحصر في قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ يدل على أن الرسول بصفته رسولا لا ينطق إلا بالوحي، ولذا لا يكون ما يتلوه من القرآن بلسانه وما يبينه بالسنة بوصفه رسولا إلا وحيا، أما الأمور العادية والدنيوية فإنها ليست تابعة لوصف الرسالة ولذا لا تكون وحيا، ويمكن أن يتركها النبي ﷺ، ويصرف النظر عنها بمشورة الصحابة، ويرجّح عليها أفكار الصحابة وآراءهم. وما صدر منه ﷺ من تغيير موضع الحرب في غزوة بدر، ومن إشارته على بريرة بخصوص مغيث، وعدم التعرض لها بعد رفض المشورة، يدل على أن هذه الأمور لم تكن من حيث كونه نبيا.

١٤ - قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح: ١٤].

أثبت في هذه السورة نعما عديدة بصيغة الاستفهام، وبذلك يظهر أن جميع المعوقات التي قد تكون مظنة الخطأ تزول بعد شرح الصدر، وحينما توضع جميع الأوزار التي قد توجب الخطأ والمعصية في هذه الدنيا، فكيف تكون حجية أقوال هذه الشخصية المعصومة المحفوظة المتفرغة في هذه الدنيا للذكر والشكر موضع شبهة لدى المرء المتدين العاقل؟

وان كانت أقواله موضع بحث، وأمكن وصفها بالخطأ وإسقاطها من الحجية

مثل عامة أرباب التاريخ والعلماء غير المعصومين، فما هي صورة رفع ذكره؟ إن ذكره حينذاك يكون مثل ذكر عامة الناس، وقوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ يصير مجرد وعد لم تظهر له صورة عملية!

والذين أكرمهم اللّه تعالى بنعمة شرح الصدر من الأمة، قد أعزهم بقيادة الدنيا أيضا، وهذه القيادة المقدسة هي التي تضمن الفوز والعلو للدنيا.

انظروا إلى الألقاب العامة التي أكرم بها النبي ﷺ، ثم انظروا إلى الحجة الشاذة التي يقدّمها منكرو الحديث على زعمهم بأن أقوال هذا الرسول الأعلم الأعقل ليست حجة للأمة، كي تدركوا التباين والانفصال بين المنزلتين فاللّه تعالى رفع منزلة النبي ﷺ بالخطاب والكلام، ومنكرو الحديث يحاولون الانتقاص منه بإنكار الأهمية الشرعية لأقوال الرسول الطاهر المقدس ﷺ، فأين الثريا من الثرى، وأين الحضيض الداني من السماوات العلى؟

١٥- وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

ليست لهذه الآية في الظاهر علاقة بحجية الحديث، فإنها تذكر إكمال الدين فقط، ولكننا إذا رأينا النواحي المختلفة للدين الكامل، وفكرنا في العبادات والمعاملات والمغازي والسير والشئون الاقتصادية والدولية، شعرنا بنوع من التطلع إلى التفاصيل بعد إدراكنا بأن القرآن الكريم كتاب أصولي وصحيفة قانونية، فإن تم تشكيل لجنة من العلماء لهذه التفاصيل، أو تم الرجوع إلى رجل فطين على أنه مركز الملة، فإن هذه البيئة غير المعصومة بأسرها تكون حملا للظنون والأوهام والشكوك والمزخرفات، وضع على رأس مجنون ركب بعيرا أعمى وسلّم إليه زمامه حتى يوزّع هذه الأمانة الموهومة برضاه واختياره:

كبهيمة عمياء قاد زمامها أعمى على عوج الطريق الحائر

فإن صارت هذه الظنون والأوهام دينا، فما ذنب خبر الواحد حتى نجعله

ساقط الاعتبار؟ وما جريمة علم الإسناد حتى يتعرض للهجمات المتوالية؟ ولماذا يهمل الفن المتعارف المعقول مثل علم الرجال وأصول الحديث، الذي طهر حياة مئات الألوف من الناس، ونقّح فني الرواية والدراية، فأرشد العالم إلى نقد أصول التاريخ، وأخرج التاريخ من عصر القصة الأسطوري فجعله فنا منقحا مستندا إليه ؟

فأمامنا الآن طريقان: إما أن نجعل الحديث قانونا عاديا لأسرة أو قرية، فنغمض العيون عن سعته التي ليس لها حد، أو نعترف بحجية الحديث.

سعة الإسلام:

إن كان الإسلام للعالم كله، وشموله محيط بالكون كله، وهو حقيقة وليس أسطورة، ويعتمد على اليقينيات أو المظنونات العلمية المستندة، فإن الفرار من السنة وخدمات فن الحديث غير ممكن لتكميل الدين، فإنه يرشد في العبادات والمعاملات والاقتصاد والسياسة والحروب والشئون الدولية، ويكون هذا الإرشاد بالوحي ولسان النبوة الذي استسلمت له ألوف المراكز للملة وسوف تخضع هكذا في المستقبل أيضا، ولن تحصل لمراكز الملة هذه في عالم العقل والشعور درجة الاستشهاد واليقين التي تتمتع بها دفاتر السنة ودواوين الحديث: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ [المدثر: ٥٠ - ٥٢].

عجز منكري السنة:

لا تزال تتمثل أمامنا الجهود التي بذلت طوال خمس وسبعين سنة لسدّ الفراغ الذي نشأ في سعة الدين وشموله بسبب إنكار الحديث، والصلاة المسكينة هي التي ظلت في هذه المدة غرضا لعلماء منكري الحديث، ولكن لم يستطع أهل التحقيق هؤلاء إلى اليوم الحكم في وقت الصلاة وهيئتها وأذكارها ونوافلها وفرائضها وواجباتها وركعاتها وأركانها! فالذين برزوا منادين بالاتحاد، متعهدين

باجتناب الخلافات، لا زالوا في صميم الاختلاف، ولم يستطيعوا بعد الاعتماد على القرآن وحده أن يقضوا عدة ساعات مع الاتفاق.

والشكر للّه على أن هؤلاء لم يصلوا إلى بقية شئون الأمة المسلمة من الحج والزكاة والصوم والمعاملات والاقتصاد والسياسة. فإن كان الدين كاملا، وكان معنى كماله ما ذكرناه من سعته وشموله، فلماذا يصرف النظر عن السنة ودفاترها وعن الأحاديث وذخائرها؟ إننا قد درسنا بحسن النية والتأمل التام تراجم معاني القرآن لمنكري الحديث هؤلاء وحواشيهم وتعبيراتهم، واللّه يشهد على أننا لم نجد لديهم شائبة من العلم واليقين.

خلفية إنكار الحديث:

منشأ إنكار الحديث هو الشعور بالنقص، الذي تحول إلى الفرار والتقهقر، فحينما يسمع هؤلاء اعتراض معارض، يبدءون الفرار والتهرب، لأنهم يجهلون القرآن والسنة ومصادرهما الموثوق بها، وتعجز عقولهم عن توجيههما، وهذا الفرار يتمثل في صورة إنكار النصوص، والسلاح الذي يستعملونه ضد الأحاديث هو رفضها وجحودها.

وحينما يواجهون هذه المشكلة في القرآن الكريم، ويرون أنه لا يجارى تبحرهم في الجهل، يلتجئون إلى التأويلات التي توهم أن اللّه تعالى لم يكن يعلم من العربية ما يعلمه هؤلاء المتبحرون في الجهل! فإن قرأتم كتاب تأويل مختلف الحديث في الرد على أعداء أهل الحديث لابن قتيبة، وكتاب مشكل الآثار للإمام الطحاوي، وكتاب الأحاديث المشكلة للقمى، وكتاب مشكل الأحاديث لابن فورك، لعرفتم أن المبتدعين القدامى لم ينكروا الحديث جهارا، ولكنهم تعرضوا لعقدة فكرية بسبب بعض الأحاديث وبعض الآيات، فاختاروا أيضا طريقين: إما الإنكار أو التأويل، وهذه هي نتيجة الشعور بالنقص الذي نشأ بسبب قلة العلم.

ثم الغريب أن يرى هؤلاء مطعنا في بعض الأحاديث، ولكن النظّام يستدل

بها، فحديث تعاريض إبراهيم يشرق به كل منكر للحديث، فلا يستطيع أن يقبله أو يرفضه، ولكن النظّام يستدل به نفسه على جواز الكذب ويجعله أساسا له. وكلامي هذا إن كان مرا فإني أعتذر عنه إلى الأصدقاء، ولكن أمنيتي أن يقرأ كلامي بروية ثم يفكّر، فإن الأمة كلّها في جانب، وأنتم المعدودون في جانب آخر:

جمله عالم يك طرف* آن شوخ تنها يك طرف**[1]

إن معنى حجية سنة الرسول ﷺ واستقلالها عام وواضح في القرآن بحيث يمكن جمع مئات الآيات حول هذا الموضوع، وإني ذكرت هنا بعضها فقط، كي يحاول طالب العلم التفكير بهذا الطريق. وسوف أذكر في فرصة قادمة حجية الحديث في ضوء سيرة الرسول ﷺ. ومن العناوين المستقلة أن الرجل الذي تكون سيرته في هذا العلو والرفعة، هل تكون أقواله وأعماله مثل التاريخ، وشخصيته مثل المؤرخ، ويعتبر كلامه مجرد تراث تاريخي مقدس وثمين؟ فالرجاء من القراء انتظار ذلك.

الترابط بين القرآن والحديث:

ذكرت في القرآن الكريم بعض الآيات بحيث لا يكتمل معنى القرآن بغير الحديث، وهذا هو نداء القرآن الذي يثبت ضرورة الحديث، والقرآن الكريم يثبت ضرورة الحديث بإشارة النص، فالرجاء من منكري الحديث أن يتجشموا مشقة التدبر في القرآن من هذه الناحية كطلاب علم، عسى اللّه أن يفتح القلوب، وتسنح لقوة الفهم فرصة الاستفادة.

١- قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: ٣٦].

---

(١) العالم كله في جهة، وذلك المتدلل وحده في جهة أخرى.

ورد ذكر هذه الشهور الأربعة في القرآن بالإجمال، وقد منع فيها من القتال والجدال، وكذلك منع من بدء الحرب فيها، ولكن القرآن لم يذكر أسماء الشهور الاثنى عشر، ولا فصل ذكر الشهور الأربعة، بل يوجد هذا الذكر في الأحاديث أو في تاريخ العرب، فلا نعلم عن أهل القرآن أي ذخيرة مقدسة يختارونها؟

٢- وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٩].

إن كلمة اليد تطلق في اللغة العربية من الظفر إلى الكتف، والقرآن أمر بقطع اليد، ولكن لم يبين حد ذلك، وبالتواتر العملي يثبت أن يد السارق تقطع من الرسغ، وهذا التحديد مبنى على السنة، فإن تم إنكار السنة لزم قطع اليد من الإبط، أو البحث عن حد شرعي يستند إليه. وهذا نداء من القرآن للسنة، فمعنى القرآن غير واضح للعمل بدون توضيح السنة، وهذا دليل على أن السنة حجة.

٣- وقال تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ﴾ [المائدة: ٦].

هذه الآية توضح الوضوء والتيمم، وكان الوضوء موجودا قبل ذلك، فرضت الصلاة في السنة الثانية عشرة من النبوة، فتم تعليم الوضوء حينذاك، فكان النبي ﷺ يؤدي الصلاة في ضوء هذا التوجيه مدة ثماني سنوات، وكانت الصلاة بالوضوء، وبعد ثماني سنوات نزلت سورة المائدة في السنة السادسة من الهجرة، فذكر فيها ترتيب الوضوء وتم تأييد العمل الذي استمر ثماني سنوات، فالعمل الذي وقع طوال السنوات الثماني كان مبنيا على السنة، وبعد هذه المدة أيده القرآن، فان لم يكن الحديث حجة فلما ذا كان الوضوء؟ ويمكن أن ترجح الصلاة بغير الوضوء دعما لمذهب منكري الحديث، ولكن العمل يعارضه.

وفى الجزء الثاني للآية تعليم التيمم، فذكر فيها اليد ولكن لم يذكر الحد بأن يراد إلى الرسغ أو المرفقين أو الإبط. فأي توضيح يقبل يكون مبنيا على السنة، فالقرآن ساكت عنه، والقرآن نفسه ينبه على أن الصورة العملية لهذه الأحكام تعلم بعمل النبي ﷺ، وهذه دعوة اضطرارية لحجية السنة.

والفصل بين نزول الآية وفرضية الوضوء بالسنوات الثماني ذكره المتقدمون من العلماء أيضا، وينظر لذلك مفتاح السعادة، والإتقان في علوم القرآن. وقد ورد في أبجد العلوم للنواب، وكشف الظنون للجلبي:

«ومثال الثاني آية الوضوء، أنها مدنية إجماعا، وفرضه كان بمكة مع فرض الصلاة. وكآية الجمعة، فإنها مدنية، والجمعة فرضت بمكة، كذا قيل، والحكمة في ذلك تأكيد الحكم السابق بالآية. (أبجد العلوم للنواب صديق حسن: ٢ / ٦٣٧)

٤- وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣].

تكرر حكم الصلاة والزكاة في القرآن مرات، ولكن لم يوجد فيه التفصيل عن تعيين أوقاتها وركعاتها ووظائفها وأورادها، هذا عن الصلاة، وكذلك الحال عن الزكاة، فإنه لم يرد في القرآن تحديد النصاب في الأشياء المختلفة التي تجب فيها الزكاة ولا تعيين المقادير. والذين حاولوا تحديد هذه الأشياء بالاستغناء عن السنة، فشلوا فشلا ذريعا، ولذا فان القرآن نفسه يطالب بحجية الحديث.

إلى أهل القرآن:

أقول بأدب: إن نظرنا إلى الإسلام وتعاليمه فان ذلك يحتم علينا القول بحجية السنة والاعتراف بالأحاديث، وقد احتلت هذه الأحاديث بين تعليم الإسلام منزلة الجزء الذي يؤدي انكاره إلى الخلل في حقيقة الإيمان، فليس هناك فرق بين إنكار النبوة وبين إنكار كلمات النبوة، إن الإيمان لا يكون بجسد الرسول، بل بأقواله

وكلماته. والذي يقتضيه الإيمان والأمانة هو أنه ليس هنا مكان لمنكري السنة ولإنكار الحديث. وتربية الأفكار التي تقوم بها مجلة «طلوع إسلام» وغيرها من المجلات اللا دينية، ليست تربية إسلامية قط، بل النظر إلى الحرية التي يدعون إليها يخيل إلينا أنهم ليس لهم مكان في الكفر المنضبط المنسق. إن اليهودية والنصرانية كفر، ولكن الإنسان لا يستطيع الانتساب إليها بعد نقض تعاليمهما. والوثنية أيضا قانون ولها حدود، والمرء المتحرر لا يستطيع البقاء فيها إلا إذا قبل الالتزام بها.

وفيما أعلم أن هؤلاء المتحررين مكانهم في الاباحية أو في متسعات الاشتراكية، أما الديانة المنضبطة (كفرا كانت او إسلاما) فالظاهر أن هؤلاء الأصدقاء ليس لهم فيها مكان. . . انتهى المقال.

★★★

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المقالة الثالثة

حجية الحديث في ضوء سيرة الرسول ﷺ

هذه الكلمات المقدمة إلى القراء لم أهدف بها إلى الرد على أحد ولا إلى المناظرة، بل هي طريق لتدبر القرآن الكريم، ومنهج تفكير لطلاب علم القرآن. وقد سبق أن أشار إلى هذا المنهج إمام الهند وقدوة أصحاب العزيمة العلامة أبو الكلام أزاد في كتابه «التذكرة» إشارة ضمنية، وبعد ذلك ألف العلامة الشيخ موسى جار اللّه المهاجر مقالا وجيزا على هذا المنهج، واستنبط من القرآن النواحي العديدة لسيرة الرسول ﷺ. وهذا الكاتب أيضا اقتدى بهم فكتب هذه السطور مع قلة بضاعته في العلم. وظهر لي بأدنى عناية أن هذا الموضوع مفصل جدا في القرآن الكريم، والجدية في التفكير تدل على أن ذخيرة كبيرة لسيرة الرسول المقدسة توجد في القرآن الكريم.

وفي رأيي المتواضع أن اتجاه إنكار الحديث ظهر بفقدان الفكر الصحيح في القرآن العزيز، فطالب علم القرآن لو درسه بتدبر وروية لتيقن بأنه لا يمكن إنكار أقوال الرسول ﷺ بعد الاعتراف بكون القرآن كتاب اللّه وكلامه. إن البحث قد يجرى حول كون حديث معين بأنه من قول النبي ﷺ أم لا، وكذلك حول القواعد والأصول التي تكون أنفع في تمحيص أقوال الرسول ﷺ، ولكنه من لغو القول التساؤل بأن الحديث حجة أم لا بعد الاعتراف بكون رواية ما حديثا.

بعد نظر أئمة الحديث:

توسّع جدا أئمة الحديث وفقهاء الإسلام في نقد الحديث، فاستخدموا كل شيء من الرواية والدراية والتاريخ والرجال كآلات للنقد، ثم تغيرت هذه الأصول بتغير الأحوال أيضا، فحينا تم الاعتراف بكون الحديث المرسل حجة، ولكن حينما تغير مقتضى الأحوال تم تقييد حجية المرسل أيضا، بل عدّ المرسل من

أقسام الضعيف، كما لوّح به الشافعي في الرسالة، . وهكذا جاء التأكيد في اتصال السند على وقوع اللقاء بعد إمكانه، وصرف النظر عن أهمية المقارنة وإمكان اللقاء (شروح البخاري ومقدمة صحيح مسلم)، وبولغ في التفكير بجدية بالغة في تقديم الرواية والدراية واعتبارهما، ولوحظت أهمية كل شيء حسب المقام. فلو اختيرت حيلة للتعنت في النقد ولتقديم العقل على النصوص، لقوبل ذلك اليوم أيضا بالمعارضة، ولكن مراعاة العقل الجائزة لم تجحد قط، والمحدثون وأئمة السنة أيضا لم يصرفوا النظر عن أهمية القواعد الفطرية والأمور المتواترة وتوافق القرآن الكريم، جزاهم اللّه عنا وعن المسلمين خير الجزاء.

نقد الأحاديث والاجتهاد:

كان الحافظ ابن الصلاح يرى عدم جواز الاجتهاد في نقد الأحاديث، ولا يمنح أحد بعد الأئمة المتقدمين حق النقد. ولكن أئمة الحديث لم يوافقوا على هذا الرأي مع جلالة قدر الحافظ ابن الصلاح رحمه اللّه، بل أجاز الأئمة بسعة الظرف للتحقيق في هذا الشأن، فاستدرك الحافظ الدارقطني على الصحيح، ومستدرك الإمام الحاكم محاولة من هذا النوع، ومنهج مسند أبي عوانة أيضا استدراك على صحيح مسلم. وقد أجاب الأئمة عن هذه الاستدراكات أيضا بتحقيق. ومع هذا التوسع في الاستدراك لا يمكن مع استدراكهم الحط من منزلة الصحيحين، بل كان هؤلاء الأئمة المستدركون ينظرون مع استدراكهم إلى الصحيحين نظرة الاحترام والتقدير، ويعتبرون الحديث النبوي حجة، بل اعترض المحدثون الأوائل على بعض الأحاديث منفردة من ناحية معانيها، ولكنهم لم ينكروا منزلتها، ولم يشكوا في حجية الحديث. وقد رد أئمة الحديث على هذه الاعتراضات المنفردة أيضا ردا مناسبا مسكتا. وكتاب الحافظ ابن قتيبة الدينوري القيم باسم (تأويل مختلف الحديث في الرد على أعداء أهل الحديث) على نفس هذا الموضوع. ولنفس هذا الغرض تم تأليف مشكل الآثار للحافظ الطحاوي، وقد نجح في إزالة الشبهات المنفردة إلى حد كبير، ولكن لم يتجرأ

أحد في ذلك العصر على الاعتراض على فن الحديث بمجموعه، وأديب لغوى بالغ النظر مثل الزمخشري ذكر الأحاديث مع تحرره الاعتزالي، وسلم بأكثر المعجزات التي لم يستعد لقبولها أئمة الحديث أنفسهم، بل شعر أئمة الحديث بالحاجة إلى تخريج أحاديث تفسيري القاضي البيضاوي والزمخشري، حتى لا تمّس هذه الذخيرة غير الموثوق بها أهمية الأحاديث الصحيحة.

الجهل بالقرآن وإنكار الحديث:

إنكار حجية الحديث إنتاج عصر الجهل، وقد بدأ هذا الإنكار من قبل أولئك العلماء «المتزعمون» الذين أنتجتهم الدراسة الانجليزية والحكام الانجليز. وتعوّد جميع هؤلاء سوى المولوي عبد اللّه الجكرالوي على تلقى العلوم الإسلامية بالموسوعات، ويرون تلقى تاريخ القرآن وسيرة الرسول ﷺ على يد «المستر نيكلسون» غاية التحقيق، وأغلبيتهم لم يتلقوا العلوم الإسلامية من المصدر الإسلامي، بل تعلموها بالمستشرقين الأوربيين وباللغة الانجليزية. فالذين يعتمدون في ترجمة معاني القرآن الكريم على «المستر وليام موير» لو أنكروا الحديث فمن يمنعهم وكيف؟ إن مدير «طلوع إسلام»، والعلامة عناية اللّه المشرقي، والمولوى أحمد دين الأمرتسرى كلهم من منتجات «الخواجات» الإنجليز، ويسرى في معلوماتهم منهج التفكير الانجليزي: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ [ص: ١١].

حقا كان المولوي عبد اللّه المسكين على الوضع القديم، ولكنه لم يجد فرصة تكميل العلوم الإسلامية بالتحصيل، ثم أصيب بنزعة التفوق التي لم تتحقق بعدم مواتاة الظروف. والتفكير التجاري للشيخ محمد جتّو لم يسمح للمولوي عبد اللّه بأن يعمل وفق إرادته، على أنه لم يكن هذا المسكين على قدر كبير من الفطانة، والمحاولة التي بذلها لاستخراج المسائل من لام التعريف والتنوين، لم تكن في أوساط العلماء أكثر من أضحوكة. إن منطق النحو هذا غريب لدى أهل

اللغة أيضا. ثم ان الذين اطلعوا على ترجمته لمعاني القرآن وتفسيره، يقررون بسهولة أنهما ليسا من عمل رجل اتصف بالذكاء والفطنة.

السعة في أصول الحديث:

والمقصود من الكلام أن مبحث إنكار حجية الحديث بأسره ناشئ عن قلة المطالعة. إن أئمة الحديث وضعوا أصولا وفق الظروف والأحوال، وتركوا الطريق مفتوحا للاحقين حتى يبحثوا في الرجال والأسانيد في ضوء الأمانة، وإذا جاءتهم شبهة في حديث أبدوها، وتكلموا على سنده، وفهموه في ضوء الدراية، ويرجعوا له إلى أهل العلم، فإن لم يطمئنوا توقفوا قاصرين الشبهة على هذا الحديث، وواصلوا البحث: ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ [الطلاق: ١]، أما محاولة القضاء على الفن فمحاولة إلحادية دون شك. وهذا الموقف من أعمال الأمة وخدماتها العلمية كفران بالجميل، وإساءة الظن فيهم بعد الاستفادة من علومهم نكران بالنعمة.

فلو تفكر «هؤلاء المحققون الاكتشافيون الأحداث» لتيقنوا بأن الغث والسمين من الذي يقال أو يكتب اليوم يرجع الفضل فيه إلى المتقدمين، وهو نتيجة مساعيهم، وإطالة اللسان فيهم بعد الاستفادة من علومهم ليست مظهر الخلق الحسن.

الشكوى إلى معارضي الحديث:

نشكو إلى معسكر معارضي الحديث جميعا أنهم حاولوا دائما الخبط وخلط المبحث، فملخّص ادعائهم:

«أن أقوال الرسول ﷺ وأفعاله واجتهاداته ليست حجة في الشرع، أنه يأتي برسالة اللّه (القرآن) ولكن لا يحق له أن يوضحه، وان عمل به هو فهذا العمل ليس حجة للأمة، واستصوابه مقصور على ذاته فلسنا مكلفين بالعمل به. والظاهر أن

ذلك لا يحتاج إلى السند، فالذين كانوا يتكلمون مع النبي ﷺ مشافهة لم يجب عليهم أيضا قبول كلامه شرعا، ولذا فإن وصلت إلينا ذخائر الحديث هذه بتواتر النقل، لم تكن حجة شرعية لكونها أقوال الرسول، بل الحجة الشرعية هي ألفاظ الرسالة فقط أي القرآن، وهكذا لو اكتتب النبي ﷺ في حياته مجموعة الأحاديث، وكانت هذه المجموعة في أيدينا مثل القرآن، لم نعتبرها حجة شرعية بالقطع إلا إذا وافقت القرآن، بل لو كان معناها معارضا للقرآن حسب ما علمنا وفهمنا، لرجحنا القرآن ورجحنا المعنى الذي يراه عقلنا قرآنا على تلك المجموعة الثابتة للحديث».

وبعد هذه العقيدة ليست فائدة في البحث عن السند أو وقت تدوين الحديث أو ظرف حفظه، أو هو مبحث ثانوي يمكن إثارته كدليل ضمني، ولكنه لا يوضع في منزلة دليل مستقل لإنكار الحديث.

خلط المبحث:

وتهدف هذه الكلمات إلى أمر آخر أيضا، وهو القضاء على عادة خلط المبحث، ولذا نشرت مقالات في مجلة «الاعتصام» بعدة حلقات حول الظن في الحديث من النواحي المختلفة، وقد حاولت فيها اجتناب هذا الخلط وتجنيب أصدقائي منه حتى يتم الإفهام في أقصر وقت ويفهم بعضنا البعض أكثر فأكثر. وإني لم أتناول في هذه الحلقات الحديث من ناحية علم الرواية أو أوقات التدوين أو أصول الرواية أو الرجال، فان منزلة هذه النواحي ثانوية، وسوف أتكلم عنها في المجالس التالية وبتفصيل ان شاء اللّه، واللّه ولي التوفيق.

والكلمة التالية حول السيرة الكاملة للنبي ﷺ فالشخصية التي تكون سيرته حائزة للكمال الذي يذكره القرآن هل تكون أقواله حجة أم لا؟ وفي جانب آخر رجل من أهل القرآن يحاول حمل العالم على إنكار الحديث، مع أنه لا يعرف اللغة (العربية) ويجهل العلوم الإسلامية. فالرسول الذي سيرته كما ذكرنا لا يحق

له أن يعرض فهمه على الناس، ولا يجب على الناس أن يتبعوا أسوته الكاملة: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم: ٢٢].

الاعتراف بالحقيقة:

لا يحمل هذا المقال أهمية من حيث المناظرة، بل ملخص هذا الكلام الخصائص العلمية للنبي ﷺ، وكمالاته، وتذكار القرآن لإصابة فكره، وإبراز هداية اللّه تعالى وحفظه الذي شمل النبي ﷺ في مواقع شتى، والنواحي المختلفة لسيرة صاحب الوحي المقدسة التي اقتصر في إبرازها على القرآن الكريم وحده، وإظهار بصيرته ونظره العميق. ومثل هذه الخصائص لو توفرت في أحد في الشئون الدنيوية، لكان الثقة به في الدنيا واجبا خلقيا ومقتضى عقليا لازما. وفيما أعلم لا يختلف أمر الدين هنا عن الدنيا، فلو كانت هذه المحاسن موضع الاعتبار والثقة في الدنيا، فان النظر لا يصرف عنها في الدين أيضا. إن الثقة كيفية نفسية تنشأ من الخصائص المذكورة، وهذه الكيفية وأسبابها ومقتضياتها لا تحمل نتائج مختلفة في الدين والدنيا. ومع ذلك لو أصر أحد على حرمان النبي ﷺ والأنبياء الآخرين هذا الحق، فإني أعترف بأن هذا الكلام لا يحتوى على مادة تكرهه. وإني حاولت توضيح بعض النواحي لحياة النبي ﷺ بآيات عشر، ولو رضي طالب علم بالتفكر لوجد مئات الآيات حول هذا الموضوع تساعده في تعيين مكانة النبوة.

ما به الطمأنينة:

أقول بثقة وأمانة كاملتين: إنى فكرت في هذا الموضوع سنوات، وقرأت مئات الصفحات عن المناظرات التي جرت حوله، وسمعت كثيرا من أهل السنة، وتحدثت شفويا مع كبار أهل القرآن من المتطرفين والأمناء، وقد صرح هؤلاء الكبار بهذه العقيدة اللا دينية بأمانة، وكذلك اطلعت على كثير من مساعي منافقي اليوم الذين يتبعون المصلحة، و أنى أفهم ظاهر كلام دعوتهم، وأني حاولت

بأمانة فهم ما في ضميرهم بالقرائن والأحوال حسب المستطاع. ولم أجد في هذا المبحث شيئا يورث الطمأنينة والسكينة مثلما وجدت في هذا المنهج من سيرة الرسول ﷺ. إن سيرة الرسول ﷺ مفصلة ومبسوطة جدا، وفيها أيضا يجد الطالب مادة كثيرة للانشراح، ولكن ما يخفى من اللذة والطمأنينة في إجمال القرآن الكريم واختصاره لا يدركه إلا من حاول التفكير على هذه الطريقة. والشرط الأول للتفكير على هذه الطريقة أن يتطهر القلب والفكر تماما من الأدناس العادية المصطنعة، وتكون أصول الفطرة الخالدة القديمة أمام عيون الإنسان، فإن كان طالب علم مطلعا على آثارها النفسية بطبيعته، فان ذلك يحل المشكلة بسرعة كبيرة، وقد جربت أنا أن المناظرات العادية تقضى على هذه القوة الفطرية نفسها، ولذا يحرم المناظر دون شك هذه الناحية الإفادية إنه ينبغي أن يفكر على طريقته:

خلق اللّه للحروب رجالا ورجالا لقصعة وثريد

فكلّ خُلق لعمل يقوم به، ومسئولية يتحمّلها.

تحليل أسباب الرد والقبول

إن للثقة أهمية كبيرة في قبول الشيء ورده بجانب الأسباب الأخرى، وللسيرة البشرية يد كبيرة في الثقة، والتجربة تشهد بأنه ربما لا يتم الاعتماد على دراية أشخاص متعددين، ولكن يحصل يقين أكثر برجل واحد عرفنا عاداته، وهكذا لو ذهب رجل متصف بكثير من الصدق إلى بلد لا يعرف أهله شيئا عن صدقه ولا يعلمون شيئا من محاسنه، فإن روايته وشهادته لا تتمتع هناك بأهمية، ولكن لو علم الناس صفاته ومحاسنه، لم تحصل شبهة فيما يرويه لهم ويقصه عليهم، بل يقبل خبره كل من علم حاله. وقد أنشأ المحدثون علم الرجال على هذا الأصل العقلي والنفسي، حتى يحصل علم سير الرجال ويمكن الاعتماد على الرواية، وقد أشار القرآن الكريم على لسان النبي ﷺ إلى هذه الثقة في قوله: ﴿فَقَدْ

لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦] أي لو كنت متعودا على الكذب لكذبت عليكم قبل أربعين سنة من الآن.

سيرة الرسول ﷺ في القرآن:

سيرة الرسول ﷺ ليست خافية، ولكن أكثر ذخيرتها في الأحاديث، ويمكن أن لا يعتمد منكرو الحديث على هذه الذخيرة، ولذا ينبغي أن نبحث عن سيرته ﷺ في القرآن الكريم حتى يعرف دارسُ القرآن أن الرجل الذي اتضحت سيرته بهذه الصفة، هل تجدر أقواله وأفعاله وتقريره واجتهاده بالثقة؟ وإني لم أذكر هنا شيئا عن الرواية والرواة احترازا من خلط المبحث، لأن حجية الحديث مبحث منفصل عن مبحث طريق الرواية ورجال الحديث، فإن كان الراوي ضعيفا، فليس هناك اعتراض على كون روايته ذات اشتباه، وإن كان الراوي كاذبا، ردّت روايته، ولكن لا تأثير لهذه العوارض في حجية الحديث. وإني أتكلم على موضوع «الحديث من ناحية الرواية» في فرصة أخرى إن شاء اللّه. والأسلوب الذي حاول به عامة أهل القرآن إدخال مبحث السند والرجال في مسألة حجية الحديث، ليس مبنيا على الأمانة، بل مجرد خلط للبحث.

١- قال اللّه تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

جعل الرسول في هذه الآية يساوى سائر أهل الإيمان في الإيمان، فكما أنه يجب على عامة الناس الإيمان بوحي الرسول، فكذلك يجب على الرسول أيضا أن يؤمن بوحيه، وهكذا يجب الإيمان باللّه ورسله وملائكته وكتبه. وهذه الآية تشهد بأن الرسول ناجح في هذا الامتحان، ولذا تجب الثقة بأقوال الرسول كما يوثق بأقوال عامة المسلمين، ومنكرو الحديث يثقون بعامة المسلمين في الروايات المتواترة، ولكنهم يعترضون على منح الرسول هذا الحق!

٢- وقال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ

﴿ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥].

أمر النبي ﷺ في الآية المذكورة بالقراءة، وإنه ﷺ قد امتثل هذا الأمر، ثم قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣] وهذه الآية تذكر علم الرسول، وتلك تذكر قراءته، وكل من قرأ وعلم يوثق به، ووصف النبي ﷺ هذا قد ثبت بشهادة القرآن الكريم، ولذا تجب الثقة والاعتماد على أقواله ﷺ، ولكن نظرية إنكار الحديث تحرم الرسول هذه الثقة وهذا الاعتماد، وهذا ظلم.

٣- وقال تعالى: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ١-٤].

نُفِي عن النبي ﷺ الكهانة والجنون وغيرها من العادات القبيحة، وتم الثناء على أعماله ومناهج حياته، وقد امتازت هذه الأعمال بأن أجرها لا ينقطع أبدا، فهذه صدقة جارية تستمر بعد وفاة الرسول ﷺ أيضا، وهذه ميزة كبرى لحياة الرسول العلمية بأنه قد تم إعلان قبولها والأجر عليها بواسطة القرآن في هذه الدنيا، فمن تمت الثقة بطهارته وإخلاص عمله في هذه الدنيا، كيف لا يوثق بأقواله ؟ وسبب إنكار الحديث ليس إلا فقدان الثقة والاعتماد بذات الرسول ﷺ!

وما أعظم تكريما منحه اللّه تعالى رسوله ﷺ بقوله ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤]! وكما تشهد التجربة يترتب انعدام الثقة بأنواعها على سوء الخلق، ولكن تم نفى سوء الخلق هذا عن ذات النبي ﷺ علنا، ودُعِّم أساس الثقة. وقد تم توضيح هذه الحقيقة بصفة أتم في موضع آخر أيضا، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. فبعد هذا السمو الخلقي وبعد تلك السيرة الرفيعة العالية للرسول ﷺ التي اعترف بها القرآن الكريم بصراحة، لا يوجد سبب لإساءة الظن إلى أقوال النبي

ﷺ وأعماله.

٤- وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة: ٢].

وتثبت بهذه الآية الكريمة الأمور الآتية:

ألف- بعث النبي ﷺ في بيئة غير علمية لم ينتشر فيها التعليم.

ب- ومع ذلك كان النبي ﷺ يتلو آيات اللَّه تعالى.

ج - وبتأثير من تربية النبي ﷺ تجلت أفكار تلك الأمة الأمية غير المتحضرة، فتمتعت بسمو خلقي وطهارة روحية وجسمية. وفى جملة «يزكيهم ويعلمهم» وصف للنبي ﷺ والصحابة معا بالنجاح، وإعلان عن قوة الرسول ﷺ المؤثرة، وثناء على تلقى الصحابة وتأثرهم.

د- كان النبي ﷺ يعلمهم كتابَ اللَّه، فهو أميّ ومعلّم، ومن سيرة هذا الأمي ﷺ تعليم الحكمة أيضا، وبعد توفر هذه المحاسن لا تخفى على أهل النظر الأهمية التي تستحقها أقوال الرسول ﷺ، فإبداء الشبهة نحو الشخص الذي يثنى القرآن على تلاوته وتزكيته وتعليمه ينافي الإيمان: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

٥- وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٨، ١٢٩]

هاتان الآيتان من أواخر سورة التوبة، وسورة التوبة نزلت في شوال سنة ٩ هـ، وفيها بعض التفاصيل لما أجمل في سورة ن، وتوضيح لقوله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: ٤] وتصريح لكونه ﷺ رحمة للعالمين، وهذه الرحمة والرأفة ظهرتا بعد فتح مكة واستسلام الأعداء، ومع هذه القوة والعزة لم تنشأ في

أخلاقه ﷺ عاطفة الانتقام ولا الشدة ﷺ.

ومع هذا السلوك الحسن والسمو الخلقي إن لم تصل أقوال النبي إلى منزلة القبول، فلا نعلم أي آلة تخترعها مؤسسة «طلوع إسلام» للثقة والاعتماد؟

٦- وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

(١) إن علوم النبي ﷺ نزلت من عند اللَّه في صورة الكتاب والحكمة.

(٢) وتم تعليم ذلك كله للنبي ﷺ بعد عدم العلم.

(٣) إن ذلك مجرد فضل اللَّه تعالى، وليس فيه يد للنبي ﷺ. وإذا أنزل العلم والحكمة من عند اللَّه تعالى فهو متوليهما وعليه المسئولية فلماذا لا يكونان حجة، وكيف يميز علم النبي ﷺ من العلوم الإلهية؟ إن ذلك سند لا شبهة في رجاله، والقرآن الكريم نفسه يشهد بصحته وصدقه، والحرمان من قبول هذا الصدق حرمان عظيم.

٧- وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥١-٥٣]

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

إن الآية الأولى تذكر علوم النبي ﷺ وطرق تحصيلها. والآية الثانية تذكر أن اللَّه تعالى تولى بنفسه جميع أحواله وأموره ﷺ فقال له: كل ما تفعله وتقوله

فهو أمام عيني، وحيث إنه لا تخفى علينا ذرة في السماء والأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، فكيف يخفى علينا قول الرسول وفعله وأموره الأخرى؟

وفي قصة ابن أم مكتوم في سورة عبس إصلاح لطريقة عمل النبي ﷺ في إعراضه الخفيف بأسلوب حكيم، وبذلك يتضح مدى عناية حظيرة القدس بأحواله ﷺ. فلو لم تكن أقوال النبي ﷺ وأعماله بعد هذه المسئولية وهذا الاحتراس حجة، فقولوا: أي سند يكون للحجية؟ من كانت سيرته في هذه الطهارة وعلمه في هذا الحفظ، كيف تكون أقواله موضع شبهة؟

إن الوحي أطلق في الظاهر على النطق في قوله تعالى ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم٣- ٤] وذكر في الآية الرابعة أن اللّه تولى جميع أحوال النبي ﷺ، وبذلك يتضح حفظ جميع علوم النبي ﷺ.

٨- [واقعة أولى] وقال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ [عبس: ١-١٠]

في هذه الآيات نقد حكيم لعمل النبي ﷺ، فكلما حدث حادث بمقتضى البشرية وفيه مخالفة لمصالح الملأ الأعلى، جاء تنبيه الرسول حتى يكون استصواب الرسول ﷺ موافقا لإرادة الملأ الأعلى.

فمن الحوادث العادية أن كان النبي ﷺ يتحدث مع بعض رؤساء قريش، وكان ﷺ يتمنى بصميم قلبه أن ينجو هؤلاء من النار، إذ حاول عبد اللّه بن أم مكتوم مع صراحته المعتادة أن يستلفت انتباه النبي ﷺ إلى نفسه، وكان مقتضى آداب المجلس عدم الالتفات إلى ناحية أخرى دون انقطاع الحديث الأول، وعلى هذه القاعدة سار النبي ﷺ، ولم يكن في ذلك خطأ بالنظر إلى الآداب الإنسانية وأعراف المجلس، ولكن أدى التزام الأدب هذا إلى تجريح مشاعر رجل مخلص مثل عبد اللّه بن أم مكتوم، وقد كرهه من في السماء فقال: لا يصرف النظر على

رجاء الهداية عن الذين أنعم اللَّه عليهم وامتلأت قلوبهم خشية للَّه . فما أعظم هذا الاحتساب على تعامله اليومي! مع أن مثل هذه الوقائع تحدث يوميا في حياة الداعية، وهو يضطر دائما للحفاظ على آداب المجلس حتى لا تصير حياته غريبة وأعجوبة في المجتمع، ولكن النبي ﷺ لم يترك حرا في مثل هذا الموضوع أيضا.

[حادث سياسي]:

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال: ٦٧-٦٨].

ومعنى هذه الآية أن الرسول لو جاءه الأسرى ينبغي أن يقتلهم، ولا ينبغي أن يفكر هنا في مصلحة دنيوية، بل يطلب خير الآخرة في رضا اللَّه تعالى، ولولا كتاب من اللَّه سبق لتعرضتم للعقاب الشديد.

كان ذلك في غزوة بدر حيث وقع الأسرى في أيدي المسلمين، فالنبي ﷺ قضى بإطلاق سراحهم بعد المشاورة مع الصحابة وأخذ الفدية من الأسرى، وكانت أغلبية المجلس الاستشاري بجانب هذا القضاء النبوي، وكذلك أيده القانون الحربي للقرآن حيث جاء فيه ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤]. فالخياران ثابتان، ولكن مقتضى المصلحة الإلهية في أسرى بدر كان خلاف ما اختاره الرسول ﷺ والمسلمون، فلم يكن اللَّه تعالى يرضى بأن ينتفع أئمة الكفر بهذه الرخصة، ولذكره اللَّه تعالى قضاء المجلس هذا الجمهوري ولكن لم يردّه حتى يحتاط النبي ﷺ وأصحابه. ومثل هذا القضاء يقع يوميا في الشئون الحربية، والأمم المتحاربة تصدر عموماً مثل هذا القضاء باختيارها، ولكن القضاء المذكور صار مكروها مع أن النبي ﷺ أصدره على طريقة شورائية، وهذا يدل على أن النبي ﷺ وأصحابه لم يتركوا أحرارا مثل عامة الأمم

المتحاربة: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣].

واقعة ثالثة:

قال اللّه تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٨٠]

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [التوبة: ٨٤].

الدعاء لأحد بعد موته أو الذهاب إلى قبره من الأمور الاجتماعية العادية، وبناء على هذا التعامل أكرم النبي ﷺ بعض المنافقين، فنبهه اللّه تعالى بأن الفساق والعصاة لا يستحقون هذه المعاملة. إن الذهاب إلى جنازة أحد أو تقديم التعزية على الموت أمر عادي في الحياة المدنية، بل له منفعة في مجال الدعوة، ولكن منع النبي ﷺ - فداه أبي وأمي- من هذه المراعاة الخلقية أيضا مع المنافقين، وهذا يدل على أن تعامل النبي ﷺ اليومي أيضا كان تحت الحفظ والرعاية على مدى أوسع.

واقعة رابعة:

إن النظم والتنسيق روح الحياة العسكرية، ولكنه يتوقف على التحكم إلى حد كبير، والتدخل الخارجي في مثل هذه الأمور يعتبر معارضا للنظام. تخلف عن غزوة تبوك عدة أشخاص معظمهم من المنافقين، وكان هؤلاء المنافقون على يقين أن النبي ﷺ لا يرجع من هذه الغزوة سالما، لأن الصدام كان مع قوة عسكرية منظمة، وكان الاستعداد الحربي لجيش النبي ﷺ غير صالح للصدام مع تلك القوة في زعم هؤلاء المنافقين. ولكن النبي ﷺ رجع من هناك سالما، وبطلت تكهنات المنافقين، فبدأ المنافقون يتذرعون بالحيل والأعذار، ويحلفون

للنبي ﷺ حتى أكدوا عليه ﷺ أنهم كانوا حقا معذورين، وعلى ذلك قبل النبي ﷺ عذرهم وعفا عنهم، ولكن الله تعالى لم يرض بهذا العفو العاجل فقال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [التوبة: ٤٣].

هذه أربع وقائع تتعلق بنواحي الحياة المختلفة، وتتصل إلى حد كبير بالشئون الدنيوية، فإذا صدر فيها توجيه حاسم قطعي، فكيف لا تتوفر الرعاية التامة للشئون الدينية والتعبدية وتعامل النبي ﷺ اليومي؟ وبذلك يتضح أن أقوال النبي ﷺ وأفعاله حجة. وإن الحياة النزيهة التي ذكرها القرآن الكريم عن النبي ﷺ توضح مكانة أقواله ﷺ توضيحا تاما.

٩ - ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ﴾ [الفتح: ٢٩].

يتضح بذكر وصف الرسالة مع الاسم الذاتي أن مكانة النبي ﷺ بوصفه محمدا تختلف عن وصفه رسولا، فمن آثار مقتضى الرسالة أن أودع في أتباعه قوتان متضادتان على طريقة تمنع استعمال شيء في غير موضعه، بل كلما استعملت الشدة استعملت ضد منكري الحق وأعداء الصدق، وكلما ظهرت الرأفة والرحمة توجهت إلى أتباع الحق وأصحاب الأمانة. والكلية التي يكون طلابها من الحذر والحيطة بحيث لا يستعملون أي عاطفة في غير موضعها، ولا يهملون مقتضى الفطرة مهما كانت، فماذا تكون منزلة عميدها ومعلمها ؟

إن القرآن الكريم قارن بين الحالتين من رقة القلب ومن الغضب والشدة، فان تحقق الاعتدال في هذه الأحوال غير العادية، ولم يصدر الفكر حكما خاطئا، فلا حاجة إلى البحث والسؤال عن الأحوال العادية والمعتدلة. ثم إن المعلم الذي أحدث تعليمه هذا الاعتدال في غير الرسول وغير المعصوم من الناس، فحينما يتصف بوصف الرسالة وبوصف العصمة فكيف يتطرق إليه الانحراف وعدم

الاعتدال؟ ومثل هذا الإنسان المقدس لا تحسن مناقشة أقواله الدينية ومكانتها الشرعية. إن البحث في كل مكان عن السارق والتخوف دائما من السرقة ليس مقتضى الكرامة. ومَن يرفع نظرة الانتقاد إلى الشخصية التي نادى بقدسيتها التوراة والإنجيل في أرجاء العالم؟ وهذه الآية توضح جيدا مكانة الرسول ﷺ بوصفه رسولا، فلينظر المعترضون ما هو موقفهم؟ ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

١٠- وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢﴾ [محمد: ١. ٢].

من بداية سورة محمد ذكر اللّه تعالى النواحي المختلفة لحياة النبي ﷺ، وبعد أن أتى على ذكر الجهاد وأمر أسرى الحرب واحتيال المنافقين وهروبهم من الجهاد، قال تعالى: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ [محمد ٢٠-٢١] وقد اختتم السورة أيضا بمثل ذلك فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ۝٣٣﴾ [محمد: ٣٣] أي الانحراف عن إطاعة الرسول يبطل العمل مثلما يبطله عصيان اللّه تعالى وفي ذلك توضيح لموقف الرسول ﷺ أي توضيح!

١١- وقال تعالى﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝٩ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝١٠ رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الطلاق: ٨-١١].

في هذه الآيات جعل اللّه تعالى عصيان أحكام الرسول سببا لدمار كثير من القرى، وجعل أهميتها مساوية لأوامر اللّه تعالى. وجعل شدة الحساب والعذاب والوبال والخسران اللاحق من نتائج هذا العصيان، ونبه الأمناء والعقلاء من سكان العالم على أن ذكر اللّه تعالى نزل في صورة الرسول، ليخرج أهل الإيمان

من ظلمات الضلال إلى نور الإيمان.

وهكذا تشهد سورة الطلاق أن أقوال الرسول ﷺ تجب إطاعتها والعمل بها: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢].

★★★

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المقالة الرابعة

دراسة تاريخية لموضوع الدراية وفقه الراوي

يظن بعض الناس أن لقب (أهل الحديث) لا يعنى مدرسة فكرية، بل إنه يطلق على الطائفة المقدسة التي قامت بتدوين الحديث وحفظه وضبطه وكتابته، واشتغلت به من النواحي المختلفة.

وقد لمست أن هذا الخطأ بدأ يعم في الأوساط العلمية عن مذهب أهل الحديث ودعوتهم. ويبدو أن السبب في ذلك أن أئمة الحديث لم يضعوا أنفسهم قط في صورة (فرقة)، إنهم حافظوا على تشخصهم ونظرياتهم، ولكن لم يختاروا أسلوب التفرق والتحزب، بل راعوا الوحدة الإسلامية والتسامح وسعة النظر مع الاختلاف مع الفرق الأخرى، وحاولوا أن يتم نقد النظريات الخاطئة مع توثيق الصلة بالإسلام أو السنة، ولا يسمح لأحد أن يتفرد بالتعبير عن الإسلام ويملك جميع ما فيه بحيث يجب اتباعه ويحرم مخالفته.

وكان شعوري أن الأوساط العلمية تعتقد بأمانة أن أهل الحديث فرقة، مع أنهم لا يدعون إلا إلى الإسلام الخالص الصريح الساذج، ولكن اطلعت على بعض المؤلفات والرسائل التي ظهرت حديثا تستهدف جماعة أهل الحديث، وتوجه إليها النقد اللاذع المرّ، وكانت هذه الكتب من منشورات الحنفية الديوبنديين.

رؤيا الشيخ التهانوى:

ومثل ذلك رؤيا الشيخ أشرف على التهانوى التي اشتهرت في أوساط الديوبنديين، وهى أن الشيخ التهانوى أراد زمن طلبه للعلم الذهاب إلى درس الشيخ السيد نذير حسين الدهلوى فرأي في المنام أن السيد نذير حسين يمسك

بيده قدحا فيه مَصْل اللبن يسقيه الطلاب.

كان التعبير واضحا، وكانت الرؤيا ترمز إلى أن اشباع الغلة العلمية وعلاج العاطفة المحترقة التي تكمن في طبيعة الإنسان بصدد البحث والنظر لا يتيسر إلا في مدرسة السيد نذير حسين في دلهي، ودواء حرقة التقليد والجمود يوجد في اللبن الرائب عند السيد نذير حسين.

ولكن الشيخ التهانوى ظن بسبب ضغط البيئة وميوله الشخصية أن الرؤيا تشير إلى خلو المصل من الدسم ومن هنا حرم منافع دروس السيد نذير حسين رحمه اللّه، ولعله ظن أن مدرسة دهلى تخلو من الفقه والدراية، مثلما يظن العامة في أوساطه عن أئمة الحديث وأهله.

إن الشيخ التهانوى قد فكر في رؤياه في هذا الجو، والأصل أن الإنسان يكون أسيراً لبيئته، والتفكير فوق مستوى البيئة من وظائف أهل التجديد، ولا يصل إليه كل شخص.

والحاصل أن هؤلاء الناس يظنون عن علماء الحديث وعن فقهائه أنهم لا يعرفون التفقه في الدين. ومنشأ هذا الخطأ أن جماعة أهل الحديث قصرت دائما في نشر مذهبها، واختار دعاتها في خطبهم ومواعظهم سياسة التسامح والتصالح مع الكل.

ولا شك أن الإساءة في القول وبذاءة اللسان شيء قبيح، ولكن التساهل في توضيح الحقيقة بأسلوب ملائم والكلمات الطيبة يعد من عيوب البحث والتحقيق. إن القاديانيين ومنكري حجية السنة لا يستحيون من بيان أفكارهم وآرائهم، ولكننا نهرب دائما عن الحقيقة والواقع بحجة التصالح والتسامح. وقد وجد الآن أشخاص يخجلون من ذكر أهل الحديث، ومن هنا نشأت في العامة أخطاء في الفهم، وخلل في التفكير. فالمستحسن أن لا يستحيى من إظهار الحق وقول الصدق.

ومن الوهم أن يظن الشيخ التهانوى وعلماء مذهبه أن الشيخ نذير حسين وغيره من علماء الحديث لم يتصفوا بالتفقه والعمق، وكانت الظاهرية تغلب عليهم، والحق أن الشيخ نذيرا كان مضطلعا في الفقه الحنفي أكثر من كبار معاصريه الحنفية، أما الشيخ التهانوى فلم يكن إلا طالبا حينذاك. وقد شهد من علماء الحنفية الشيخ عبد الحي اللكنوى وغيره للشيخ نذير بالتفقه ودقة النظر وسعة العلم، وإنه قد صرح بذلك في فتاويه (ج١ ص ١٠٣).

كتب جارحة:

اطلعت على كتاب ألفه أحد علماء ديوبند، ولم أطلع على اسمه لأن الصفحات الأولى كانت قد نزعت منه، جاء فيه: أن أهل الحديث ليسوا أصحاب مدرسة فكرية، بل إنهم طائفة حفاظ الحديث اشتغلوا بحفظ المتون وضبط الأسانيد، ثم إنهم لا يتصفون بالتفقه والدراية. ثم إن المؤلف قد أخطأ في أنه فهم من الفقه الجزئيات التي توجد في المتون الشائعة وشروحها.

والمؤلف قد ذكر في الصفحات الأولى فقهاء الصحابة والتابعين، ولكنه لم يوضح معنى كونهم فقهاء، فإن الفقه الشائع اليوم لم يوجد حينذاك ولا وجد أئمة الاجتهاد وهذه المتون والشروح.

ويقول في موضع: (إن أهل الحديث في عصرنا يقولون إنهم فرقة، ولكنهم لو كانوا فرقة فلماذا لم يعرفهم أحد من عصر النبوة إلى عصر سلطة الانجليز ضمن فرق أهل السنة العديدة؟ بل إنهم يعتبرون سببا لظلم الإنجليز المسلمين والعلماء وللتفريق بين المسلمين. (ص ٣١).

ويقول في موضع آخر: (إن التعبير بأهل الحديث وأهل الكلام وأهل الأصول وأهل التفسير وأهل المعاني وأهل الأدب وأهل التاريخ كل ذلك مدارس فن وطبقات علم، وليست مذاهب ومسالك، والذي يشتغل بالتفسير يلقب بأنه من أهل التفسير، وهكذا بالنسبة للعلوم الأخرى، وعلى هذا فليس أهل الحديث

فرقة) (ص٤٣).

ويقول: (إن محدثي أهل الحديث لم يكونوا يعرفون معاني الكتاب والسنة، بل كانت وظيفتهم تنحصر في رواية علم الحديث، أما المعاني فكانت مقفلة، والفقهاء بينوا المعاني، وفتحوا الأقفال. (ص٣٢).

وكيف تعدّ هذه اللغة من لغات الثقات، وهذا الأسلوب من أساليب المثقفين؟

ويقول عالم آخر: (يراد بأهل الحديث الأفراد الذين امتلاؤا بعاطفة اتباع الحديث والعمل به واتصفوا بفهمه وحفظه. أما أن يراد بهذا اللقب ترك التقليد - كما يقول به غير المقلدين - فهو خطأ وباطل لا أساس له) (الطائفة المنصورة).

ويقول في موضع آخر: (وبما أن غير المقلدين يكرهون ويعاندون الفقه وأهله فإنهم لا يكونون مصداقا لحديث الطائفة المنصورة، الذي تظهر فيه كلمة التفقه في الدين مثل أشعة الشمس، بل يراد به الذين منحهم اللّه ملكة التفقه في الدين، وهم أئمة الدين ومقلدوهم) (أيضا: ص١٨).

ومن المعلوم أن قبول فقه شخص معين على وجه العموم شيء، والتنفر من الفقه شيء آخر، شتان بين الأمرين، والأمر الأول يوجد في أهل الحديث، ولكنهم بريئون من الثاني، فبعد القول بحجية الفقه لا يعقل التنفر من الفقه، ولأئمة الحديث مجلدات ضخام في فقه الحديث، فكيف يصح القول بأنهم ينفرون من الفقه؟ أما انتقاد بعض المسائل فإنه يوجد لدى مقلدي الفقهاء الأربعة في متون الفقه وشروحها، فهل يعني هذا النفرة؟

ولا يهمني هنا سوء الظن والمطاعن التي وجهها المؤلف إلى أهل الحديث، فله الحق، يقول ما يشاء، ويبدو من أسلوبه في الكتاب المذكور أنه مصاب بمرض ضغط الدم، ولذا صار كتابه كله مجمعا للسخط وتشتت الفكر.

والقصد من عرض هذه النماذج أن الذين يطعنون في أهل الحديث يعنون

بالتفقه في الدين الجزئيات الفقهية الشائعة ومدونات الفقه فقط، مع أن آية ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢] الخ قد نزلت قبل ذلك بكثير. أما التفقه في الدين الذي أثنى عليه في الكتاب والسنة فقد حظي المحدثون وعلماء أهل الحديث بنصيب وافر منه، ولكنهم لا يرون آراء الرجال هذه دينا، بل يستفيدون منها في ضوء الكتاب والسنة ويحاولون التفقه في الدين.

والمؤلف نفسه قد حاول التعرض من صاحب «تحفة الأحوذي» حينما ذكر كون الترمذي شافعيا، يقول: إن الترمذي شافعي مع مخالفته للإمام الشافعي، لأن المقلدين من أهل العلم لا يكونون مقلدين عميا، بل يعرفون صحة الأدلة وسقمها ويختبرونها، ويخالفون أئمتهم إذا كانت أدلتهم ضعيفة.

وأهل الحديث أيضا لا يريدون أكثر من ذلك، والواقع أن أدلة هذه المذاهب ربما تكون ضعيفة، وحينئذ يكون تركها أولى، وبعد الالتقاء على هذه النقطة يكون السخط على أهل الحديث بدون سبب وفى غير محله.

ثم يقول: (ومع ذلك يظلون مقلدين من ناحية الأصول).

وهنا صار النزاع لفظيا وانكشفت الحقيقة وتم الاعتراف بأن الأئمة أبا يوسف ومحمدا والطحاوي لم يكونوا يقلدون إمامهم في جميع المسائل، ولا نعنى بترك التقليد إلا ذلك، وليس ذنبنا إلا أننا نعتمد على الأدلة بدل الأشخاص.

والكتاب المذكور كله مملوء بمثل هذه التناقضات وتشتت الأفكار، ولست هنا بصدد الرد على المؤلف، بل القصد هو إزالة المغالطة التي نشأت بسبب تخصيص مفهوم الفقه عن أئمة الحديث.

أما كلمة الفقه فإنها تحمل، حيثما وردت في الآيات والأحاديث، على المعاني التي تناسبها في القرون الأولى، وحملها على الفقه الذي لم يوجد حينذاك نوع من الخداع. إن الاشتغال باستنباط الفروع وجد في كل عصر، ولكن أحدا لم يلتزم بفقه أحد في قرون الخير، فضلا عن كون ذلك واجبا أو فرضا،

يقول ابن القيم:

(فإنا نعلم بالضرورة أنه لم يكن في عصر الصحابة رجل واحد اتخذ رجلا منهم يقلده في جميع أقواله فلم يسقط منها شيئا، وأسقط أقوال غيره فلم يأخذ منها شيئا، ونعلم بالضرورة أن هذا لم يكن في التابعين، ولا تابعي التابعين، فليكذبنا المقلدون برجل واحد سلك سبيلهم الوخيمة في القرون الفضيلة على لسان رسول اللّه ﷺ)[1].

وابن القيم هذا هو الذي جعله صاحب «الطائفة المنصورة» مقلدا حنبليا.

وقد تكلم علماء الحق وأهل الحديث ضد هذه الفروع الفقهية حينما جعلت آراء الرجال والفروع الفقهية المتعارضة أغلالا وسلاسل، وأوجب الالتزام بمجتهد معين.

ولو وضعت اليوم هذه الفروع في مكانها، ونظر إليها على أنها آراء وإفادات للعلماء، ولم يوجب على أحد قبولها لانتهى الأمر وانحلت المشكلة، فان الخلاف لم يقم حول قبول هذه الفروع أو ردها، وكذلك لم يجترئ أحد حتى يقول بأنه يكره مذهبا معينا من المذاهب، بل كلنا نتساءل: من أوجب قبول الفروع الفقهية لمجتهد معين؟ وهل كان في قرون الخير أحد بعد رسول اللّه ﷺ بحيث وجب الإيمان بجميع فروعه الفقهية والعمل بها؟ والحق أن الأئمة المجتهدين قد نهوا عن ذلك، فقد روى أن الخليفة العباسي قال للإمام مالك انه يريد أن يجعل كتاب الموطأ قانون دولته، فأنكر الإمام مالك ذلك ولم يوافق على رأيه. فلو كان هناك أساس للتقليد والجمود لقبل الإمام مالك هذا الاقتراح ووافق على رأي الخليفة.

ولنفس المؤلف فقرة ساخنة تنم عن مستواهم العلمي والخلقي، يقول: (يا

(١) (إعلام الموقعين ج ١ ص ٢٢٢، طبعة هندية).

للعجب والحيرة! إن جماعة حديثة العهد جدا تنتقد المذاهب الأربعة فتجعلها بدعة ما بعد القرن الرابع الهجري، وتربط نفسها مع رسول اللّه ﷺ وصحابته، ولا تكشف عن سر مؤسسها، وماذا قال عنه علماء الهند، وبماذا أفتى علماء الحرمين، وبأي اسم تسمت أولا، ثم متى اختارت لقب أهل الحديث، فيا للأسف ويا للعجب من هذه الأمانة والعصبية ومن هذا التستر! ولتعلم هذه الجماعة أن هناك أشخاصا يردون عليها، فليست الساحة خالية كما تظن).

وإني لا أرى حاجة للرد على شيء مما ورد، فليقل من شاء ما شاء. أما تغير رأي النواب صديق حسن والشيخ محمد حسين، وماذا كان فيه دور أكابركم، وماذا فعل الحاج إمداد اللّه والشيخ خير الدين والشيخ رحمة اللّه الكيرانوى، وماذا فعل أكابركم في محاربة عام ١٨٥٧م. . . كل ذلك في ذمة التاريخ فلا تتصدوا له، غفر اللّه لنا ولهؤلاء الرجال.

وهناك أسئلة أود أن تفكروا في الرد عليها: أين كان أكابركم بعد عام ١٨٣١م، وفي أيدي من كانت حركة التحرير، ومن كان من رواد الحرية موضع سخط الانجليز وظلمهم في قضية أنباله، ومن كانت تزين الأغلال والسلاسل أعناقهم وأرجلهم في سجن لاهور؟ كل ذلك من حقائق التاريخ، ونسردها إذا سنحت الفرصة لذلك.

إنى تألمت بتهوركم (المؤلف المذكور) إن لم تعلموا هذه القصة فلماذا تتهورون؟ أرجو أن لا تحركوا هذا الجزء من التاريخ. أما الأسامي فأرجو أن تفكروا في أنكم كنتم أولا مسلمين، ثم صرتم أهل السنة، ثم صرتم حنفية، والآن تنتسبون إلى ديوبند، ولا نعلم ماذا تكونون غدا؟ عسى أن تكونوا أشرفيين بعد كونكم ما تريديين، أشعريين، جشتيين، قادريين!

العطايا الإلهية:

من المواهب التي أودعها اللّه تعالى في الإنسان وأكرمه بها العلم والعقل

والتفقه والصحة والقوة والتيقظ والتفهم والفراسة وقوة التكلم والذاكرة وما إلى ذلك، وكل إنسان متمتع بهذه النعم، ولم يحرمها أحد، ولكن لا توجد هذه الصفات في جميع أفراد البشرية على سبيل التساوي، بل تقاسمها كل من الأنبياء والعامة ومن الأغنياء والفقراء حسب الأهلية والاستعداد، وجميع الطبقات تمتعت بها، وقد أشارت الآية إلى هذه التفرقة والتفاوت في الدرجات فقالت:

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وأشارت آية أخرى إلى التفاوت في المكانة العلمية فقالت: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]

وهكذا الحال في النعم الأخرى. ولا يعقل أن يكون الإنسان فقيها أثناء دراسته للفقه الشائع، ثم إذا تحول إلى دراسة الحديث لذهب عنه هذا الفقه. وكثير من الحنفية يقضون جزءا يعتد به من أعمارهم في دراسة هذا الفقه ولكنهم يجهلون كثيرا من الأمور، إنهم ينظرون إلى المتون وشروحها الشائعة مثل الكتاب والسنة.

ويفرح هؤلاء المقلدون بضرب مثال الطبيب والصيدلي، وهو صواب إذا نظرنا إلى تفاوت الدرجات، ولكنه لا يعنى شيئا إذا نظرنا إلى تقسيم الطبقات، فان الفقه الشائع اليوم والمشتغلين به كلهم يبدون مثل الصيادلة.

وقد ذكر أحد علماء ديوبند صفات طالب مخطئ للحديث نقلا عن كتاب نقد العلم والعلماء لابن الجوزي، وتوجد هذه الصفات في كثير من الذين ينتمون إلى ديوبند. وكما قرأتم في الكتاب المذكور الباب الخاص بأهل الحديث فكذلك يستحسن أن تطلعوا على ما كتبه ابن الجوزي في نفس الكتاب عن حيل الفقهاء حتى تعرفوا أن الفرق ليس كبيرا بين الفريقين، وذلك أن الشيطان يحاول إضلال الجميع ولا ينجو من شروره أحد من أهل الحديث أو الفقهاء إلا من رحم اللّه.

ولو نظر الناس إلى هذه العطايا الإلهية نظرة تفقه وبحث لما احتيج إلى تسويد

هذه الصفحات الكثيرة، فإنه لا يستطيع أن يدّعى أحد منا أنه معصوم من وساوس الشيطان تماما، إلا من عصمه اللّه، وكذلك لا يقال عن فقيه إنه معصوم من الزلة من جميع النواحي.

ما هو الفقه ؟

الفقه لغة هو العلم والفطانة، وفي عرف الشرع اسم للفن الذي تذكر فيه جزئيات المسائل الفرعية، ويطلق الفقه على علم الدين أيضا: (الفقه بالكسر: العلم بالشيء والفهم له والفطنة، وغلب على علم الدين لشرفه). (القاموس المحيط: ص ١٦١٤ مادة الفقه).

(الفقه: فهم الشيء قال ابن فارس: وكل علم لشيء فهو فقه، والفقه على لسان حملة الشرع علم خاص، وفقه فقها من باب تعب: إذا علم. وفقه بالضم مثله، وقيل بالضم إذا صار الفقه له سجية)[1].

(الفقه هو التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد، فهو أخص من العلم، قال اللّه تعالى ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨] وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧] إلى غير ذلك من الآيات. والفقه العلم بأحكام الشريعة، يقال: فقه الرجل فقاهة: إذا صار فقيها)[2].

وورد مثل ذلك في أقرب الموارد (ج ٢ ص ٩٣٨) وفي مجمع البحار:

(فقه بالكسر: إذا فهم وعلم، وبالضم: إذا صار فقيها عالما، وجعله العرف خاصا بعلم الشريعة، وتخصيصا بعلم الفروع منها)[3].

ويطلق الفقه على العلم مطلقا، ويعبر به عن علم الفروع، وتقرر هذا لدى

---

(١) المصباح المنير، والمعجم الوسيط ٢ / ٦٩٨.

(٢) (المفردات للراغب الأصفهاني: ص ٦٤٢).

(٣) مجمع البحار: (ج ٤ ص ١٦٥ ط دائرة المعارف).

المتأخرين بعد تدوين الفقه الشائع، أما من ناحية اللغة فان الفقه لا ينحصر في فن معين، بل تعددت معاني هذه الكلمة وتنوع استعمالها، فكل علم يصدق عليه الفقه، وتتفاوت مراتب هذا التفقه فيما بينها.

المصطلح الشرعي:

أطلق لفظ الفقه في مصطلح الشرع على عدة مواضع، يقول هشام بن عبيد اللَّه: من لم يعرف اختلاف الفقهاء فليس بفقيه)[1].

ويقول قتادة: (من لم يعلم الاختلاف لم يشمّ الفقه بأنفه) (أيضا)

ويقول الحارث بن يعقوب: (إن الفقيه كل الفقيه من فقه في القرآن وعرف مكيدة الشيطان). (أيضا ص٤٧)

ويقول مجاهد: (الفقيه من خاف اللَّه). (أيضا ص ٤٩) وروى على عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه؟ قالوا: بلى، قال: من لم يقنط الناس من رحمة اللَّه، ولم يؤيسهم من روح اللَّه، ولم يؤمنهم من مكر اللَّه، ولا يدع القرآن رغبة عنه إلى ما سواه، ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفقه». (أيضا ص٤٤) [وهو ضعيف].

وقد فصل ابن عبد البر الكلام عن الفقه في كتابه جامع بيان العلم. (ج ٢ ص ٢٣ - ٤٩).

وقال رسول اللَّه ﷺ: «رب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه». يقول ابن عبد البر: فسمى الحديث فقها مطلقا وعلما. (أيضا ج ٢ ص ٢٧)

ويقول الإمام مالك: (ليس الفقه بكثرة المسائل ولكن الفقه يؤتيه اللَّه من يشاء

(١) جامع بيان العلم لابن عبد البر. (ج٢ ص٤٦).

من خلقه). (أيضا ٢ / ٤٥)

وكلام ابن عبد البر عن الفقه نافع جدا، فعلى العلماء أن يدرسوه بروية وتفكر، حتى يتضح معنى الفقه والعلم والحكمة والرأي، ولا يبعد أن تخرج جرثومة الإعجاب بالعلم من الذهن.

الفقه معرفة النفس ما لها وما عليها. (الفقه الأكبر ص ١٠)

وبعد انتشار علوم اليونان بدأ المتكلمون المناظرات، وكثرت التأويلات فعبر عن علم الكلام أيضا بالفقه. وكتاب الفقه الأكبر الذي ينسب للإمام أبى حنيفة قد ألف في ذلك العصر ولذا سمى بذلك الاسم.

فقه الاجتهاد:

حينما شاعت اجتهادات الأئمة المجتهدين قام أتباعهم بتخريج مزيد في الفروع في ضوء أصولهم، وانتقلت هذه الآثار من الأساتذة إلى التلاميذ بصورة طبيعية، وقد اشتهر مع الأئمة الأربعة فقه المجتهدين الآخرين واستمر العمل به، وكان أيضا يسمى بالفقه، وتلقاه التلاميذ من الأساتذة، وقد تحولت هذه العلاقة إلى الجمود بالتدريج فصار الفقه على نوعين: الأول فقه المجتهدين، وهو عبارة عن جهود الأئمة المجتهدين الذين كانوا يستنبطون أحكام المسائل الواقعة من الكتاب والسنة مباشرة بعد النظر فيها في ضوء الأدلة الشرعية، وهكذا كان يتم الوصول إلى حلول المشكلات الناجمة في المجتمع. ومن المعلوم أن الخلاف كان يقع بين الأئمة، وكان احتمال الخطأ قائما، وهكذا كان الأساتذة والتلاميذ يقبلون رأي أحد منهم بعد البحث والمناقشة، أو كان كل منهم يرى رأيا يخالف رأي الآخر، ومع ذلك كانت العلاقة بينهم تقوم على حسن الظن والمودة. وفقه الاجتهاد هذا لم يطل عمره كثيرا بعد أئمة الاجتهاد، بل سرعان ما طرأ عليه الجمود، وقد قدر شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم والشاه ولى اللّه هذه المدة فقالوا انه استمر إلى نهاية القرن الرابع الهجري، ثم جاء عصر الجمود،

وعد التحقيق عيبا، وأصيب الناس بالشعور بالنقص، وبدءوا يجهرون بقلة علمهم وقصور فهمهم مع الاعتزاز والافتخار، وهكذا انتهى الاستنباط من النصوص مباشرة على منهج أئمة الاجتهاد.

فقه التقليد :

والثاني: فقه التقليد، وذلك أن الاستنباط من الأدلة التفصيلية قد ترك بعد القرن الرابع تقريبا، وقبلت متون الفقه الشائعة كما هي، ولم يتعرض في الشروح للأدلة، بل اكتفى بما نقل عن الأئمة المتقدمين، وأهمل طريق الاستدلال والاستنباط، واقتصر على الفروع التي استنبطها المتقدمون، ووضعت هذه الفروع موضع الشرع، وتقرر أن التعرض للأدلة الأصلية من الكتاب والسنة والإجماع والقياس من وظائف المجتهد فقط، وأغلق باب الاجتهاد بعد القرن الرابع من الهجرة، يقول صاحب الرسالة الحميدية:

(لكن من عصر أربع مائة من الهجرة النبوية، على صاحبها أزكى صلاة وسلام، قال بعض العلماء الأعلام، كما ينقل من علماء الحنفية، إن باب الاجتهاد قد انسّد من ذلك التاريخ).

وهذه الرسالة قد ألفها عالم تركي كبير هو الشيخ حسين آفندى للسلطان عبد الحميد خان في عصر حكومته.

وكلامه هذا يدل على أن فقه الاجتهاد الذي هو وظيفة المجتهدين قد انتهى، وبقى التفقه ممكنا عند علماء الحديث، ولكن الحنفية أغلقت باب التفقه، والذين يحرمون أهل الحديث الفهم والتفقه، قد سدّوا على أنفسهم طرق فقه الاجتهاد منذ بداية القرن الرابع الهجري، وكل ما يوجد عندهم في هذا الباب هو من فقه التقليد، أي إنهم اقتنعوا بجهود من سبقوهم، ولكنها ليست قطعية يفتخر بها. وإن أمكن فيما يأتي فإننا سنبين أن الفقه الذي يدرس في مدارسكم سنوات عديدة فقه سطحي، ومعظم مسائله تنبنى على الظاهرية والحشوية، وهو مؤسس على

بعض قواعد المتقدمين.

والذين يسمون اليوم الفقهاء لا يتعدون الفروع المذكورة، والجزئيات التي وردت في كتب الفقه مثل الكنز والقدورى والهداية ومختصر الوقاية وشرح الوقاية وغيرها قد قبلت كما هي، ولم يسمح لأحد بالبحث عن صحتها وسقمها، وهذه هي الحرفية والظاهرية، فكما وقف ابن حزم وأصحابه من ظواهر الحديث كذلك وقف هؤلاء الفقهاء المتأخرون من ظواهر هذه المتون وشروحها، والذين رموا غيرهم بالحشوية والظاهرية قد اقتنعوا هم بآراء الرجال وفهم القدامى والمتأخرين. وقد ورد ذكر هذين القسمين للفقه في كتب الفقه بصراحة ووضوح:

(واعلم أن الفقيه عند الأصوليين هو المجتهد فقط لا غير، كما يشهد به تعاريفهم للفقه، وعند الفقهاء الحافظ للفروع، وأقلها ثلث). (القول المأمول في فن الأصول ص ٧).

وفى البحر الرائق:

(فالحاصل أن الفقيه في الأصول من علم الأحكام من دلائلها، فليس الفقيه إلا المجتهد عندهم، وإطلاقه على المقلد الحافظ للمسائل مجاز، وهو حقيقة في عرف الفقهاء بدليل انصراف الوقف والوصية للفقهاء إليهم). (البحر الرائق).

وبعد هذا التصريح تصدق الظاهرية والحشوية على أصحاب ديوبند وبريلى الذين يدرسون متون الفقه السائدة وشروحها ولا يختبرون صحة المسائل الاجتهادية بالأدلة، إنهم يؤمنون بهذه المتون وشروحها، ولا يحق لهم فهم الاستدلال بالأدلة التفصيلية إلى أن يتخلوا عن التقليد الشائع، فلينظر المؤلف المذكور وأصحابه فيمن حرم الفقه، أهل الحديث أو غيرهم؟ إن إغلاق باب الاجتهاد قد جاء من أهل التقليد، فكيف يمكن فتحه مع إيجاب التقليد؟

ويعرف صاحب مسلم الثبوت الفقه فيقول: (الفقه حكمة فرعية شرعية، فلا يقال على المقلد لتقصيره عن الطاقة). (ص٤ طبعة المجتبائي، دهلي عام ١٣٤٥ هـ).

والمصنف نفسه يقول في تعليقاته (المنهيات):

«اعلم أن الفقه في القديم كان متناولا لعلم الحقيقة، وهى علم الإلهيات، وعلم الطريقة، وهي مباحث المهلكات والمنجيات، وعلم الشريعة الطاهرة، ومن ثم عرفه أبو حنيفة بمعرفة النفس مالها وما عليها، وسمى كتابه في العقائد بالفقه الأكبر»، وقال اللَّه تعالى: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢] ثم لما تصدى قوم بالبحث عن العقائد وسموا العلم الكافل بذلك بالكلام اختص الفقه بالمطالب العلمية الشاملة للتصوف أيضا وهو علم الأخلاق، ومن ثم قال بعض المحققين في شرح المنهاج: إن تحريم الرياء والحسد من الفقه، وصار هذا عرفا، واستمر عليه زمان مديد، ثم حدث في زمان لاحق اختصاص الفقه بالأحكام الظاهرة، ومن ثم ترى كتب الفقه للمتأخرين خالية من علم الطريقة). (مسلم الثبوت ص ٤ في الهامش، طبعة المجتبائي بالهند).

فهذا المعنى للفقه اشتهر بعد مدة، وجعله المتأخرون مصطلحا، وانه اشتهر الآن بحيث إن إطلاقه على معاني قرون الخير المعروفة عند القدماء قد ترك في العرف العام، يقول الغزالي:

(اعلم أن منشأ التباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية تحريف الأسامي المحمودة وتبديلها ونقلها بالأغراض الفاسدة إلى معان غير ما أراده السلف الصالح والقرن الأول، وهى خمسة ألفاظ: الفقه والعلم والتوحيد والتذكير والحكمة. فهذه أسام محمودة، والمتصفون بها أرباب المناصب في الدين، ولكن نقلت الآن إلى معان مذمومة فصارت القلوب تنفر عن مذمة من يتصف بمعانيها لشيوع إطلاق هذه الأسامي عليها).

(اللفظ الأول الفقه) فقد تصرفوا فيه بالتخصيص لا بالنقل والتحويل، إذ خصوه بمعرفة الفروع الغريبة في الفتاوى والوقوف على دقائق عللها واستكثار الكلام فيها، فمن كان أشد تعمقا فيها وأكثر اشتغالا بها يقال هو الأفقه. ولقد كان اسم الفقه في العصر الأول مطلقا على علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس. إلى أن قال: ويدل عليه قوله تعالى: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٢] وما يحصل به الإنذار والتخويف هو هذا الفقه دون تفريعات الطلاق والعتاق واللعان والسلم والإجارة، فذلك لا يحصل به إنذار ولا تخويف، بل التجرد له على الدوام يقسى القلب وينزع الخشية الخ). (الإحياء: ج١ ص ٥٣ ط دار صادر، ٢٠٠٠ م)!

وهكذا أريد بالحكمة الفلسفة، وبالتوحيد نفى صفات اللّه تعالى، وبالعلم العلوم اليونانية أو علم الكلام، وبالتذكير القصص، وأهملت المعاني الأصلية.

وقد أورد كلام الغزالي هذا العلامة الكاتب الجلبى (ت١٠٦٧هـ) في كشف الظنون (ج٢ ص٩١) والعلامة النواب صديق حسن خان (ت ١٣٠٧ هـ) في أبجد العلوم ج٢ ص ٥٦٠) والعلامة محمد على البشاورى في القول المأمول في فن الأصول (ص٧) والعلامة طاش كبرى زاده في مفتاح السعادة (ج٢ص٦)، بعضهم بتفصيل وبعضهم بإيجاز، ولم ينتقدوا رأي الغزالي هذا، بل استحسنوه وذكروه بنظرة تحب الواقعية.

وأصحابنا (من الحنفية) حينما يرمون المحدثين وفقهاء الحديث وأتباعهم بجهل الدراية والفقه فهم يقصدون الفقه الفني المتعارف الذي تحول في مدارسهم إلى الصناعة والحرفة. أما الجزئيات الفقهية هذه فإنها لم توجد وقت نزول القرآن ولا وجدت دفاتر الفقه الموجودة اليوم، وكانت الحاجة تمس لاستنباط المسائل واستخراجها، ولكن لم يكن يسمى ذلك بالفقه، ولا كان يرى أحد اتباعه واجبا. ولا نعلم ماذا يحدث وأي عيب يلحق الشخص الذي يجهل هذا الفن؟ فان هناك

حرفا ووظائف وعلوما تجهلونها أنتم، فأي بأس أو محذور يقع إذا لم يعلم أحد أبواب الحيل هذه؟ ثم إن هناك تفاوتا في هذا الفن وفهم جزئياته الفقهية، فالبعض يتصفون بالظاهرية البالغة، والبعض الآخر يتعمقون قليلا. ومنذ أن ظهر حب التقليد الجامد وسيطر الولع به على أذهان العلماء ازدهرت الظاهرية والحشوية، وانعدم التحقيق ودقة النظر، فإن الاجتهاد قد صار شجرا ممنوعا للناس سوى مجتهدى الأمة بعد القرن الرابع.

وهكذا حال أئمة الحديث، فمنهم من بلغ في الفقه منزلة لم يستطع الوصول إليها مهرة الفقه الشائع اليوم، وهؤلاء الأئمة لم يتفوقوا في فقه الحديث فحسب، بل تعمقوا في الفقه الشائع أيضا، فهم ينتقدون المذاهب الفقهية الشائعة بدقة بالغة. وقد اشتهر الإمام البخاري والترمذي والبيهقى وابن خزيمة وابن أبى شيبة وغيره بدقة النظر عند أهل العلم، ولذا لا يختص أمر إقفال باب الاجتهاد بطبقة علمية، فانه قد وجد في كل طبقة تقريبا أصحاب السذاجة وأهل الظاهر، ومثل ذلك مثال الصيدلي والطبيب، فانه يوجد في المذاهب الفقهية الشائعة أيضا صيادلة كبار، وإليكم بعض التفاصيل:

١- إن مسألة طهارة الماء سطحية جدا، وتحديد العشر في العشر في مقدار الماء غير فقهي، والمصادر التي أخذ منها هذا المقدار تخلو أيضا من التفقه والدراية. وأي فقه يوجد في تحديد هذا المقدار بما ورد في بعض الآثار من إبعاد القذارة والقمامة عن وجه البئر بعشرة أذرع، وفي قياس الماء السائل على القمامة؟ إن استدلال الشوافع أحسن من هذا بكثير.

٢- ثم إن صرف النظر عن مقدار ماء البئر وبناء ذلك على بعض الآثار غير الموثوق بها ظاهرية واضحة. لو روعي تقدير العشر في العشر لماء البئر لبقى الإجمال بل الإهمال في المقدار أيضا، ولكن لم تخرج المسألة من المعقولية. (قاضى خان ج١ ص ٧، ابن عابدين ج١ ص١١٧).

٣- وأية دراية في التأكيد على ضرورة الدعوى لإثبات النسب من الأمة الموطوءة، ثم القول بثبوت النسب إذا تزوج شرقي امرأة في المغرب ولا يترجح يقين التلاقي بينهما (ابن عابدين ج ٤ ص٤٤٥).

ثم إن الاستدلال على ذلك بحديث (الولد للفراش) ظاهرية قبيحة تخضع لها ظاهرية ابن حزم أيضا.

٤ - كان ذكوان مولى عائشة رضي الله عنها يؤم وهو ينظر في القرآن، فقيل بكراهة ذلك بالعمل الكثير وبفساد الصلاة، ولكن النظر إلى فرج المرأة بشهوة لا يحدث خللا في الصلاة (قاضى خان ١ / ٦٥).

فأي تفقه في قبول هذه الفروع باعتقاد واحترام، وأي تفكير سليم يسمح برمي المحدثين بالصيدلة ؟

٥- ولا نستطيع إدراك التفقه في وطئ المحرمات الأبدية بعد العقد ثم درء الحد عنه لشبهة في المحل والاستدلال بحديث (ادرؤا الحدود بالشبهات) (قاضى خان ١ / ٣٢٤).

٦- وقد توسع الفقه الحنفي في منح الرخصة في الخمر، واجترأ في تنفيذ أحكام أنواعها المختلفة، وهذا يصدق حديث الرسول ﷺ (يسمونه بغير اسمه) ولكن لا يدل على نوع من التفقه في الدين. وكانت الحنفية ذوى سمعة طيبة في الحذر والتورع في الحلال والحرام، ولكنهم لم يوفقوا في الحفاظ على هذا التورع في أمر الخمر، فصار موقفهم من الخمر أمارة لعدم الحذر والاحتياط عند أهل العلم.

٧- والسذاجة تبلغ منتهاها في تحريم نكاح الحلالة مع القول بأن الزوجة تحل بذلك للزوج الأول، وليست هناك رواية أو دراية تؤيد ذلك، وتجويز مثل هذا النوع من الزنا المؤول لا يتأتى إلا بالتقليد.

ومثل ذلك مئات من الفروع في كتب الفقه الشائع، وهى كلها تصك وجه العقل والإدراك، والفكر لا يرضى بقبولها إلا بتقليد وتعصب.

وليس معنى ما ذكرنا أن جميع مسائل الفقه الحنفي سطحية ومبنية على عدم الحذر والتورع، بل إن هذا الفقه قد بلغ منتهى العمق والتفقه في بعض الأمور، ووقف موقفا كله حذر وتورع، ومن هنا يرى أهل البصيرة والتحقيق من العلماء عدم الالتزام الكلي بمذهب من هذه المذاهب السائدة، بل ينبغي العمل بما قيل (خذ ما صفا، ودع ما كدر)، يقول ابن القيم:

(كما أن المكيين والكوفيين لا يجوز تقليدهم في مسألة المتعة والصرف والنبيذ، ولا يجوز تقليد بعض المدنيين في مسألة الحشوش وإتيان النساء في أدبارهن، بل عند فقهاء المحدثين أن من شرب النبيذ المختلف فيه حد). (إعلام الموقعين: ٣/ ٢٩٩ ت محمد محي الدين عبد الحميد، ط ١٣٧٤ هـ).

والظاهر أن جميع المذاهب قد سلكت مسلك التحقيق والحذر في بعض المسائل، ولكنها نفسها قد أخفقت في البعض الآخر. ومن هنا يجب النظر في مثل هذه المسائل في هذه المذاهب الفقهية قبل الطعن في أئمة الحديث حتى تزول الشكوى. وقد ألف بعض علماء أهل الحديث مؤلفاتهم على منهج الفقه السائد، مثل النواب وحيد الزمان، والنواب صديق حسن خان، فوقعوا فيما وقع فيه من سبقهم من الفقهاء، ومن هنا لم تحظ آراؤهم بقبول لدى العلماء في تلك المسائل.

ووقوع الخطأ في هذا الطريق أمر لا بد منه. أما الفهم والذكاء فيوجد فيهما تفاوت المراتب في جميع الطبقات، وإغلاق باب الاجتهاد من الأمور التي لا يمكن أن تطبق على جميع طبقات العلماء بصفة شاملة، فالأنسب أن يعمل التفكير والتدبر جيدا في الظروف والملابسات قبل الطعن في شخص أو طبقة. والعلم بالفقه الفني الذي يفتخر به البعض كثيرا ليس له ميزة خاصة، ولا يعدّ جهله

وحرمانه عيبا كبيرا. وكما أننا نجد في علماء الفقه الفني حشويا وظاهريا ودقيق النظر، فكذلك الحال في أئمة الحديث، وليس ما ذكرتم قانونا حتى تقوموا بتكريره مرة بعد أخرى. ويبدو من مؤلفاتكم (الحنفية) الحديثة أن الأغلبية منكم من الظاهريين والحشويين، إلا إن ظاهريتكم محصورة في شروح الفقه ومتونه، وظاهرية الإمام داود وابن حزم محصورة في الكتاب والسنة.

الدراية:

إن هناك فرقا في معنى كلمة (الدراية) اللغوي والعرف والاصطلاحي، وقد وردت لها عدة مصادر في اللغة، يقال: دراه، درى به، يدرى دريا ودراية ودريانا ودريا ودراية، وهى الأكثر في الاستعمال، يائي، علمه أو توصل إلى علمه بضرب من الحيلة. (المعجم الوسيط ١ / ٢٨٢).

وقال أخيرا: وعلم الدراية علم الفقه وأصول الفقه.

وقد ورد في كتب اللغة مثل المنجد والقاموس المحيط ٣ / ٥١٣ (العلم بالشيء، والفهم له. وغلب على علم الدين لشرفه). والمصباح المنير وغيره أن معناه: العلم أو علم شيء بعناية خاصة. وعلم الفقه أو أصول الفقه منهج خاص للتدبر والتفكر في العلوم الدينية، ويقرب منه معناه العرفي.

يقول الحاج خليفة: (العلم بدراية الحديث هو علم باحث عن المعنى المفهوم من ألفاظ الحديث، وعن المراد منها مبنيا على قواعد العربية وضوابط الشريعة، ومطابقا لأحوال النبي ﷺ) (كشف الظنون: ١ / ٤٢٢)

ويقول العلامة النواب صديق حسن خان: (وقال الشيخ شمس الدين الأكفانى السخاوي: دراية الحديث علم تعرف منه أنواع الرواية وأحكامها وشروط الرواية وأصناف المرويات واستخراج معانيها، ويحتاج إلى ما يحتاج إليه علم التفسير من اللغة والنحو والتصريف والمعاني والبيان والبديع

والأصول، وتحتاج إلى تاريخ النقلة) . (أبجد العلوم: ٢ / ٤٨٣).

ويقول العلامة أحمد بن مصطفى المعروف بطاش كبرى زاده (ت٩٦٢هـ) عن علم الدراية: (هو علم يبحث فيه عن المعنى المفهوم من ألفاظ الحديث، وعن المعنى المراد منها، مبتنيا على قواعد اللغة العربية وضوابط الشريعة، ومطابقا لأحوال النبي ﷺ). (مفتاح السعادة ٢ / ١١٣).

وبالتعريفات السابقة تتلخص المعلومات التالية عن فن الدراية:

١- ليست الدراية فنا مدونا، بل يتكون فكر وتنشأ ملكة بالمزاولة والمهارة في اللغة العربية وما يتعلق بها وفي أصول الفقه وأصول الحديث، ويساعد هذا التفكير أحيانا في حل بعض مشكلات معاني الحديث.

(٢) وعلم الدراية ينفع في مباحث الرواية والرجال أيضا، ولكنه يتعلق في الغالب بالمعاني، وأنه كذلك يساعد في حل بعض المباحث التاريخية، ويلقى ضوءا على مواليد الرجال ووفياتهم وعلى الاتصال والانقطاع والإرسال والإعضال وغير ذلك، مع أن هذه المباحث تتصل تلقائيا بمصطلح الحديث.

٣- ويمكن الاستفادة من نقلة التاريخ في مباحث النسخ مع أن أصله من أصول الفقه.

٤- يعلم طالب الحديث جيدا مدى الجهود التي بذلها أئمة الحديث حول الرواة والأسانيد وكيف أنهم فحصوا أحوالهم وبحثوا عن شئونهم.

وقد وصل إلينا التاريخ أيضا بمثل هذه الأسانيد، فقد التزم الطبري وابن كثير والمسعودي بالأسانيد في مؤلفاتهم في التاريخ، ولكن ذلك لم يبلغ مدى التزام المحدثين في الأحاديث ولم تبذل في التاريخ العناية التي بذلت في الحديث، وسبب ذلك أن الحديث حجة شرعية، والتاريخ ليس كذلك.

ومن أئمة الإسلام من هو محدّث فحسب، ومنهم من هو مؤرخ وأخباري،

ومنهم من مهر في الفنين وألف فيهما، ولكن ذوقه في فن يختلف عن ذوقه في آخر، فحينما يتناول الحديث ورواته بالبحث يختلف شأنه عن المنهج الاخبارى والأسلوب التاريخي. ولو عارضت المرويات الإخبارية الأحاديث لا يراه أئمة الحديث تعارضا، ولذا لا يذهبون مذهب التطبيق بل يرجحون الحديث، وهذا هو الأنسب.

ويبدو أن فن الدراية يهدف إلى تغليب الرواية الإخبارية على الأحاديث المروية بسبب القرائن التي تحصل بالدراية، ويظهر من تعريف الدراية أن هذا هو أهم فائدة هذا الفن.

ولكن ينبغي أن لا يكون العقل الشخصي أو التجربة الذاتية أساسا للقرائن، بل يجب أن يكون الأساس هو الرواية والوقائع، فان الاستحالة العقلية لا تصلح لتغليط قصة موثوق بها، ولو تم تغليط الروايات الصحيحة بمجرد الاحتمالات العقلية فان ذلك يعنى تكذيب الرواية والرواة جميعا. ولو كان أساس هذه القرائن على حديث آخر فيعوّل على الرواية وتكون القرائن مرجحة.

ويبدو أن حماة السنة شعروا بضرورة هذا الفن لأمور، فان الأئمة كانوا مختلفين في الرواية بالمعنى، ولكن الحقيقة أنها كانت عامة، ويعلم طالب الحديث أن الحديث الواحد يروى بألفاظ مختلفة، وقد ذكر القرآن الكريم نفسه أحوال الأنبياء السابقين في مواضع شتى بألفاظ مختلفة، وهذا يدخل في باب الرواية بالمعنى. فبعد تحقق خيار الرواية بالمعنى أحب أئمة الحديث أن يطمئنوا على أن لا يضطرب مغزى الحديث الأصلي بسبب الاختلاف في التعبير، ومن هنا أقاموا فن الدراية على أساس العلوم العربية.

فقهاء العراق:

وقد أصدر عقلاء العراق فتويين مست الحاجة بعدهما إلى الدراية أكثر. فقد نسب إلى الإمام أبى حنيفة تجويز القراءة بالفارسية، وقد نقل عنه في المطولات

الرجوع عنه والقول به معا، وانتصر للرأيين فريق من الأتباع. ومع أن أئمة الحديث وكذا غيرهم من الأئمة لم يقولوا بالرأي المذكور، ولكن المسألة لا تزال موضع الخلاف لدى أهل العلم، وبما أنها تؤيد الرواية بالمعنى مست الحاجة إلى النظر الدقيق في ضوء العلوم العربية ومتعلقاتها حتى لا يفوت الهدف الأصلي.

وقال علماء العراق بافتخار: إنهم يذهبون إلى حجية المراسيل، قال ابن عابدين في باب الوصية: لو وقف أحد على أهل الحديث شيئا شملت الوصية طالب العلم الحنفي، فإنهم يقولون بحجية المرسل أيضا. (رد المحتار ٣ / ٥٦٥).

وهذه الرغبة في الانضمام إلى أهل الحديث ميمونة، والاعتراف بتملك الوقف يسير، ولكن السؤال في الأصل هو عن إطلاق لفظ الحديث على المرسل بإطلاق، وقد فصل الإمام الشافعي الكلام على هذا في الرسالة وبيّن حقيقة هذا الإطلاق (ص٤٦٢). وقد يمكن أن يتمادى عالم فيدعى أن جماعته هي أهل الحديث في الحقيقة، فإنها تعترف بالأحاديث الموضوعة أيضا، ومهما يكن فان أئمة السنة كانوا مصيبين في خوفهم على السنة، ولذلك رأوا وضع الأصول والقواعد اتقاء من أضرار الفتاوى الخاطئة، حتى لا يقضى طغيان العلماء في رواية الأحاديث على الهدف الرئيس، ولا تنسب إلى الرسول ﷺ الموضوعات والمختلقات تحت ستار المراسيل والمقطوعات. وقد سميت هذه الفكرة الوقائية بعلم الدراية، واعتمد فيه كثيرا على اللغة والعلوم اللسانية، حتى يتقدم مفهوم الرواية إلى الأمام على طريقة سليمة، ولا تنسب إلى الرسول ﷺ مكتوبة خطأ وبدون تيقن مثل المراسيل.

فقه الراوي:

والأهداف التي شعر لأجلها بعض أهل العلم بضرورة الدراية هي نفس الأهداف التي اشترط لها فقهاء العراق فقه الراوي، حتى تؤدي النصوص معناها

سليما، ويساعد ذلك في الرواية بالمعنى، ويصل إلى المخاطب التعبير السليم لقول الرسول ﷺ. ومع أن هناك فرقا بين المعنى المصطلح لكلمة الدراية وكلمة الفقه، ولكن يمكن الاستفادة من هاتين الوسيلتين في تأدية المعنى، وهذا هو الواجب والصحيح في الواقع، ولكن أئمة الحديث وفقهاء المحدثين كانوا في غنى عن مثل هذه القيود، لأن ضبط الأسانيد وحفظ الألفاظ المختلفة في المتون وأداؤها كان يورث في طبائعهم ملكة يستطيعون بها فهم اللطائف الفنية بالذوق، وهكذا حال كل صاحب فن في فنه، فانه يفهم لطائف الفن بالذوق. ومن المعلوم أن مخترعي الفنون لم يدرسوا الفنون بالكتب، بل إن سلامة الذوق ساعدت في اختراع هذه الفنون. وقد كانت جميع الفنون من أصول الحديث وأصول الفقه والمعاني والبيان وغيرها تعتمد على الذوق السليم قبل عصر الجمع والتأليف.

ومن لم يكن الحديث صناعتهم لم يكونوا مثل المحدثين في الحفظ والضبط، فاستعانوا بهذه الفنون بدل الذوق، وتفكروا في الأحاديث النبوية ومعانيها بنية صادقة تماما، جزاهم اللّه أحسن الجزاء، وهكذا كان العلماء مستمرين في الخدمة العلمية دون أن يتسرب خلل في سبيل هذه الأصول والقواعد.

عصر الانحراف والفوضى:

حينما هاجمت علوم اليونان العلوم الإسلامية، وتعرف على الإسلام غير المسلمين من أهل العلم، وتعارضت معتقداتهم وأفكارهم مع العقائد والعلوم الإسلامية بدأ الانحراف والفوضى، فاستعملت المصطلحات خلاف ما وضعت له، وسمى تأويل صفات اللّه تفقها ودراية، وأعلنت الحرب ضد أئمة السنة، ورمى أتباع الحق بالحشوية والحرفية والظاهرية، وخلق ضدهم جو عدم الثقة بتسمية ما كانوا عليه من عدم التأويل والتعقيد (موقفا غير فقهي). والذين اخترع لهم فقهاء الإسلام هذه المصطلحات لم يرضوا بهذا الطغيان في التأويل وبهذه

الحيلة في تشويه العقائد.

وقد شكك فلاسفة الإسلام والمتكلمون في الإسلام وعقائده بأفكارهم الجديدة، وبدل أن تساعد الدراية والتفقه في تجنب الأخطاء التي قد تنشأ في الرواية بالمعنى تطرق الناس إلى التأويل والتحريف، فهذا هو الإمام السرخسي (ت٤٩٠ هـ) يوفق بين الحديثين المتعارضين عن زواج ميمونة رضي الله عنها فيرجّح حديث ابن عباس وفق مذهبه على حديث يزيد بن الأصم بدعوى أن ابن عباس أفقه من يزيد بن الأصم، ويقول:

(هذا الترجيح ليس إلا باعتبار تمام الضبط من الفقيه، وكان المعنى فيه أن نقل الخبر بالمعنى كان مشهورا فيهم، فمن لا يكون معرفا بالفقه ربما يقصر في أداء المعنى بلفظه بناء على فهمه، ويؤمن مثل ذلك من الفقيه. (أصول السرخسي: ١ / ٣٤٩).

وبصرف النظر عن تخطئة هذا التعليل أو تصويبه نود أن نوضّح أن شرط فقه الراوي كان قد جاء تجنبا من أضرار الرواية بالمعنى كما هو شأن الدراية، ولكن الناس تدرجوا به إلى تعطيل عشرات الأحاديث ورفضها، وجرحوا عشرات الرواة الثقات بل الصحابة بمصطلح التفقه والدراية وطعنوا فيهم، حتى إن البعض فضل الإمام أبا حنيفة على سلمان الفارسي (ابن عابدين ١ / ٥٧).

الفقه ونقد جمع الروايات:

لا شك أن شرط فقه الراوي قد اشتهر كثيرا في نقد الروايات لدى فقهاء الحنفية وأئمة الأصول، فالإمام السرخسي، وهو من كبار الحنفية، ينتقد ويرجح كثيرا بناء على فقه الراوي، وإنه إذ يرجح حديث ابن عباس على حديث يزيد بن الأصم في زواج ميمونة يقول في يزيد: (البوّال على عقبه).

ويرى علماء الرجال في يزيد أنه قد رأي النبي ﷺ. فإنه وإن لم يكن صحابيا

يعدّ في كبار التابعين، فكيف يستساغ فيه قول السرخسي ومن يستحسنه؟ وفيه يقول ابن سعد: ثقة كثير الحديث.

وشرط فقه الراوي هذا لم ينج من ضربته أكابر الصحابة مثل أنس بن مالك وأبي هريرة رضي الله عنهما. وكان أبو هريرة عرضة للطاعنين أكثر من غيره واتباعا لهؤلاء الطاعنين بدأ الروافض ومنكرو الحديث الطعن في الصحابة رضي الله عنهم.

والغريب أن هؤلاء لا يملكون مقياسا يقيسون به مقدار الفقه حتى يطمئنوا في نقل الرواية، ومن المعلوم أنه لم يكن أحد من الصحابة محروما من الفقه، فإذا لم يوجد مقياس عادل عاد مثل هذا الجرح سخرية وهزؤا. ونحن على يقين أن هؤلاء لا ينوون إساءة الأدب إلى الصحابة، ولكن إذا ردد الصغار والكبار من عيسى بن أبان والإمام السرخسي إلى البزدوي والملاجيون القول بأن أبا هريرة غير فقيه فما بقى لهذا الصحابي من الاحترام والتقدير؟ والأغلب أن مثل هذا التفكير جاء من قبل الروافض والمعتزلة. وقد احتل الأئمة الآخرون أيضا منزلة الفقه والاجتهاد، ولكن ما رأينا أحدا منهم اجترأ على الطعن في الصحابة بهذه الصفة، وليس ذلك إلا من آفات التقليد الجامد.

أثر فقه الراوي:

إن المتقدمين اشترطوا فقه الراوي اتقاء من أخطار الرواية بالمعنى، مع أن الرواية بالمعنى كانت عامة في الصحابة، ولكن الكلمات مهما كانت قد حفظت بعد التدوين، والآن يمكن أن يحتاج إلى الرواية بالمعنى في الخطب والمواعظ فقط، أما غير ذلك من التدريس والتدوين فلا حاجة فيه إلى الرواية بالمعنى، ومع ذلك أساء فيها التصرف المتأخرون من فقهاء الحنفية الذين تأثروا بالاعتزال، فقد سموا النظريات اليونانية بالفقه، وحسبوا تعنت المتكلمين من الفقه وعبروا عن ضلال الاعتزال بالهداية، والمحنة التي نزلت بأئمة السنة منذ عصر المأمون إلى عصر المتوكل نتجت عن هذا النوع من الفقه، وكان هذا الفقه قد بدأ قبل عصر

الأئمة الأربعة رحمهم اللّه، ولقي عند الحنفية قبولا أكثر، ومن مواليد هذا الفقه بشر المريسي (٢١٨هـ) والقاضي عيسى بن أبان (٢٢١هـ)، والقاضي بشر بن وليد الكندي (٢٣٨ هـ) وبشر المريسي هو الذي ناظر في بلاط المأمون مع الشيخ عبد العزيز الكناني في موضوع خلق القرآن. وقد ذكر عنه الإمام أحمد في كتاب السنة أمورا غريبة:

(أخبرت عن يحي بن أيوب قال كنت أسمع الناس يتكلمون في المَرِيْسي (مَرِيس: قرية بمصر) فكرهت أن أقدم عليه حتى أسمع كلامه لأقول فيه بعلم، فأتيته فإذا هو يكثر الصلاة على عيسى بن مريم صلوات اللّه عليه، فقلت له: انك تكثر الصلاة على عيسى فأهل ذلك هو، ولا أراك تصلى على نبينا ونبينا أفضل منه، فقال لي: ذلك كان مشغولا بالمرآة والمشط والنساء). (كتاب السنة لابن حنبل ١ / ١٧٠ ت القحطاني).

وقد بين زندقة بشر في الفوائد البهية (ص ٤٤ ط ندوة المعارف، بنارس، ١٩٦٧ م، والجواهر المضيئة (١ / ١٦٤)، وميزان الاعتدال (١ / ٣٢٢ ت علي محمد البجاوي):

(بشر بن غياث المريسى مبتدع ضال، لا ينبغى أن يروى عنه، تفقه على أبى يوسف فبرع وأتقن علم الكلام، ثم جرّد القول بخلق القرآن. وقال قتيبة بن سعيد: بشر المريسى كافر).

والقاضي بشر بن وليد الكندى ولى القضاء من قبل الخليفة المعتصم باللّه، وقد توقف في مسألة خلق القرآن في آخر العمر. (ميزان الاعتدال: ١ / ٣٢٦).

مع أن كبار أهل السنة كانوا في السجون حينذاك.

وقد شهر القاضي عيسى بن أبان بموضوع فقه الراوي، وقد استغل كثيرا هذا الشرط للترجيح بين الأحاديث. والأصل الذي تم وضعه للابتعاد من أضرار الرواية بالمعنى تحول بنفسه إلى خطر دائم، وقد قضى أهل الاعتزال من الفقهاء

بذلك على كثير من محبي الرسول ﷺ ومروياتهم.

وهؤلاء قد وقع بصرهم على حديث المصراة الذي رواه أبو هريرة، ولكنهم لم يطعنوا في فقه عبد اللَّه بن عمر الذي كان يبحث عن آثار الرسول ﷺ في جبال الحجاز، وكان يتتبع مع مواضع صلاته ﷺ مواضع تبوله أيضا، مع أنها لم تكن مواقع العبادة ولا العادة، بل مجرد اتفاق وصدفة، أما أبو هريرة (المسكين) فقد كان كل طالب أصول الفقه يردد كونه غير فقيه بسبب حديث المصراة، وليس ذلك إلا من آفات التقليد والجمود.

شرط فقه الراوي وأكابر الحنفية:

ويذكر الناس شرط فقه الراوي في مدارسنا كأنهم يفسرون آية أو يشرحون حديثا متواترا، مع أن المتقدمين من الحنفية لم يروا له حقيقة، ولم يعطوه وزنا في نقد الرواية أو ترجيحها. وقد ذكر البزدوي في أصوله فقه الراوي، ومثل له بأبي هريرة وأنس بن مالك رضي الله عنهما، ثم ذكر فائدة هذا الشرط فقال:

(ووجه ذلك أن ضبط حديث النبي ﷺ عظيم الخطر، وقد كان النقل بالمعنى مستفيضا فيهم، فإذا قصر فقه الراوي عن درك معاني حديث النبي ﷺ وإحاطتها لم يؤمن أن يذهب عليه شيء من معانيه). (أصول البزدوي ص ٦٩٩).

ثم يقول: ليس المراد من وصف الصحابة بعدم الفقه تحقيرهم، بل كان الإمام أبو حنيفة ربما يقبل حديث الصحابي غير الفقيه مع بعض الشروط، فان محمدا يحكى عن أبى حنيفة في غير موضع أنه احتج بمذهب أنس بن مالك وقلّده، فما ظنك في أبي هريرة (أيضا ٧٠٠).

والعجب أن التمثيل لعدم التفقه ينحصر في الاثنين أو الثلاثة من الصحابة، فهل كان الباقون البالغ عددهم نحو مائة ألف كلهم فقهاء؟ يقول الشيخ عبد العزيز بن أحمد البخاري (ت ٧٣٠هـ) شارح أصول البزدوي:

(اعلم أن ما ذكرنا من اشتراط فقه الراوي لتقديم خبره على القياس هو مذهب عيسى بن أبان، واختاره القاضي الإمام أبو زيد، وخرّج عليه حديث المصراة وخبر العرايا، وتابعه أكثر المتأخرين. فأما عند الشيخ أبى الحسن الكرخى ومن تابعه من أصحابنا فليس فقه الراوي بشرط لتقديم خبره على القياس، بل يقبل خبر كل عدل ضابط إذا لم يكن مخالفا للكتاب والسنة المشهورة ويقدم على القياس. قال أبو اليسر: وعليه أكثر العلماء، لأن التغيير من الراوي بعد ثبوت عدالته وضبطه موهوم). (٢ / ٧٠٣).

ويروى عن الإمام أبى يوسف أنه يرى حديث المصراة صحيحا. وقد أبدى نفس هذه الآراء شارح الحسامي في غاية التحقيق (ص١٦٥- ١٦٦).

وقد أورد صاحب «دراسات اللبيب» في هذا المقام بحثا قيما لطيفا موجزا، يقول:

(فقه الراوي لا أثر له في باب التحمل والصدق في القول، والنقل بالمعنى مشترط في الصحابة بالاستقراء بما لا يفوت منه معنى اللفظ المتروك).

(فكيف بالصحابة، فقد علم شدة اعتنائهم في حفظ اللفظ، وشكهم وترددهم ولو في أدنى تفاوت).

(وهم أهل اللسان لا يحتاجون في ذلك إلى الفقه. ومن أعظم الظنون القبيحة ظن ذلك إلى أبى هريرة، حتى بذلك الظن ترك حديث المصراة المتفق عليه الشيخان مع أنه في الفقه على ما ثبت رجوع العبادلة إليه، وفى حفظ اللفظ وعدم النسيان آية، قلما يوجد في الصحابة مثله لما صح من تخصصه بدعاء النبي ﷺ بالحفظ لحديثه، حتى أخبر وقال: فما نسيت بعد ذلك شيئا سمعته).

فلو كان هذا الحفظ بدون فهم أو يحتمل الخطأ في الفهم فما فائدة دعاء النبي ﷺ له بالحفظ؟

(ولا يظن أيضا إلى من له أهلية الانسلاك في سلاسل رجال الصحيحين من الطبقات السافلة أيضا أن يعوض بلفظ يخل بمراد النبي ﷺ، ولا يكون له من علم اللسان ما يقيه من ذلك).

(ولهذا قال شيخ الحنفية صاحب الكشف والتحقيق في التحقيق: ولم ينقل عن أحد من السلف اشتراط الفقه من الراوى، فثبت أنه قول مستحدث، ولنا وريقات مفردة في رد هذا القول، وإن ترك حديث المصراة بمثل هذا لا ينسب إلى أبى حنيفة رحمه اللّه) (دراسات اللبيب ص ٣١٥ - ٣١٦).

والحقيقة أن فقه الراوي لا تأثير له في صحة الحديث، بل يحتاج لذلك إلى الصدق والمروءة بعد الحفظ والضبط، وفقه الراوي يتعلق بالمعنى، فلو روى متن حديث بألفاظ مختلفة لأمكن أن نرجح بعض الألفاظ بناء على فقه الراوي، ولكن لا يمكن اختراع متن على أساس فقه الراوي، ولا يرفض متن صحيح، نعم يفيد هذا الشرط في شرح المعاني، ولكنه ليس بحيث يبرر إقرار حديث أو إنكاره. ومكانة الصحابة رضي الله عنهم أرفع بكثير من أن يتكلم على معرفتهم باللغة الأعاجم مثل القاضي عيسى بن أبان والسرخسي والدبوسي.

ثم إن مراتب الفقه متفاوتة، فهو مثل الكلى المشكك، فلا يكون في موضع معيارا للرد والقبول، إلى أن يحدد له مقدار ومقياس. ونصب مثل هذا الشيء غير المحدد والموقت معيارا هو نفسه مخالف للدراية. ثم إن الحنفية قد قبلوا حديث أبي هريرة في الآكل ناسيا في نهار رمضان مع أنه أيضا يخالف القياس.

والدراية التي ذكرناها قديمة وضعها العلماء أولا للأهداف الطيبة، ولكن اتضح بالنقاط السابقة التي ذكرناها بإيجاز أن الناس قد استغلوا هذه الدراية لأهداف خاطئة. ويحسن بنا الآن أن ننظر إلى دراية حديثة أيضا قد اخترعها الطبيعيون في بلادنا. وقد سبق أن أيدها بعض العلماء تعمدا أو سذاجة، والآن تستغل لأهداف إلحادية تماما.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الدراية الجديدة :

إن الدراية أو الفقه الذي ذكرنا فيما سبق كان إنتاج العصر العلمى، وبصرف النظر عن أهل البدع قد احتاط وتورع أهل العلم في استعماله، ولم يجعلوه معيارا، وما ينسب في ذلك إلى الإمام أبي حنيفة موضع نظر، ويبدو أن نسبته إلى الإمام لم تصح.

والآن ظهرت دراية جديدة، ومن خلفيتها أن العلامة شبلي النعمانى(رحمه اللّه) كان موضوع اختصاصه التاريخ، لكنه قد تحمس في بداية العمر في تأييد الحنفية، وقد ألف كتابه «سيرة النعمان» في هذه المرحلة من العمر، وإنه في تلك الأيام كان على صلة بجامعة على كره التي أنشأها السيد أحمد خان.

وكانت الحكومة المغولية في هذا العصر تلفظ أنفاسها الأخيرة، وقد قضى عليها إلى الأبد بعد ثورة عام ١٨٥٧م. والوحشية التي التجأ إليها الانجليز للقضاء على هذه الثورة، وسياسة العنف والإرهاب التي مشوا عليها في إعدام عامة الشعب والعلماء والسياسيين والشعراء والأدباء والتجار لا يوجد نظيرها في أظلم عصور التاريخ. وعواطف الخوف والرهبة والكراهة والحقد التي عمت في البلاد حينذاك ضد الانجليز كانت بحيث لا تذهب من القلوب على مدى قرون.

وللقضاء على هذا الاتجاه المعادى لم يسلك الانجليز طريقا سليما، بل إنهم التجأوا لذلك إلى تدعيم اتجاهات التفريق والفوضى والعنصرية واستمرت عاطفة الانتقام هذه من قضية أنباله إلى قضية مؤامرة قاضى كوت، وأغلبية علماء أهل الحديث تعرضت لهذه المظالم.

وبعد عام ١٨٥٧م جاء المبشرون النصارى مدعمين بالدول الغربية للمصالح السياسية، وبالشعب النصراني للناحية الدينية، فبدؤا يهاجمون الإسلام بشراسة وخبث على نطاق أوسع. وفي الجانب الآخر نزلت إلى الساحة حركة آرية سماج

بنفس الوسائل والأسلحة. وفي الجانب الثالث نصبت النبوة القاديانية في جميع أقطار الهند أشراكها المماثلة للأرض بعلم كلامه الخاص. ثم إن الفرق الدينية من السنة والشيعة والبريلوية قد تخاصمت فيما بينها على أساس الحرية الدينية المزعومة، فتحولت البلاد كلها إلى ساحة الجدل والقتال، ونشط الأدب الجدلي بالصحف والرسائل وكثرت المناظرات، حتى ظن الناس أن هناك معركة تدور بين الفرق. وهكذا نجحت سياسة الانجليز، فنسى الناس مظالم ثورة عام ١٨٥٧م وتلاشى من الأذهان الاتحاد الموقت الذي تحقق بسبب اضطرابات ١٨٥٧م. وقد أدى علماء الحق وأهل التوحيد في هذه الظروف واجبهم في ضوء ما ظهر من الكتاب والسنة، وبينوا الحقيقة بكتاباتهم وخطبهم، وفي الوقت نفسه كانت الحرب السياسية قائمة ضد الانجليز من منطقة بنغال إلى بيشاور وبالاكوت، وقد أقلقت هذه الحرب الانجليز في الثغور الشمالية طيلة قرن كامل.

السيد أحمد خان ورفقاؤه:

كان السير السيد أحمد خان وعديد من رفقائه موالين للانجليز من الناحية السياسية، ومعارضين من الناحية الدينية. وقد كتب هؤلاء ألوفا من الصفحات ضد المبشرين والآرية سماجيين وغيرهم من الطوائف غير المسلمة، ولا يعلم النية، ولكن يبدو أن هؤلاء قد خافوا من هجمات غير المسلمين هذه، فاختاروا سبيل التأويل ورفض الحقائق، بدل أن يعتصموا بظواهر الكتاب والسنة، وكانت المؤلفات القاديانية أيضا على نفس المنهج والأسلوب.

طبيعية السيد أحمد ودراية شبلي:

قد جعل هؤلاء العقل حكما بصفة أساسية، فكانوا ينكرون كل ما يكون فوق عقولهم، ثم يقولون بجدية بالغة (إنّ ذلك معارض للطبيعة والفطرة).

وكانت هذه الطبيعة والفطرة تشبه الدراية وفقه الراوي من ناحية العموم والشمول، فلم يكن هناك مقياس للفقه والدراية، ولا أصل وتقدير للطبيعة

والفطرة، بل كانت مثل عصا الأعمى تنصب على من تنصب. وقد استخدمها السيد أحمد ورفقاؤه على القرآن الكريم وعلى السنة المطهرة، فكانوا يؤولون القرآن حسب الأهواء إذا لم يستطيعوا فهمه، وينكرون من السنة ما شاؤا. وكان معيار الطبيعة كل شخص وفرد، ولكن كان هذا الاسم غير علمي وغير معروف في الأوساط الدينية، فمن الممكن أن المتأثرين بأوربا أعجبوا به، ولكن الأوساط الدينية لم تقبله البتة، ومن هنا ظهرت موجات من الرد والرفض، وكان أحمد محنكا مجربا فلم يغضب لهذا الرفض، بل استمر على موقفه يقول ما أراد ويصغى لغيره أيضا.

أما الشيخ العلامة شبلي فكان من أعلام عصره، وكانت دراسته للتاريخ أعمق وأحسن من كثير من أقرانه، وانه كان يشعر في المذهب الحنفي بالفراغ الذي نشأ بسبب قلة الحديث وكثرة الآراء، والذي قد عرفته الأوساط الدينية كلها، وكان ذلك بينا بالنظر إلى خدمات الأئمة الآخرين للحديث، فقد تأخر مجئ الحنفية في هذا المجال، وسبقهم في ذلك الأئمة الآخرون وأتباعهم وأئمة الحديث، وجل اعتماد الحنفية كان على التقليد والجمود، فقد عبروا عن هذه الآراء الشخصية بكلمة (الدراية)لم يجعلوها بديلا للحديث فحسب، بل استخدموها كآلة لإنكار الحديث وتأويله. وكانت هذه الكلمة مألوفة في الأوساط العلمية، ومصطلحا قديما أيضا، فكانت خيرا من (طبيعة وفطرة) السيد أحمد خان. نعم قد تصرف الشيخ شبلي في تعريفها قليلا، فصار عونا للسيد أحمد، وصار عذرا لقلة الحديث وحب الآراء. يقول الشيخ شبلي في تعريف الدراية:

(المراد بالدراية أنه كلما يحكى حادث ينظر إلى أنه كيف صلته مع مقتضى الطبع وخصائص العصر وأحوال من يتعلق به والقرائن العقلية الأخرى).

(١) ومما يجب النظر في هذا التعريف أنه لا يتضمن القيود التي تساعد في تصحيح المعنى، أي إنه لم يذكر المهارة في العربية.

(٢) وتعميم كلمة (حادث) لا يدل على أنه يريد حوادث الأحاديث أو الحوادث الدنيوية العامة، والظاهر من أسلوبه أنه يريد تحقيق الحوادث التاريخية التي تصل إلينا بدون إسناد، ونضطر إلى الخرص والتخمين في معرفة صحتها.

(٣) ثم إن كلمة (مقتضى الطبع) حيلة لا معنى لها، فإن الاختلاف في مقتضى الطبائع مثل الاختلاف في الطبائع واسع جدا، والاقتضاء يتبع الطبائع، فكيف يكون ميزانا ومعيارا للنقد؟ فمقتضى الطبائع الإلحادية يكون مختلفا مع مقتضى الطبائع الدينية، وهكذا يوجد الخلاف بين مقتضيات طبائع العلماء وطبائع الجهال، وهكذا الحال في الأطفال والشبان والشيبة والتجار والعمال والملاك والفقراء والموالي والعبيد. وصحة هذه المقتضيات نفسها محل نظر، فكيف تكون معيارا وقانونا لشيء آخر؟

(٤) ويوجد اختلاف بين خصائص عصر وعصر، فخصائص قرون الخير تختلف عن خصائص القرون بعدها، فنسبة حوادث قرون الخير مع قرائنها العقلية أمر مفهوم، والأغلب أن علماء تلك القرون قد لاحظوها، ولكن كيف تختبر حوادث ذلك العصر بقرائن اليوم إذا اختلفت خصائص العصر كل الاختلاف ؟

(٥) ولا شك أن استعراض أحوال صاحب الحادث في كل حادث ينفع في فهمه، ويساعد في هذا الفهم نسبته وصلته مع القرائن العقلية، ولكن إجمالا كبيرا يوجد في هذا الشرط. وكلما يقع حادث تستعرضه الطبائع المحبة للحقائق أحوال من يتعلق به مع القرائن. ولكن هذا الاستعراض واستخدام القرائن العقلية لا يأتي بعد قرون، ولا ينبغي أن يكون كذلك. فحينما يروى تلميذ حديثا عن شيخه فإنهما يكونان معروفين بشخصياتهما لدى الناس في ذلك العصر، وبذلك يمكن أن نحصل على أمور نافعة بآرائهم في الناقلين، ولكن كيف بعد القرون التي تغيرت فيها الأفكار والأذهان ومقياس البحث والنظر؟ إنه يشبه عملية النبش لا غير، والحق أن القرناء والرفاق هم الذين يستطيعون أن يشرحوا الأحوال

والظروف.

(٦) ثم ما هي مكانة القرائن العقلية؟ إذا كان الكتاب والسنة هما الأصلين وجب أن يقاس بهما كل شيء، والعقل الذي يوافق معيار الكتاب والسنة هو الذي يوصف بالسلامة. وقد أولى السيد أحمد خان الطبيعة والعقل أهمية بالغة حتى بدأ يقيس بهما القرآن. ولم يستطع فهم معجزات الأنبياء بعقله فأنكرها، وأنكر كذلك من الأحاديث ما كان فوق إدراك عقله. ومن هنا تبين أن تقييد القرائن العقلية هو الذي يسد أبواب هذه الفتن، وإلا لا يكون لكون الكتاب والسنة أصلين معنى، بل يصير الرجال هم الأصل، وتكون عقولهم حكما على الكتاب والسنة، فكأن عقولنا هي التي تحدد معاني الكتاب والسنة. والذي سماه أحمد خان بـ(الفطرة وقانون الطبيعة) يشبه بنتائجه العربة التي ركبت أمام وجه الحصان. فالعقول التي نزل الكتاب والسنة لتقويمها وتربيتها هي التي هيمنت عليهما، فيا للعجب من اختلال الموازين هكذا.

ويبدو أن الشيخ شبلي تأثر بالسيد أحمد خان، وأنه قد أضفى على تأثره صبغة علمية بالمعنى المصطلح، ولكننا لم نعلم شيئا عن أثر ذلك في السيد أحمد خان. ثم تغيرت الأحوال وغادر الشيخ شبلي كلية على كره(الجامعة الإسلامية الآن)، واختار للكتابة والتأليف ميدان الكلام والتاريخ بدل الفروع الفقهية، ثم لم يرجع إلى المباحث الفرعية. وبما أن نظريته المذكورة كانت تشجع اتجاه النيل من علماء الحديث فقد ألف أهل الحديث عدة مؤلفات انتقدوا فيها معنى الدراية السابق انتقادا علميا، وفصلوا الكلام على طريقة ملائمة. ومن هذه المؤلفات كتاب **حسن البيان فيما في سيرة النعمان** للعلامة عبد العزيز الرحيم آبادي، وكتاب الإرشاد في أمر التقليد والاجتهاد للشيخ أبو يحيى الشاهجهانفورى، وكتاب سيرة البخاري للعلامة عبد السلام المباركفورى، وغير ذلك من المؤلفات.

وكان الميرزا غلام أحمد القادياني قد وقف من الحديث موقفا مماثلا فردّ

عليه الشيخ محمد حسين البتالوي في مجلة إشاعة السنة ردا علميا مفصلا، فإن الموقف المذكور كان يمهد السبيل لإنكار السنة بوضوح.

وفي هذه الفترة أنكر السنة كل من المولوي عبد الله الجكرالوى، والمولوى حشمت على، وقد انتشرت هذه الحركة على نطاق ضيق في مدينة ملتان، وغجرات وديره غازي خان وغيرها من المدن. ولكنها فشلت بعد قليل، لأن أعضاءها المذكورين لم يكونوا من العلماء، ولم تكن لغتهم جميلة ولا أسلوبهم مستساغا. ثم قام الآن المستر برويز بتنظيمها وتجميلها في الباكستان، ولكن أعضاء هذه الحركة ليسوا على حالة عملية ظاهرية ولا على الإخلاص، ولذلك يخشى أنها تشجع الإلحاد واللادينية، ثم انهاتؤول إلى الفشل. أما سنة الرسول ﷺ فلن يمحى اسمها. والمتأثرون بأوربا ينكرون السنة ويشكون في هذا الفن، ولكنهم مع ذلك لا يحبون أن يسموا (أهل القرآن)، نعم إنهم يحتمون بهم فرارا من الصلاة والصوم والحج والزكاة.

الدراية والحنفية

إن الفرقة (البريلوية) من الحنفية تركز على نشر البدع والغناء، وليس لهم اهتمام يذكر بالاستدلال والمنهجية، بل إنهم يتكلمون كثيرا على العواطف والهتافات، ويرون الشيخ شبلى والسيد أحمد خان وأهل ديوبند من الوهابيين، ومن هنا لم يتأثروا كثيرا بهذه الدراية المصطنعة، وبما أنها كانت تقضى على المعجزات والكرامات وحكايات الفقراء المزيفة فإنهم لم يقبلوها بهذا السبب. وقد كره أهل الجد والبصيرة من علماء ديوبند هذه الدراية أيضا مثل أهل الحديث، وكتبوا ضدها، ونجد من ذلك قدرا كبيرا في كتاب أصح السير للشيخ عبد الرؤف دانا فوري، ولكن تأثر بها اليوم الأحداث من الكتاب الديوبنديين، وذلك لأن الفراغ الذي شعروا به في الحنفية بسبب قلة الحديث حاولوا أن يسدوه بالدراية. وقد رضي هؤلاء بهذا التفوق المصطنع الظاهر للفقهاء، ولم ينتبهوا إلى

أن موقفهم سلم لإنكار السنة في الحقيقة . وقيادة الجماعة الإسلامية وكذلك فرقة الحنفية المذكورة تنوه كثيرا بهذه الدراية، وإنهم ينشرون الكتابات السامة مثل (مسلك الاعتدال) في هذا الوقت .

أثر الدراية في الفقه الشائع :

والحقيقة أن الدراية كما تتوجه إلى الحديث فكذلك تتوجه إلى بعض أبواب الفقه وأجزائه، بل أكثر . وعلى سبيل المثال نذكر مسألة الماء في أبواب الطهارة، والنقاش مستمر في بلادنا حول بعض مسائله، ومنها مسألة طهارة الماء، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك فيما قبل .

(١) اختلفت الحنفية والشافعية في الماء الكثير، فالحنفية ذهبت إلى أن النجاسة لا تؤثر في الماء إذا كان عشرا في عشر، ورأت الشافعية أن الماء إذا كان قلتين لا يتأثر بالنجاسة إلا إذا تغير طعمه ولونه وريحه . والمالكية لم تحدد كمية . والدراية تقضى بأن أثر النجاسة إذا لم يظهر في شيء لا يحكم بنجاسته، فالتفريق بين القليل والكثير خلاف مقتضى الدراية، ولو أمكن تحرير السنة من هذه القيود والسلاسل فإن حديث القلتين يقبل بعد نقده بأصول الرواية . وتحديد الحنفية لم يرد فيه نص، ولذا يكون الحكم بالنجاسة والطهارة خلاف الرواية .

(٢) والتفريق بين البركة والبئر في أمر النجاسة خلاف الدراية تماما، وهل تؤثر هيئة الإناء في الطهارة والنجاسة، بأن الإناء إن كان مدورا عميقا تنجس الماء وان كان عدة أطنان، وإن كان طويلا عريضا ينتظر في الحكم بالنجاسة إلى أن يتغير الطعم واللون والريح ؟ إن هذا التفريق خلاف الدراية البتة، والحكم بالنجاسة ينبغي أن يكون على أساس مقدار الماء مهما كانت هيئة الإناء .

(٣) ثم إن تحديد عدد الدلاء في تطهير البئر لا علاقة فيه للدراية، سواء كان بالآثار أو بأقوال العلماء، فلنفرض أننا حددنا إخراج عشرين دلوا من الماء لتطهير البئر، فهل يكون في حالة إخراج الدلو التاسع عشر كل من الدلو والبئر وجدرانها

والماء النازل من الدلو نجسا، ثم إذا بدأ الدلو العشرون يرتفع من سطح الماء يكون جو البئر كله طاهرا مطهرا، وان هذا الدلو العشرين ليقضى على جميع الجراثيم القذرة بالمرة الواحدة؟ إن هذه الطهارة غير مقبولة لدى الدراية، يقول المرغيناني: (مسائل البئر مبنية على اتباع الآثار دون القياس). (الهداية: ١ / ٤٥).

وهنا نسأل: ألا تخضع هذه الآثار للدراية ؟ وكيف تكون الأحاديث الصحيحة المرفوعة محل نظر للدراية، وكيف تكون الآثار التي يقول فيها عالم مثل المرغيناني (إنها لم تخضع للقياس) صالحة للعمل ؟ ويمكن أن يفرق بين معنى القياس والدراية في الاصطلاح، ولكن لا فرق بينهما نظرا إلى الهدف، ثم إن تلميذي الإمام الفاضلين يحكمان على البئر بالماء الجاري. (رد المحتار: ١ / ٢١٧).

الإمام أبو حنيفة والقياس:

قد ذكر العلماء المسائل التي ترك فيها أبو حنيفة القياس لأن النص كان قد ورد فيها خلاف ذلك. ومثال ذلك الأكل والشرب ناسيا في نهار رمضان، فالقياس يقتضى بفساد الصوم، ولكن قال أبو حنيفة إن الصوم لا يفسد فإن الأحاديث صرحت بذلك. (مناقب الإمام الأعظم مع الجواهر المضيئة: ص٧٤).

وكان يرى التفاضل في دية الأصابع بناء على القياس، ولكن قال النبي صلى اللّه عليه وسلم: إن الأصابع سواء. وكان يرى أن أكثر مدة الحيض (١٥) يوما، ولكن حينما علم بورود الحديث على خلاف ذلك تقرر عنده أن منتهى مدة الحيض عشرة أيام.

وكان يكره النوافل قبل صلاة العيد وبعدها، فلما علم أن عليا رضي الله عنه كان يصلى النوافل في البيت رجع من رأيه.

ولا شك أن هذه المسائل تعارض دراية الشيخ شبلى، والقياس هو العامل على الأغلب في مقتضى القرائن، ثم إن هذا القياس حجة شرعية لدى الأئمة الأربعة وأئمة الحديث، وله أصول وضوابط عند العلماء. أما الدراية التي يذكرها الشيخ شبلي فإنها لا توجد عند أحد من الحنفية والشافعية والمالكية والحنابلة، وإنما نشأت في السيد أحمد خان كفكرة، ثم عبر عنها بالألفاظ الشيخ شبلي، وتلقاها الأحداث من العلماء بمجرد أن الشيخ شبلي ذكرها انتقاصا لأئمة الحديث ورفعا لشأن فقهاء الحنفية. ويرد ذكر هذه الدراية في كتابات أهل ديوبند بكثرة، وهؤلاء لا يعلمون أن هذه الدراية باب سرى لإنكار الحديث والمعجزات، ولم يذكرها أحد من أئمة السنة وأتباعهم. والإشارات التي فهمها الناس بعد تعسف ليست كأصل وقانون، بل وردت ضمنا وموقتا.

موقف العلماء من هذه الدراية:

إن المؤلفات التي ألفها علماء أهل الحديث أو العلماء المحققون من الديوبنديين هي جميعا انتقدت هذه الدراية وكرهتها ورأتها مؤدية إلى إنكار الحديث، مثل كتاب أصح السير لمؤلفه الشيخ عبد الرؤوف الدانافوري، وسيرة البخاري للشيخ عبد السلام المباركفوري، والإرشاد إلى سبيل الرشاد للشيخ أبى يحيى الشاهجهانفورى، والبحر الزخار وغيره. وجميع هؤلاء العلماء كانوا على علم بخطر هذه الدراية.

والفكرة التي حاول الشيخ شبلي أن يعطيها في كتابه سيرة النعمان عن أئمة الحديث ليست صحيحة، ولذا لم يستطع محبو علم السنة أن يتحملوها بسهولة. والحقيقة أن (التفقه) و(فقه الراوي) و(الاستحسان) و(استصحاب الحال) وغيره من المصطلحات ليست إلا كلمات متنوعة تهدف إلى إظهار عدم الثقة بتراث السنة. والأسلوب الذي اختاره القرآن الكريم في ذكر تاريخ الأنبياء عليهم السلام يبين أن أصحاب الفقه والدراية مازالوا يعارضون الهداية السماوية بنفس

الأسلحة، ويتعجبون من تعاليم الأنبياء الأساسية:

﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

وقال تعالى: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ ۙ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٤.٢٥].

وهذا يدل علي أن موضوعات التوحيد والنبوة وغيرها كانت ثقيلة على فقه ودراية ذلك العصر، وكان المكذبون يتعجبون من اصطفاء الرسل ومن تعليمهم ودعوتهم، فحينما تكلم شعيب إلى قومه عن معرفة ذات الحق والمحافظة على حقوق العباد، ونهاهم عن المعاصي، رد عليه عقلاء ذلك العصر وأغنياؤه بسذاجة بالغة فقالوا:

﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾ [هود: ٨٧].

وهكذا كان تفكير عقلاء كل عصر وفقههم ودرايتهم تحول في سبيل الأحكام السماوية وأنبياء اللّه تعالى عليهم الصلاة والسلام.

إن القياس والتفقه وفقه الراوي والدراية القديمة والجديدة والاستحسان واستصحاب الحال والمصالح المرسلة مصطلحات قد تفيد، ولكنها استخدمت كالأبواب السرية لرد أحكام القرآن والسنة، وقد فتحت للأمة أبواب التأويل طعنا في أئمة السنة بالتقليد والحشوية والحرفية، وقد اشترك في هذا الفساد الفقهاء والحكام معا، فقتل ألوف من أئمة الدين، وألقى مئات منهم في غياهب السجون، وقد تعرض علماء الحديث للمحن أكثر من غيرهم. ومن غرائب الأمور ومحزناتها أن عقلاء ذلك العصر وعباد الدراية مثل بشر المريسي وغيره كانوا يحتلون منزلة التحقيق والاجتهاد، وكان أئمة السنة وحفاظ الحديث مثل أبي يوسف وأبي حنيفة وأحمد ومالك يلقبون بالمقلدين والحشويين، ولكن مع ذلك كان ذلك العصر عصر علم وبصيرة، يكثر فيه علماء الحق، وكان أهل الحق

موضع احترام وتقدير مع الخرافات المذكورة.

دراية اليوم:

ولكن الدراية التي نشأت باختلاط السيد أحمد خان بالشيخ شبلى ليست تلبية لضرورة علمية، وليس العصر عصر علم، بل يبدو في خضم الهوى والإباحية أن الأعمى منح عصا، وأنه يضرب بها كما يريد:

كبهيمة عمياء قاد زمامها أعمى على عوج الطريق الحائر

سيرة النعمان وحسن البيان:

ألف الشيخ شبلى كتابه سيرة النعمان وبعض الرسائل في الخلافيات المذهبية، ثم اتجه تماما إلى الخدمة العلمية والشئون التعليمية فأسهم في إنشاء ندوة العلماء في لكنؤ، وكانت هذه المؤسسة تمتاز بابتعادها عن ضيق النظر والتعصب في البحوث الخاصة بالمسائل الفرعية، وكانت تهدف إلى خدمة الأدب والتاريخ. وهكذا بقى الشيخ في مجال الكتابة والتأليف معتنيا بعلم الكلام والتاريخ، وكانت السيرة النبوية أحب الموضوعات إليه فألف فيها الجزء الأول من كتاب «سيرة النبي صلى اللّه عليه وسلم» وأتمه تلميذه الوفي المحقق سيد سليمان الندوى، رحمهما اللّه تعالى رحمة واسعة وجعل الجنة مثواهما.

أما كتاب (حسن البيان) فقد ألفه الشيخ عبد العزيز الرحيم آبادي في بداية عمره، وكذلك ألف هداية المعتدى وبعض الرسائل في الرد على الشيعة ثم توقف، كأني به شعر بطبيعته المحبة للواقع بأن السبب الرئيس لهذه الخلافات والمنازعات الفقهية الدينية هو سيطرة الانجليز على البلاد، وما دام الوضع هكذا لن يستتب للبلاد الأمن والسلام. وانه قد وضع لهذا الهدف خطتين، أولا هما سياسية، والأخرى دعوية إرشادية. أما الخطة السياسية فاختار لتنفيذها منهجين الأول: هو مساندة حركة المجاهدين التي كانت تمارس نشاطها حينذاك بالسرية خوفا من بطش الانجليز وظلمهم، وكان كبار أهل ديوبند قد تخلوا عنها تماما،

ولكن أكابر صادقفور في بتنه قد ضحوا بأنفسهم في الدفاع عنها، وكانت مئات الألوف من الروبيات تصل إليها بواسطة الشيخ عبد العزيز، وانه بنفسه كان يقدم جميع دخله معونة للحركة بعد الوفاء بحاجاته الأساسية، وكانت فكرة الشيخ عبد العزيز هذه قبل نشأة حركة ترك موالاة الانجليز بسنوات.

والثاني: هو مقاطعة البضائع الانجليزية، فكان يلبس النوع الخشن من الأقمشة القطنية التي تصنع في البيوت، ويستعمل رداء الصوف المصنوع في كشمير، ويكتب بقلم القصب ولا يستخدم الأقلام المصنوعة في انجلترا.

وكان الشيخ ثناء اللّه يشاركه في أمور الدعوة، وانه قام بتأسيس جمعية أهل الحديث لعموم الهند، وأشرف على المدرسة السلفية في مدينة آره بولاية بيهار، وبجنب ذلك استمر في نضاله وجهاده ضد الانجليز.

وكانت شخصية الشيخ عبد العزيز جامعة، فقد كان يمارس نشاطه مع أهل الحديث في جانب، وفى الجانب الآخر كان يقوم بمساعدة المجاهدين مع المشايخ فضل إلهي الوزير آبادي، والصوفي ولى محمد الفتوحى، وإلهي بخش بميانواله، والقاضي عبد الرحيم، والقاضي عبيد اللّه، والقاضي عبد الرؤوف من قاضى كوت وعبد القادر القصوري.

وكان عمل مساعدة المجاهدين يتم بسرية تامة بحيث لم يستطع الانجليز مع ذكائهم المفرط وعيونهم المتعمقة النافذة أن يطلعوا عليه. ومن يدرى تأكد الخبر الذي يفيد أن أمر ألقاء القبض على الشيخ عبد العزيز قد وصل حينما انتقل إلى رحمة اللّه تعالى بعد أداء مسئولياته في الدنيا منتظرا نداء: ﴿طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] وقد انصرفت الشرطة التي جاءت بالأمر بعد أن رأت جنازته: اللّهم اغفر له وارحمه وأدخله الجنة، آمين.

ملحوظة:

[قد حذفت في الترجمة ما ورد في الكلام ضمنا ولم يتعلق بالموضوع]. (المترجم)

(مقدمه حسن البيان مطبوعة أشرف بريس لاهور، طبع ثالث ١٣٨٥هـ).

★★★

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المقالة الخامسة

حول واقعة الافك

(تحقيق جديد حول واقعة الإفك) في ضوء الحقائق التاريخية والوقائع .

أرسل إليّ صديق العدد المشترك (أغسطس وسبتمبر ١٩٦٤م) لمجلة (طلوع إسلام) ، وقد نشر فيه مقال للمدعو (تمنا عمادى) حول حديث آلافك ، يرى السيد العمادي أن هذا الحديث موضوع قد اخترعته المؤامرة العجمية ، ومع أن الحديث مروى في صحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن أبى داود وجامع الترمذي وسنن النسائي ومسند أحمد ومسند أبى عوانة ومسند البزار وغير ذلك من دواوين السنة الموثوق بها . ولكن العمادي مع ذلك يصرّ على أنه يراه موضوعا ولو كان متواترا (طلوع إسلام ص ٤٢ ، عدد أغسطس وسبتمبر ١٩٦٤ م) .

إذا كان العلم بهذه القوة ، فان (العلماء) يستطيعون في لحظة أن يحولوا الحق إلى الباطل والباطل إلى الحق!

كانت فرقة السمنية هي التي أنكرت إلى الآن المتواترات ، وجعلتها مساوية للظنيات ، ولكن وافقها في هذا العصر (مدّعو القرآن) . إن فرقة السمنية تشبه البراهمة ، ومن عجائب القدر أن قام المشعوذون في القرن الرابع عشر الهجري لتأييد البراهمة ، ورفضوا التواتر والعقل متسترين بالقرآن الكريم .

أجزاء المقال :

ينقسم هذا المقال إلى ثلاثة أجزاء .

١- بحث الحديث رواية .

٢- بحث الحديث دراية .

٣- ملحق طلوع إسلام.

يجهل العمادي فن الحديث إلى حد كبير، فانه لا يعرف مسئولية المحدّث، ولا يتصور شروط أهل السنة. هناك خلاف في السنة التي وقعت فيها غزوة بني المصطلق، والإمام البخاري محدّث وليس إخباريا، وشروط البخاري تتعلق بالأحاديث، والمحاكمة بين النظريات التاريخية لا تدخل في موضوع الكتاب، وصحيح البخاري وصف بأصح الكتب بالنظر إلى الحديث، والبخاري لم يلتزم بالحكم في الاجتهادات والخلافات التاريخية. والسيد العمادي لم يلاحظ هذه النقاط فأضاع وقته ووقت القراء.

نقل الإمام البخاري عن غزوة بني المصطلق قولين مع الإحالة، والناقل مسئول عن الصحة فقط مع إمكان الخطأ، وإمام التاريخ ابن خلدون أيضا قد عدها ضمن حوادث السنة السادسة من الهجرة فقال:

(وأقام رسول اللّه ﷺ- إلى شعبان من هذه السنة السادسة، ثم غزا بني المصطلق من خزاعة). (ابن خلدون ٢ / ٧٨١ طبعة لبنان).

والصحيح في الظاهر أن هذه الغزوة وقعت سنة خمس من الهجرة، ولكن هذا لا يضر صحة الجامع الصحيح للبخاري. فقد وقع هكذا خلاف في تاريخ وفاة أم رومان، حتى قال البعض إن أم رومان توفيت سنة أربع من الهجرة.

أوهام الثقات:

يعلم مهرة الفن أن الخطأ ممكن في كل موضع، ويمكن وقوع الأوهام من كبار الثقات والحفاظ. فرواية شريك بن عبد اللّه عن المعراج النبوي توجد فيه الأوهام باتفاق أئمة الحديث.

فطلب أبي سفيان لأم المؤمنين أم حبيبة وهم من الراوى. ونفى ابن عباس للصلاة داخل الكعبة وهم كذلك.

وصحة الصحيحين ذروة الجهد البشرى، وعلى العلماء أن يعتبروهما أصح الكتب بعد كتاب اللّه مع استدراكات الأئمة وعلى رغم الأعداء.

هكذا يمكن في حديث الإفك أن يكون ذكر سعد بن معاذ مبنيا على خطأ. وأقول هذا على سبيل التنازل، وإلا يمكن التوفيق بين الوقائع إن قلنا بوقوع غزوة بني المصطلق في السنة الخامسة من الهجرة. ومع قبول المناقشة الخاطئة للأستاذ عمادي أعتقد ثبوت الصحة للجامع الصحيح للبخاري، وأصرح بأن الاستدلال بذلك على وضع حديث الإفك من هفوات الأستاذ المذكور التي ليست لها أهمية.

والخلاف إن وقع في تاريخ واقعة ما فان إنكار أصل الواقعة ليس من مقتضى العقل، فكتب التاريخ والرجال مملوءة من مثل هذا الاختلاف. وقد اختلف في تاريخ ولادة النبي ﷺ، وفى تحديد تاريخ المعراج، وفى أوقات فرض الصلاة والزكاة والحج. فهل يؤدى هذا الاختلاف إلى إنكار وجود النبي ﷺ وسائر الحوادث ؟ يمكن أن يصبر عقلاء أهل القرآن على هذا، ولكن عقلاء العالم لن يقبلوا هذا الأصل، ولذا يعتبر هذا الجزء من بحث العمادي غير نافع. وهذه الخلافات إن لم توجد لم تمس الحاجة إلى المباحث العلمية وجهود العلماء، بل ينتهي الأمر بإنكار الواقعة بعد خلاف جزئي.

إن السيد العمادي أطال في مثل هذه المباحث غير النافعة على غرار الميرزا غلام أحمد الذي كان يشوش الأذهان بتكراره، وهذا ما فعله السيد العمادي.

والسيد العمادى كتب مرة في «طلوع إسلام» عن الإمام الزهري أنه عجمي، ومن عادته رواية الموضوعات والمغلوطات. وقد تم الرد عليه مفصلا حينذاك في جريدة الاعتصام. (الاعتصام، عدد ٦ / ابريل ١٩٥١ م).

وذكر الكوفة والبصرة وقتلة عثمان رضي الله عنه في الكلام على حديث الإفك ذهول تاريخي وأسلوب عاطفي. وحيث إن الشيعة معروفون بوضع الأحاديث

واختلاقها، ومبدأ التقية برّرلهم الكذب شرعا، فان السيد العمادى أراد استغلال هذه الظاهرة في البحث عن الإفك، وإلا رويت أحاديث الإفك بأسانيد كثيرة لا يبقى بعدها موضع للسؤال عن الكوفة والبصرة، لأن هناك كثيرا من المدنيين والشاميين أيضا في طرقه.

حديث الإفك والإمام الزهري:

إن السيد العمادى أتى في بداية مقاله بادعاء غريب جدا يرمى به إلى الإيحاء بأنه أصدر حكمه بعد تعميق النظر في أسانيد حديث الإفك. ولكن الحقيقة أن حكمه ليس إلا مجرد تخمين وادعاء. انه يجهل فن الحديث، وتذوقه لكتب الرجال يختلف تماما عن تذوق أئمة السنة وأهل الفن. يقول العمادي:

(جميع روايات الصحاح عن هذه الواقعة المكذوبة بطريق ابن شهاب الزهري، وقد كتبت عنه مفصلا في (طلوع إسلام) انه كان عميلا مستقلا للمنافقين والكذابين شعر أم لم يشعر). (طلوع إسلام ص ٣٣، أغسطس، سبتمبر ١٩٦٤ م).

ادعى السيد العمادي في هذه السطور ما يأتي:

١ - جميع روايات قصة الافك مروية عن طريق الزهرى.

٢ - هذه الروايات كلها مكذوبة.

٣ - كان الزهري عميلا للمنافقين والكذابين.

من لطف العمادى أنه وصف الزهري بأنه عميل للمنافقين والكذابين. وهذه العبارة الأردية - لو يفهمها العمادى - تعنى أن الزهري ليس بنفسه كذابا ولا منافقا، بل عنده عمالة الكذب والنفاق فقط وهو لا يشعر بذلك. ولكن العمادى لم يستطع في مقاله كله أن يدل على المالك والتاجر الأصلي للنفاق والكذب. أما الدعاوى المبهمة المجملة مثل الكوفة والبصرة وقتلة عثمان فإنها لا تنفع في

إثبات التهمة. إن قضيتكم تشبه قضية جنائية ترفعونها إلى محكمة العلم والأمانة ضد طائفة، ولكنكم لا تسمون المدعى عليه، ولذا لا ينفع مقالكم. صار الزهري (المسكين) عميلا بشعور أو دونه، ولكن كان الواجب عليكم بصفتكم أصحاب الدعوى أن تفصحوا عن أسماء الصادقين والكاذبين. أما العميل المسكين فلا يعتبر مجرما إلا بعد معرفة الحقيقة، وإذا عرفها فدرجته تكون ثانية في الإجرام. أما أنتم فدرجتكم هي الأولى بسبب قذف الأبرياء، وهذا يوجب الجلد ثمانين سوطا.

أما الدعوى الأولى بأن هذا الحديث مروى عن الزهري فقط، فحقيقتها تظهر بأني أسوق للحديث (٣٤) طريقا من دواوين السنة المتنوعة، وأغلب هذه الطرق منقولة من صحيح البخاري.

طرق حديث الإفك:

١- قال ابن إسحاق: حدثنا الزهري عن علقمة بن وقاص، وعن سعيد ابن جبير وعروة بن الزبير وعبيد اللّه بن عبد اللّه بن عتبة عن عائشة. (تفسير ابن كثير: ٥١٤).

٢- قال ابن إسحاق: حدثني يحيى بن عباد بن عبد اللّه بن الزبير عن أبيه عن عائشة (الروض الأنف مع ابن هشام ٦ / ٤٠٨).

٣- حدثنا أبو الربيع سليمان بن داود وأفهمني بعضه أحد قال: حدثنا فليح بن سليمان عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير وسعيد ابن المسيب وعلقمة بن وقاص وعبيد اللّه بن عبد اللّه عن عائشة. فيه سعيد بن المسيب بدل سعيد بن جبير. (صحيح البخاري ص ٤٣١، طبعة دار السلام بالرياض).

٤- حدثنا أبو الربيع حدثنا فليح عن هشام بن عروة عن عروة عن عائشة. (صحيح البخاري ص ٤٣٣).

٥- حدثنا أبو الربيع وحدثنا فليح عن ربيعة بن عبد الرحمن ويحيى بن سعيد عن القاسم بن محمد بن أبى بكر (صحيح البخاري: ص ٤٣٣).

٦- حدثني يحيى بن بكير حدثنا الليث عن يونس عن ابن شهاب عن الأربعة. (٨٢٩).

٧- عبد اللّه بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري عن عمرة أخبرني أبى عن عائشة. (ابن كثير: ٤ / ٥١٧).

٨- وقال أبو أسامة عن هشام بن عروة قال أخبرني أبى عن عائشة الخ (ابن كثير: ٤ / ٥١٧).

حدثنا ابن أبى عدى عن محمد بن إسحاق عن عبد اللّه بن أبى بكرة عن عمرة. (ابن كثير ٤ / ٥٦٩).

٩- أخبرنا على بن عاصم أخبرنا حصين عن أبى وائل عن مسروق عن أم رومان (ابن كثير ٤ / ٥١٩).

١٠- البخاري عن موسى بن إسماعيل عن أبي عوانة ومحمد بن سلام عن محمد بن فضيل كلاهما عن حصين، ولفظ أبى عوانة قال مسروق حدثني أم رومان. (ابن كثير ٤ / ٥١٩).

١١- ورواه بعضهم عن مسروق عن عبد اللّه بن مسعود (ابن كثير ٤ / ٥٢٠).

١٢- حدثني محمد بن عثمان الواسطي حدثنا جعفر بن عون عن المعلى ابن عرفان عن محمد بن عبد اللّه بن جحش قال: تفاخرت زينب وعائشة الخ (ابن كثير ٤ / ٥٢٠).

١٣- قال محمد بن عمر الواقدي حدثني ابن أبى حبيب عن داود بن الحصين عن أبى سفيان عن أفلح مولى أبى أيوب أن أم أيوب قالت لأبى أيوب: لا تسمع ما

يقول الناس في عائشة (ابن كثير ٤ / ٥٢١).

١٤- حدثنا حجاج ثنا عبد اللّه بن عمر الفيرى (البخاري ص ٤٢٦).

١٥- حدثنا يونس عن ابن شهاب حدثنا ليث عن يونس عن ابن شهاب (البخاري ص ٨٢٩).

١٦- محمد بن مقاتل أنا عبد اللّه أنا يونس عن الزهري (صحيح البخاري ص ٤٣٨).

١٧- حدثنا عبد العزيز بن عبد اللّه حدثنا إبراهيم بن سعد عن صالح بن شهاب (البخاري ص ٧٠١).

١٨- حدثنا موسى حدثنا أبو عوانة عن حصين عن أبى وائل حدثني مسروق ابن الأجدع حدثني أم رومان. (صحيح البخاري ص ٨٠٨).

١٩- حدثنا أبو نعيم قال حدثنا سفيان عن معمر عن الزهري (البخاري ص ٨٢٩).

٢٠- حدثنا يحي بن بكير قال حدثنا الليث عن يونس عن ابن شهاب. (البخاري ص ٨٢٩، ١٣٠٢).

٢١- حدثنا محمد بن كثير قال أخبرنا سليمان عن حصين عن أبى وائل عن مسروق عن أم رومان (البخاري ص ٨٣٢).

٢٢- حدثنا إبراهيم بن موسى حدثنا هشام أن ابن جريج أخبرهم قال ابن أبي مليكة سمعت عائشة (البخاري ص ٨٣٣).

٢٣- حدثنا محمد بن المثنى قال حدثنا يحي عمر بن سعيد بن أبي حسين حدثني ابن أبى مليكة قال استأذن ابن عباس قبل موتها على عائشة الخ. (البخاري ص ٨٣٢).

٢٤- حدثنا محمد بن المثنى قال حدثنا عبد الوهاب بن عبد الحميد قال حدثنا ابن عون عن القاسم أن ابن عباس استأذن على عائشة الخ (البخاري ص ٨٣٢).

٢٥- حدثنا محمد بن يوسف حدثنا سفيان عن الأعمش عن أبى الضحى عن مسروق عن عائشة قالت جاء حسان بن ثابت (أيضا ص ٨٣٢).

٢٦- حدثني محمد بن بشار قال حدثنا ابن أبى عدى قال أنبانا شعبة عن الأعمش عن أبى الضحى عن مسروق قال دخل حسان بن ثابت على عائشة. (البخاري ص ٨٣٢).

٢٧- تعليقا قال أبو أسامة عن هشام بن عروة قال أخبرني أبى عن عائشة. (أيضا ص ٨٣٣).

٢٨- حدثنا عبد العزيز قال حدثنا إبراهيم عن صالح عن ابن شهاب. (ص ١٢٦٨، ١١٥٣).

٢٩- محمود بن غيلان حدثنا أبو أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة (الترمذي ص ٧٢٠، دار السلام بالرياض) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

٣٠- حدثنا بندار حدثنا ابن أبى عدى عن محمد بن إسحاق عن عبد اللّه بن أبى بكر عن عمرة عن عائشة. (الترمذي ص ٧٢٢).

٣١- أخبرنا مالك بن إسماعيل حدثنا زهير حدثنا عبد اللّه بن عثمان قال حدثني عبد اللّه بن عبيد اللّه بن أبي مليكة أنه حدثه ذكوان حاجب عائشة أنه جاء يستأذن على عائشة فجئت وعند رأسها ابن أخيها عبد اللّه بن عبد الرحمن فقلت: هذا عبد اللّه بن عباس يستأذن عليك الخ (ابن سعد ٨ / ٧٥).

٣٢- حدثنا أبو الربيع العتكي حدثنا فليح بن سليمان (صحيح مسلم ص

٢٠٩ دار السلام).

٣٣- حدثنا الحسن بن على الحلواني وعبد بن حميد حدثنا يعقوب بن إبراهيم بن سعد حدثنا أبى عن صالح بن كيسان كلاهما عن الزهري. (أيضا ص ١٢٠٩).

٣٤- حدثنا أبو بكر ابن أبى شيبة ومحمد بن العلاء قال حدثنا أبو أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة الخ (أيضا ص ١٢٠٩).

والحديث الرابع والثلاثون هو الحديث السابع والعشرون الذي ذكره البخاري تعليقا. وبقية أسانيد صحيح مسلم هي أسانيد صحيح البخاري.

والإمام البخاري أورد قصة الإفك في أربعة عشر موضعا من الصحيح. في موضعين تعليقا، وفى اثنى عشر موضعا مرفوعا بسند كامل، اختصر في بعض المواضع نظرا إلى الموضوع والباب، وذكر القصة بتفصيل في المواضع الأخرى.

والعمادي حكم بمجرد النظر إلى مواضع في كتاب الشهادات والمغازي والتفسير بأنه لم يثبت إلا عن الزهري. أمر عجيب! ما أكثر جرأتهم! لا يخجلون من الادعاءات الكاذبة!

من فوائد الجهل أن الإنسان يتخلى عن الحياء. ولعل السيد العمادي مع قلة بضاعته في معرفة الرجال يعتبر مبرزا في مؤسسة (طلوع إسلام) ولكنه مع طائفته لا يملك إلا أسلوبه الخاص.

إنى لم أستوعب أسانيد قصة الإفك، بل استفدت من صحيح البخاري وصحيح مسلم وابن كثير وابن سعد وجامع الترمذي، ولم أذكر الطبري متعمدا، ومدار أسانيد الطبري كلها على إمام المغازي شيخ الإسلام محمد بن إسحاق. ومع أنهما إماما المغازي والسيرة ولكن العمادى يبغضهما كثيرا.

يوجد في بعض الأسانيد التكرار، ولكن كان هناك تغير في راو واحد أو اثنين من طرف المحدث، فذكرته على حدة كي يدرك العقلاء أكابر الفن الذين نظروا في هذا الحديث، ولكن لم يخطر ببالهم ما تعلق به العمادى وأصحاب مؤسسة طلوع إسلام، فهم يرون في حديث الإفك مؤامرة عجمية. وقد سبق أن أجريت عملية لهذا السرطان في رسالتي (أهمية الحديث التشريعية).

وبالنظر في هذه الأسانيد يتضح عدد الأئمة الذين رووا هذا الحديث سوى إمام العصر حافظ السنة ابن شهاب الزهري. إن السيد العمادى مصاب بقلة المطالعة فلا يعلم عن الأئمة الذين رووا حديث الإفك غير الزهري.

وكذلك ذكرت هنا الروايات التي لم ترد فيها قصة الإفك إجمالا أو تفصيلا، بل إنها تصدق الواقعة، أي توجيه التهمة إلى عائشة، أو مجئ ابن عباس إلى عائشة في مرض موتها وذكر براءتها. وفى أسانيد هذه الأحاديث عشرات من الرجال الذين ذكروا هذه الأحاديث وأسانيدها ولكن لم يصب أحد بما أصيب به السيد العمادي وأسرة طلوع إسلام! وسوى أئمة الحديث هؤلاء قد شهد هذه القصة من الصحابة أم رومان والدة عائشة، وزينب بنت جحش أم المؤمنين، وابن عباس، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش وغيرهم رضي الله عنهم.

إن الأسانيد أمامكم فلينظر فيها العمادى وأسرته (حفلة العميان) حتى يعرفوا من كان فيها غير الزهري. عديد من معاصري الزهري شاركوه في رواية هذه القصة، واشتركت جماعة كبيرة من تلاميذ الزهري وأساتذته في رواية هذه القصة، ولكن لم يستطع أحد منهم الكشف عن المؤامرة. والحق أن الإمام الزهري طاهر الذيل من الكذب والنفاق، ولكنكم وقعتم فريسة للمؤامرة العجمية التي خططها مستشرقو الغرب وملاحدة مصر، وشاركهم أمثالكم علما أو بدون علم، وحاولتم تحقيق ما عجز عنه منافقو العرب والعجم مجتمعين، ولكنكم لن تستطيعوه أيضا.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الإمام الزهري والرواية بالمعنى:

لم يكن يرضى بعض أئمة الحديث الرواية بالمعنى، بل كانوا يحاولون نقل ألفاظ النبي ﷺ نفسها، ولكن الرواية بالمعنى عرفت منذ عصر الصحابة نفسه فلذا شاعت وعمت. وفى حديث الإفك سمع الإمام الزهري بعض أجزاء هذه الواقعة من أربعة شيوخه، وذكر من بينهم سعيد بن جبير بدل سعيد بن المسيب، وقد ذكر كل منهم بعض أجزاء الواقعة، وصدق بعضهم الآخر، والألفاظ كانت مختلفة في تفصيل الواقعة، والإمام الزهري رتب ما سمعه من الشيوخ الأربعة حتى تكتمل الواقعة. ومع أن بعض الأئمة اعترض على الزهري، ولكن ذلك أيضا نوع من الرواية بالمعنى، وقد أحبه عامة أئمة الحديث، ورووا هذا الحديث عن الزهري دون نكير.

وما أوفر عقل العمادى حيث قال: (هذا الحديث بكامله من اختراع ابن شهاب نفسه).

جرأة عجيبة وكذب صريح! الإسناد موجود، والأساتذة معروفون، وأجزاء الواقعة توجد في كتب الحديث، ولكن (الأمانة) تحكم بأن الحديث من اختراع الزهري! هؤلاء يطعنون في أمانة أئمة الحديث. يمكن أن يكره أحد صنيع الزهري هذا، ولكن القول بأن الحديث من اختراعه معارض للأمانة.

الإدراج:

كان عامة أئمة الحديث يذكرون أثناء التدريس بعض الألفاظ على سبيل الشرح والتفسير، وأذكياء الطلبة كانوا يميزون بين متن الحديث وبين الشرح، ويسألون إن جاءت شبهة. والأساتذة كانوا يفعلون هذا عند الحاجة وللإفهام.

ومن وفرة علم العمادي أنه يقول: إن موسى بن عقبة كان يزجر أستاذه الزهري! فكأن موسى بن عقبة كان مسيئا إلى أستاذه مثل منكري الحديث! إن

العمادي وجماعته أحرار، فليعاملوا مع أساتذتهم كما شاؤا، ولكن لا ينبغي أن ينسبوا إلى أئمة الحديث ما لا يليق بهم.

الإمام الزهري وعروة بن الزبير:

ذكر العمادي دون حاجة (أن سماع الزهري من عروة ابن الزبير لم يثبت، وان أجمع المحدثون على أنه سمع منه). وهذه الجملة الأخيرة عجيبة، كان إجماع المحدثين خلاف الواقعة وخطأ، وليس على الحديث أثر للسماع أو عدمه.

لو لم يثر العمادي هذه النقطة لكان خيرا، وإن أثارها فعليه أن يذكر لها الأدلة. أما الآن فنقول إعلاما له:

روى عنه (أي عروة بن الزبير) عطاء وابن أبى مليكة وعراك بن مالك وأبو سلمة بن عبد الرحمن والزهري وعمر بن عبد العزيز وبنوه). (تهذيب الأسماء واللغات: ١ / ٣٣١).

توفى عروة بن الزبير سنة ٩٤هـ أو سنة ٩٩هـ، وولد الزهري سنة ٥١هـ، وتوفى سنة ١٢٤هـ، فالوقوع والسماع موجودان.

وليت شعري ما الذي يقلق العمادي فيحاول الطعن في المحدثين. ويمكن عرض مزيد من الشواهد لهذا الموضوع عند الحاجة. وتحليل ما ذكرتم من الدراية سيأتي قريبا أن شاء اللّه.

وما دامت جماعة الفقراء (المحدثون) هذه موجودة، استمر الدفاع عن الحديث والمحدثين، ولكننا لا نستطيع منعكم من التعنت والإكراه.

قتلة عثمان وحرب الجمل:

ثم ما هو تبرير الكذب الذي ارتكبه العمادى بقوله: (إن قتلة عثمان لماذا أرادوا فضح عائشة؟ كان عديد آخرون اشتركوا في حرب الجمل، وفى هذه الحرب أثارت عائشة سؤال قصاص عثمان بأهمية كبرى، ولكن اشترك الزبير

وطلحة في نفس هذه الحرب كقائدين، وصفوان بن المعطل مشى مع عائشة بعد الصبح عدة ساعات، ولكن سنحت لشركاء الجمل فرصة معية عائشة لعدة أسابيع في حرب الجمل، وكانت هذه فرصة نادرة لمن نسجوا خيوط المؤامرة العجمية، وأمكنهم أن يصيدوا عصفورين بحجر واحد، أي الإساءة إلى عائشة، والإساءة إلى شركاء الجمل، وحينئذ لا تمكن التبرئة بنزول القرآن. ولكن الأسف أن الأعجميين لم يستشيروا العمادي ومؤسسة (طلوع إسلام)!

طمأنينة المنافقين:

صحّ قولكم بأن طمأنينة المنافقين لم تتحقق بنزول القرآن، فإنهم لم يكونوا مؤمنين برسالة النبي ﷺ ولا بنزول القرآن من اللّه تعالى.

والحقيقة أن طمأنينتهم لم تكن مطلوبة، بل كان نزول القرآن يهدف إلى طمأنة بعض المسلمين الذين تأثروا بالإشاعة في هذه الواقعة، مثل حمنة بنت جحش وحسان بن ثابت وعلى بن أبى طالب، وقد تحقق بحمد اللّه هذا الهدف. أما عبد اللّه بن أبى فلم يزل غير مطمئن مثلكم: ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠]

الميرزا حيرت والسيد سليمان الندوى:

بصدد الكلام عن الحديث لم تكن الحاجة ماسة إلى ترجمة الميرزا حيرت ولا إلى شرح السيد سليمان، مثل هذا الصنيع تطويل وإطناب، وليست فيه فائدة سوى تسويد الأوراق. إن الميرزا حيرت قام بترجمة الحديث دون شك، ولكن رأيه في حجية الحديث يشبه رأي أهل القرآن، وليس من أهل الفن في باب الترجمة، بل مستخدم مأجور، كما أنكم تكتبون مع الجهل بعلم الحديث. ومزخرفاتكم ليس لها تأثير في أهل العلم والخبرة.

أما السيد سليمان فانه عالم مطلع على الحديث، وقد وضح مضمون

الحديث ملخصا. وأين لنظركم تلك الدقة التي رزقها اللّه تعالى السيد سليمان؟ إنكم بدأتم نقد أقواله دون فهمها، وللتطويل وضعتم الميرزا حيرت والسيد سليمان في العنوان. إنكم لا تعتمدون على الزهري، فأي أهمية يستحقها عندكم السيد سليمان، وأي فائدة تتحقق بإدخاله في البحث ؟

عصر وضع الحديث :

أتى العمادي ضمن هذا العنوان بأمر عجيب فقال :

(بدأ قتلة عثمان وضع حديث الإفك بعد حرب الجمل في الكوفة والبصرة، وكان ذلك في حدود سنة خمسين أو ستين من الهجرة).

يبدو أن العمادى أتى بكشف تاريخي مهم، حتى دل على تاريخ وضع الحديث ووقته. ولكنه لم يذكر له مصدرا ولم يقم عليه قرينة، بل رجم بالغيب وغالط العامة ثم مضى ساكتا.

والحقيقة أن العمادى اتهم رئيس المحدثين الإمام الزهري بوضع هذا الحديث، والزهري ولد في نحو سنة ٥٠ أو ٥١هـ، ولذا تكهن العمادي بأن وضع هذا الحديث تم في هذا العصر. ولكن لم يستطع هذا العاقل أن يفهم كيف أن الزهري اشتغل بوضع الحديث فور تولده! والزهري إن كان عميلا فمن هم الواضعون الأصليون الذين كلفوا الزهري وبدأوا التجارة؟ إن الزهري ولد سنة خمسين، وبدأ هذا العمل فورا. والواضعون إن كانوا موجودين من ذي قبل، فلا يصح قول العمادي، ويكون زمن وضع الحديث قبل ذلك بسنوات.

من هم قتلة عثمان ؟ :

لا شك في أن شهادة عثمان رضي الله عنه كانت محنة للأمة تلتها محن أخرى، وترتبت عليها الحوادث اللاحقة، إنها أول وأكبر ظلم تعرض له ذلك الإمام الطاهر البرئ، وللظالمين دورهم في الجرائم التي ارتكبت فيما بعد. ولاشك

أيضا في أن موقف علي ﷺ في هذه الفتنة ليس نقيا كما ينبغي. وتفكير الحسن ﷺ في ذلك الحين كان وفق متطلبات ذلك الوقت. أن ذيل علي ﷺ طاهر تماما من تلك المؤامرة، ولكن سكوته يعرض موقفه للشك.

ولكن ما علاقة الإمام الزهري مع قتلة عثمان؟ انه كان على صلة مع خلفاء بني أمية مثل عبد الملك بن مروان وهشام بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز، وكان هؤلاء أصحاب الخير وأصحاب السلطة، وكان للزهري صلة معهم. أما قتلة عثمان فلم يكن لهم نصيب في السلطة ولا منزلة في المجالس العلمية في ذلك الوقت. ومن هنا يستبعد العقل اتهام الزهري بالتآمر مع قتلة عثمان ﷺ.

والغريب أن العمادى يحاول إثبات الرابطة بين الزهري وبين قتلة عثمان، وملحد مصر الشيخ أبو رية والمستشرق الأوربي جولد زيهر يتهمانه بالانحياز والوفاء لبنى أمية.

أن الإمام الزهري عالم قد أدى واجبه نحو جمع الحديث، وأنجز مهمته العلمية، ثم انتقل إلى جوار ربه، فصارت حياته كلها في ذمة التاريخ. ولكن العمادى وأصحابه يحسبونه عميلا لقتلة عثمان، وملاحدة أوربا يرمونه بالانحياز لبنى أمية! فهل ظلم أحد مثله في التاريخ؟ إن سلطة بني أمية قد تكون مبررا لملاحدة أوربا، ولكن ماذا يقال عن تخرصات العمادي سوى أن نشير عليه بالذهاب إلى مستشفى الأمراض العقلية!

كان عصر الزهري عصر ازدهار بني أمية، ولم يكن فيه لقتلة عثمان منزلة في وسط من الأوساط، فلو انحرف الزهري لأجل الدنيا لما كان له أحد خيرا من بني أمية، ولكنه كان نزيها مترفعا غنيا، وقد وصفه عمرو بن دينار فقال: (ما رأيت الدينار والدرهم عند أحد أهون منه عند الزهري كأنها بمنزلة البعر). (العبر للذهبي: ١/ ١٥٩، تذكرة الحفاظ: ١/ ١٠٩).

هل يدرك العمادى موقفه من ناحية الدراية في اتهام الزهري بما اتهمه؟ لا

يؤيده النقل ولا الدراية. ليس لذكر قتلة عثمان هنا فائدة سوى التعرض العاطفي مع الشيعة.

أن عائشة رضي الله عنها قادت حرب الجمل طلبا لثأر عثمان رضي الله عنه. والإمام الزهري روى تفاصيل قصة الإفك، ولكنكم ربطتموه مع قتلة عثمان! حقا وجد هنا موضع للخداع والمكر!

مبحث فدك وخيبر والإمام الزهري:

الشيعة يتهمون الخلفاء الثلاثة بأنهم حرموا فاطمة رضي الله عنها ميراث رسول اللّه صلى الله عليه وسلم، وهذا هو أهم مبحث في الخلاف القائم بين أهل السنة والشيعة.

وقد روى الإمام الزهري عن عائشة رضي الله عنها تفاصيل هذه الواقعة، وموقع فدك وخيبر من أراضي المدينة المنورة وحكمها الشرعي، والتوضيح الذي يدفع مطاعن المعترضين ضد الخلفاء.

وكذلك روى الزهري التفاصيل الخاصة بمطالبة على وعباس، ثم تفويض عمر المشروط في مجلس الصحابة، ثم التجافي بين الشخصين، وعودة تصرف عمر إلى الأرض.

ولو لا ضيق المقام لذكرت جميع الروايات المذكورة في صحيح مسلم (٢: ٤٩- ٩٢) وهناك في صحيح البخاري أيضا من الوثائق ما يدل على ضعف موقف قتلة عثمان (حسبما يزعم العمادي) وأعداء الصحابة.

وفى الباب كله ورد عن الإمام مالك روايتان فقط ذكر فيهما قوله (نحن معا شر الأنبياء لا نورث) بسنده. وسائر الروايات (المفصلة مروية عن الزهري).

فليفكر العمادى: ما مدى الصحة لقوله: إن حديث الإفك لم يروه إلا الزهري؟

وقد ورد ذكر مطالبة على وعباس رضي الله عنهما بتفصيل في صحيح مسلم (الجزء

الثاني، باب حكم الفيء).

الحديث الأول عن الإمام أحمد، والثاني عن قتيبة بن سعيد، والثالث عن يحي بن يحي، والرابع عن عبد اللّه بن محمود، والخامس عن إسحاق ومحمد بن رافع، والسادس عن يحي بن يحي بواسطة مالك، والسابع عن محمد بن رافع، والثامن عن إسحاق بن إبراهيم وغيره، والتاسع عن ابن نمير وزهير بن حرب، والعاشر عن يحي بن يحي، والحادي عشر عن يحي بن يحي أيضا، والثاني عشر عن ابن أبى خلف.

وجميع هذه الروايات سوى العاشر والحادي عشر مدارها على الزهري، وعليه تلتقي جميع الأسانيد، والروايات الأولية فيها الرد المفصل على شبهات الشيعة، فالزهرى يؤيدهنا أصحاب عثمان رضي الله عنه، فليست هنا فائدة لتلك الفقرة المثيرة، ولذا ينبغي أن ننظر إلى الحقائق في ضوء الحقائق نفسها.

حديث الافك في كتب الحديث:

أورد حديث الافك من أئمة الحديث البخاري ومسلم والترمذي وابن سعد والإمام أحمد والطيالسي وابن هشام والواقدي. وقد ذكره البخاري في نحو (١٤) موضعا، وذكره الإمام أحمد في مسند عائشة ومسند أم رومان.

وكما نعلم عن العمادى انه لا يعطى وزنا لأسماء هؤلاء الأئمة لأنه ليس من أهل هذا الشأن، بل يصر على موقفه إزاء أساطين السنة ولكن ما هي فائدة هذا الإصرار والتعنت؟

هؤلاء الأئمة مهرة فن الحديث، وأغلبهم أئمة في الجرح والتعديل، وقادة في نقد الحديث وتمحيصه، ورواياتهم في منزلة الدليل والحجة. أما العمادي وكذا أسرة منكري الحديث بأسرها يجهلون فن الحديث تماما، فهل ينبغي أن يتطاول أحد ويصر أمام العلماء مهرة الفن؟ إن الذهب يختبره الصيرفي بالمحك،

ويعرف لونه، ولكنه ماذا يفعل لو أصر الجاهل الغمر على أنه لا يصدق الصيرفي ولا يرضى بالمحك، كل ذلك خطأ، والصحيح هو ما أقوله !

يمكن أن يسمى منكرو الحديث هذا الإصرار تحقيقا، ولكن العقلاء يطلقون عليه اسم الحمق والسفاهة، فالاعتبار في كل فن لرأي أهله.

ولإخراج الحديث ينبغي الرجوع إلى كنوز السنة للأستاذ فؤاد عبد الباقي، وخزائن المواريث للعلامة عبد الغنى الأفغاني الحنفي. (ت١١٤٣هـ).

فإن كانت هناك مؤامرة من أعاجم كابول وقندهار بخصوص حديث الإفك، لظهرت لهؤلاء الأئمة.

إن القيمة والاعتبار لرأي المهندسين والأطباء في فنهم، ولكن العمادى يتفوه بأنه لا يصدّق ما اتفق عليه المحدثون والمجتهدون والفقهاء والمؤرخون مهما كان الأمر إنه يسوق الجميع بعصا واحدة.

معنى الدراية :

قبل النظر في دراية العمادى وقرائنه ينبغي فهم المعنى المصطلح للدراية، والدراية التي يستعملها العمادى في نقد الروايات لعلها بدأت على يد العلامة شبلى في كتابه سيرة النعمان، فإنه حاول ترجيح فقهاء العراق بتسمية فقههم بالدراية على فقهاء المحدثين، مع أن فقهاء العراق وأئمة أصول الفقه لم يرتضوا في نقد الحديث ذلك المعنى الذي يسميه العمادي دراية، أي القيام بتحقيق الوقائع التي نشأت قبل عدة قرون في ضوء البيئة التي تكونت بعد سنوات عديدة بعد تسميتها بالعقل، مع أن البيئة كانت مختلفة تماما في العصرين. إن معيار العقل وقيمه في تغير مستمر، وعقليات بيئة لا تنطبق على عقليات بيئة أخرى، ولذا يجب أن نقيس وقائع كل بيئة بمقاييس عقلياتها.

معنى الدراية الذي اختاره الشيخ شبلى قد اشتهر بين علماء الحنفية على معنى

(كل جديد لذيذ)، ولكننا لو استعملنا مقاييس الخرص والتخمين هذه في الروايات لم يسلم القرآن فضلا عن الحديث، ولذهبت مرئيات العالم ويقينيات النقل ضحية لتلك التكهنات والاصطناعات.

وفى الأيام الأخيرة كان الشيخ أبو الأعلى قد ردد هذه الدراية الموضوعة في مسلك الاعتدال وغيره، وفي ضوء هذه الحركة نظر كثير من قليلي العلم والسذج إلى بعض الأحاديث نظرة الشك والارتياب.

ونحن أهل الحديث لا نقيم وزنا ولا نعطى أهمية لهذا التكهن والتخمين في نقد الروايات والأحاديث الصحيحة.

المعنى الصحيح للدراية:

نقل عن أئمة السنة المعنى الصحيح للدراية في الاصطلاح في العبارة التالية:

(العلم بدراية الحديث هو علم باحث عن المعنى المفهوم من ألفاظ الحديث وعن المراد منها مبنيا على قواعد العربية وضوابط الشريعة، ومطابقا لأحوال النبي ﷺ). (كشف الظنون: ص ٤٢٢، أبجد العلوم: ص ٤٣٦)

إن الأئمة المتقدمين أيضا فهموا من الدراية هذا المعنى. ولو أعطى كل عقل وثيقة الدراية، وبدأت محاكمة الأحاديث ونقدها على هذا الأساس، فان ذلك يشوه صورة العلوم، ويقضى على الأمان، فلا يسلم أي فن من تلعب الجهلاء وجنايتهم.

إن مقال العمادى وكذا جميع مساعي أهل القرآن التي يبذلونها لهدم القرآن والسنة مثال حي للجهل المركب: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]

هدى اللّه تعالى هؤلاء الأشخاص، فإنهم يرون أن معنى الدراية هو أن كل من حصل له قليل من العلم، واستطاع قراءة التراجم الأردية، واطلع على مبادئ العربية، جاز له أن يتكلم عن القرآن والسنة، ويدعوبين الناس بنظام الربوبية.

إن التعنت في الكلام والجهل بالسنة بدأ من المدعو عبد اللّه الجكرالوى واستمر إلى المدعو برويز، ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

شبهات ناشئة من الدراية:

إن السيد العمادى نفسه كان شاعرا بضعف موقفه في تحقيق حديث الافك على أساس الدراية، وكان مناطه كله على الدراية المصطنعة، ولكن معوله يبدو أ ضعف من خيط العنكبوت.

الشبهة الأولى:

كان الإفك أهم واقعة في حياة عائشة، فكيف نسيت اسم الغزوة، وأوردت لتلاميذها الأربعة عبارة (في غزوة غزاها) مثل هذا الصنيع غير ممكن، ولذا فالحديث موضوع.

الردّ على هذه الشبهة:

من أين فرضتم أن عائشة نسيت اسم الغزوة؟ إن عدم الذكر لا يستلزم عدم الشيء أو نسيانه.

روت عائشة لأربعة أو خمسة من تلاميذها بعض أجزاء هذه الواقعة في أوقات مختلفة حسب الحاجة، وقد جمعها الإمام الزهري في موضع واحد تسهيلا لتلاميذه، وهؤلاء لم يروا ضرورة ذكر الغزوة ولا موضعها، ولا ذكرتهما عائشة، فالنسيان ليس في الإمكان. سلمنا أن اسم الغزوة غير مذكور، ولكن عدم ذكر جزء من الحادث لا يعنى أن الحديث كذب وموضوع. ما أغرب هذه الدراية! وأي شيء يدل على فقدان القوة الفكرية بعد هذا المثال؟

إنكم بأنفسكم سلمتم في حديث التيمم الذي ترونه صحيحا (بأنه يخلو من تحديد السفر، لأن المقصود ليس بيان أحوال السفر). (طلوع إسلام: ص ٥٥).

فكذلك هنا في حديث الإفك ليس القصد تعيين الغزوة.

ما أغرب هذا المنطق! إذا لم يتعين السفر في حديث التيمم فانه يبقى صحيحا عند العمادى، ولكن اسم الغزوة إذا لم يذكر في حديث الافك فان الدراية تقضى بكونه موضوعا!

وكيف علمتم أن اسم الغزوة لم يتعين؟

إن تعيين الوقائع يكون بأمرين: تارة بتعيين الموضع والوقت، وتارة بذكر الوقائع، مثل عام الفيل وعام الرمادة وعام المجاعة وعام الطاعون، فقبل تحديد السنة الهجرية كانت الأوقات تتعين بالوقائع.

وقد ذكرت عائشة في تعيين هذه الغزوة منازعة المنافقين وسورة المنافقين، وذكر فقدان القلادة في فرض التيمم.

أن الأمم البدوية تعين الوقت بالوقائع والحوادث، فالحاصل أن تحديد الوقت والغزوة موجود في حديث الافك.

نسيان الوقائع المهمة:

ومن الخطأ أيضا أن الوقائع لا تنسى، فإن النسيان نوع من النقص والمرض، وليس هناك قانون للمرض، فنسيان أي شيء ممكن.

نسي عمر واقعة تيمم الجنب، حتى لم يتذكر بتذكير عمار بن ياسر، مع أن التمرغ للتيمم كان حدثا غريبا.

والإذن للتمتع في الحج كان حدثا لجميع الصحابة، وقد أصابهم قلق شديد بالعمرة في أشهر الحج، ولكن نسى ذلك عمر، ومنع من التمتع في الحج أيام خلافته.

وذكرت فاطمة بنت قيس واقعها الشخصي بأنها طلقت ثلاثا ولم يجعل لها النبي ﷺ السكنى والنفقة، ولكن قال فيها عمر: لا ندرى أنسيت أم حفظت.

وعشرات من الوقائع المهمة من هذا النوع تقع في حياتنا، ولكننا ننساها مثل موت الأقارب والمواليد والأنكحة، وهذا من التجارب اليومية في الحياة.

والحاصل أن ذكر التاريخ والمكان والوقت ليس شرطا في صحة واقعة ما. هذه دراية قد اصطنعتموها، ولكن التجربة لاتصدقها.

ذكر القرآن الكريم واقعة عن اتهام النبي ﷺ فقال:

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ﴾ [آل عمران: ١٦١].

تهمة وجهت إلى النبي ﷺ، ولكن لم يرد ذكر الغزوة ولا تاريخ وقوع ذلك ولا الشخص الذي وجه التهمة، فكيف أمكن ذلك؟

فهل يزعم العمادى أن الأعاجم أصابوا القرآن بما أرادوا، ونجحت مؤامرتهم في ذلك، فلم يذكر تاريخ مثل هذه الواقعة المهمة، فهل نحكم بالوضع على هذه الآية أيضا ؟

من المعلوم أن خمسة من القرآء السبعة أعجميون، فالقرآن واقع فريسة للأعاجم وفق قانونكم هذا. وقاعدتكم السابقة لا تتضمن أمرا من العقل والدراية حتى يتعب أحد في تدبره. أما تعليلكم بأن المنافقين لم يستحسنوا تسمية الغزوة في ذلك الوقت وأخروها إلى وقت آخر، فإنهم إخوانكم وعلى دينكم، ولعلهم فعلوا ذلك بإشارة منكم وأخبروكم بذلك.

الشبهة الثانية:

أثار العمادى شبهة ثانية بأن الركب الخالي كيف حُمِل على الإبل، وكيف لم يعرف السائق أن الركب خال؟ وحيث أن الحديث يشير إلى أن السائق لم يشعر بذلك، ولذا فالحديث موضوع !

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الرد على هذه الشبهة:

ساق العمادى هنا مثل الجهال احتمالات لاداعي لها، مع أن عائشة رضي الله عنها قد أجابت على هذا السؤال بأن النسوة كن خفيفات حينذاك. فالذي يعرف شواغل السفر وأحواله ويدرك نفسية المسافر، لايلاقى صعوبة في فهم الحديث. والذي ركب الإبل في سفر الحج، وشاهد اضطراب وضجيج المسافرين والسواق وقت الرحيل، لم يواجه صعوبة في فهم الحديث.

واليوم أيضا تفقد القفائز، وتضيع الفرش، وتتلف الأمتعة الثقيلة، ومن هنا لا نشعر بغرابة في واقعة عائشة هذه.

وفى عصر الحافلات والسيارات هذا تسقط الأمتعة وتنسى، والركاب يخلفون وراء الباصات بعد العد والحصر، وفى ميناء كراتشي وجدة توجد الأمتعة المفقودة والبضائع المهجورة بمئات الكيلوات.

ولا ندرى في أي عالم يعيش العمادى، حتى يستصعب نسيان خمسة عشر أو عشرين كيلو من الوزن! النزول في الليل، والنوم عند الأمتعة، والأكل مع الرفاق حقيقة معروفة تتكرر مع الأيام. والحاجة لم تكن ماسة إلى الاستئذان من النبي ﷺ لقضاء الحاجة والوضوء والصلاة، ولم يكن عدم الاستئذان مقلقا لأحد. ولم يكن النبي ﷺ خفيف الثقة حتى يحذر نساءه في القيام والقعود والسفر والحضر. والمتعودون على السفر يدركون هذه الأحوال، ولا يرون فيها صعوبة وغرابة.

والذي يتراءي لي هو أن العمادى لم يجرّب الحياة الزوجية، أو تزوج من أسرة وضيعة، فكانت نساء بيته مضطرة للاستئذان عند كل ذهاب وإياب، أن الأسر الكريمة لا تعرف المحاسبة على الأعمال العادية اليومية، ولا ترى الحاجة إلى الاستئذان والإعلام.

أصابني الضحك والندم معا عند النظر في شقوق القرينة الثانية، ولذا التمست العذر للعمادى في هذا الأمر.

النسيان طبيعة الإنسان:

ليس للنسيان قاعدة، فالإنسان قد ينسى أمنانا من الحمل. إنكم (منكري السنة) لا تثقون بالسنة، ولكن لماذا لا تفكرون في القرآن؟ كان موسى ذاهبا مع صاحبه للقاء رجل صالح، وقد أخذ معه حوتا كعلامة، والحوت حسبما تزعمون لم يكن ميتا، ولذا لا يقل وزن الظرف والماء والسمك عن نحو عشرين كيلو، يقول القرآن:

﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف: ٦٣].

تذكروا هنا جميع الاحتمالات التي أثرتموها عن الركب ونسيان عائشة، ثم انظروا هل جنى الأعاجم على القرآن أيضا، كما أنهم جنوا على السنة؟

يقول المؤرخون أن القراء السبعة كانوا أعاجم، وليس في هؤلاء السبعة من العرب إلا ابن عامر وأبو عمرو. (الجواهر المضيئة: ٢/ ٤٢٣، طبعة حيدر آباد عام ١٣٣٢ هـ).

أجزاء القرينة السابقة مضحكة جدا، ولعل مؤسسة طلوع إسلام تخلو من رجل رزين عاقل يقوم بتقييم مثل هذه المقالات.

وما وضعه العمادى من مخالفة العادات، ليس بصحيح، فان العادة على قسمين. فمن عادة نساء البيوت الملتزمة بالحجاب إلى الآن أنهن يركبن في المحمل بمناسبة الأعراس والمحافل العامة، ثم يحمل الحمال هذا المركب ويسير، ومثل هذا يمكن في المحمل أيضا.

وما ذكر في القرينة الثالثة من الاحتمال الذاهب إلى قضاء الليل كله في

المحمل فنوع من الجنون، فان الحديث تضمن صراحة قولها (فقمت حين آذن بالرحيل). أما خروج الصحابيات في أسفار الجهاد حيث يقع الاضطرار للتكشف ولحمل السقاء على الكتف لسقاية الجرحى وعيادة المرضى، فمثل هذا الالتزام فيها مجرد تكلف وخاصة إذا لم تكن الحاجة ماسة إلى الابتعاد عن الجيش كثيرا في الغابة.

والقرينة الثالثة للعمادى خيالية وعاطفية ولا علاقة لها بالحياة العملية. أنها ليست حفلة حيث تخرج الصديقات مجتمعات، بل كل واحد يتحمل حاجياته في السفر.

والقرينة الثانية إعادة للثالثة مع تغير الألفاظ، والرد عليها مرّ ضمن الرد على الثانية، وقد ورد فيه أن البيوت الكريمة تتمتع بالثقة فلا تحتاج إلى الإذن والإعلام في الأعمال اليومية. وإن كان هذا الالتزام البالغ بالإذن والاستئذان صارت الرواية مشتبهة. تقول عائشة: (فقمت حين آذن بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فلمست صدري فإذا عقد لي من جذع ظفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه).

هذا الأسلوب طبيعي جدا، والإذن للذهاب معارض لطبيعة السفر، والذهاب مع أم مسطح بعد الرجوع إلى المدينة صدفة، أن عائشة لم تدعها ولا أرسلها النبي ﷺ معها، نعم وقع ذلك بسبب المرض صدفة.

ويظهر من القرينة الخامسة أن كاتب المقال مصاب بنوبة مرضية. ورد في الحديث التصريح التالي: (أتينا الجيش بعد ما نزلوا موخرين في نحر الظهيرة). ثم قال (أذن ليلة بالرحيل). أي وصلت عائشة إلى الجيش في الظهيرة، والبحث كان وقت المغرب، وصلاة العشاء كانت في الخيمة ثم تناول العشاء، والرحيل آخر الليل، والنزول في الظهيرة. فالاحتمالات كلها فاسدة في غير موضعها.

وفى حديث الإفك ذكر الرواة الغزوة، وفى طريق معتوبكم إمام المغازي

محمد بن إسحاق: فلما كان غزوة بني المصطلق أقرع بين نسائه، كما كان يصنع، فخرج سهمي. (الروض الأنف: ٢/ ٢٢٠).

عقل العمادى يستحق الرحم، انه يحمل الحديث جناية جهله. الرحيل وقت الليل ورد في رواية ابن إسحاق هذه، يقول: حتى إذا كان قريبا من المدينة نزل منزلا فبات به بعض الليل، ثم أذن في الناس بالرحيل. (أيضا: ٢/ ٢٢٠).

والظاهر أن الركب لو نام بعد التعريس فانه لا يتمكن من الرحيل إلا في آخر الليل، وبسبب مكر المنافقين في هذا السفر لم يأذن النبي مرة بالنزول لمدة يوم وليلة. وفي هذه الأحوال تقتضى المشقة في السفر والسهر في الليل أن يستريح الرفاق.

ويقول العمادى:

(إن الراوي ذكىّ جدا، فإنه لم يذكر أن الليل مقمر أو مظلم).

أيها الأستاذ العمادى! إن كان عقلك سليما فانظر كيف يكون هذا دليلا على الوضع؟ انك صححت الحديث عن التيمم، ولكن كيفية الليل لم تذكر فيه أيضا، بل ذكر وقت وجود القلادة فقط، فالأحسن أن تعالج عقلك.

قالت عائشة إنها وجدت القلادة. فما فائدة التساؤل بعد ذلك بأن حباتها انتثرت أم لا، ومن أين انفكت القلادة، وهل توسخت اليد في البحث عنها؟ هذا هو الهراء الذي سميتموه (دراية).

قلادة عائشة فقدت مرتين، مرة في غزوة بنى المصطلق، وأخرى في غزوة ذات الرقاع.

ويرى السيد سليمان أن الواقعة الثانية أيضا وقعت في هذا السفر. فان كان هذا الرأي صوابا فالظاهر أن خيوط القلادة كانت ضعيفة. رزق السيد سليمان دقة نظر، فأين أنتم منها؟ أما شبهاتكم فإنها خيوط العنكبوت. أن عائشة لم تعلم

الغيب حتى تعرف أن القلادة تنفك، فتأخذ ما تصلحها به، وكذلك لم تدرك أن فاقدي العقول يتعرضون لحديثها.

وفى رواية للطحاوي إشارة إلى أن ذلك سفر آخر، تقول:

(قالت أقبلنا مع رسول اللّه ﷺ في غزوة، حتى إذا كنا بالمعرس قريبا من المدينة نعست من الليل، وكانت علىّ قلادة تدعى اسمط تبلغ السرة فجعلت أنعس فخرجت من عنقي، فلما نزلت مع رسول اللّه ﷺ صلاة الصبح قلت يا رسول اللّه خرّت قلادتي من عنقي، فقال أيها الناس! إن أمكم قد ضلّت قلادتها فابتغوها). (معاني الآثار ١ / ١١١).

ليس في هذا الحديث الزهري ولا ابن إسحاق بل ابن لهيعة، وهو أيضا كما يقول العمادى ذكى جدا، لأنه لم يسم الغزوة، ولا ذكر عن الليل أنه مقمر أو مظلم، ولا أورد عدد المشاركين في الغزوة، ولا أسماء الذاهبين في البحث، ولا من وجد القلادة، ولا مدة البحث عنها، وكذلك لم يذكر هذا الراوي الذكي الساعة التي وجدت فيها صباحا، ولم يورد صفات هذه القلادة الطويلة في الحرب، وكيف أنها خرجت من العنق، ومن ذكاء الراوي أيضا أنه لم يبين أن القلادة من الذهب كانت أو من الفضة أو من الجزع، ومن ذكائه أيضا أنه قال هنا (معرس) بدل (ذات الجيش) في الرواية الاخري!

لك العذر أيها العمادى! إذا لم يكن عقل الإنسان سليما فإن الدنيا كلها تتظاهر عليه بالتعقل. إن الرواة المخلصين كانوا أصحاب تدين فلم يحسبوا أن مثل هؤلاء المتعقلين يهجمون على السنة تحت ستار الدراية.

ومما يدل على مسكنة العمادى درايته التي تقول: (كانت عائشة في الجهاد فكيف احتاجت إلى القلادة، ثم ان استعارة القلادة تعارض كرامة النفس).

الحديث الآخر الذي رآه العمادى صحيحا، والذي روى بواسطة الإمام مالك عن التيمم، ورد فيه أيضا ذكر القلادة، والمراد ببعض أسفاره هو (غزواته). وقد

ورد في رواية الطحاوي عن ابن لهيعة التصريح بـ(غزواته).

ثم إن هذه القلادة أيضا كانت مستعارة وهذا يعنى أنه إذا ورد ذكر العارية في رواية الزهري تصير الرواية موضوعة بحكم الدراية، ولكن إذا ورد نفس ذكر العارية في رواية هشام تبقى الرواية صحيحة بحكم الدراية! هذه التفرقة ناشئة عن عداء الأشخاص، أم عن اتباع أصل من الأصول؟

(حدثنا زكريا بن يحي قال حدثنا عبد اللَّه بن نمير قال حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها استعارت قلادة فهلكت فبعث رسول اللَّه ﷺ في طلبها. (البخاري: ١/ ٢١٩).

هاتان القرينتان للوضع توجدان في حديث التيمم، وهو من رواية الإمام مالك، وهشام بن عروة، وقد اعترفتم بصحته.

أيها الأستاذ العمادى! الكتابة ضد أئمة الحديث ليست سهلة، ليس هنا مكتب (طلوع إسلام) حيث يطلق على الجهل والحمق اسم (الأسلوب الخاص). إننا لو قبلنا (قرائنكم) لم ينج القرآن من المؤامرة الأعجمية ولا الحديث. وعلى هذا فدرايتكم ترادف السفاهة.

*محصل القرينة السابعة أن النبي ﷺ أهمل عائشة أثناء السفر تمام الإهمال، فلم يسأل عنها حتى في أوقات الصلاة.

ظن العمادي هذا تصنع محض وتلعب بالألفاظ ليس له علاقة بالحقيقة، ومع ذلك فقد سبق الرد عليه ضمن الرد على القرينة الرابعة والخامسة.

والحديث الذي نقله العمادى من صحيح البخاري إنما يدل على أنه ﷺ رحل آخر الليل بعد أن عرس فيه، وتخلفت عائشة لأجل قلادتها، وجاءت صلاة الصبح في الطريق، ووصلت عائشة في بداية الظهيرة، وسياق ابن إسحاق هكذا:

(فانطلق سريعا يطلب الناس، فو اللَّه ما أدركنا الناس وما افتقدت حتى

أصبحت ونزل الناس، فلما اطمأنوا طلع الرجل يقود بى). (الروض الأنف مع ابن هشام: ٢/ ٢٢٠).

والظاهر أن عائشة أحست بفقدان القلادة بعد عودتها من قضاء الحاجة، فرجعت في ذلك الحين، والركب سار في مسيره، وجاءت صلاة الفجر في طريقه، والركب لو توقف في الطريق دون إرادة الإقامة فانه لا ينزل الأمتعة كلها، بل تبقى الإبل واقفة، والركاب ينزلون فيصلون، والنساء يصلين في مثل هذا الوقت مع الرجال جماعة أو منفردة حسب الظروف، وعلى كل لا يجرى إحصاء أفراد الركب، فان العادة لم تجر بذلك، والكل مطالب بالعودة إلى راحلته بعد الصلاة، وعلى هذا يمكن جدا أن لا تتوجه العناية إلى عائشة وقت الغلس، فلا يعقل أن يلتزم الرجال بالمحمل في كل لحظة. والركب علم بفقدان عائشة بعد أن نزل الركب ورتبت الأمتعة، وهناك وصل صفوان بن معطل، وهنا وجد المنافقون مجالا للتقول فأشاعوا ما أشاعوا، واتهموا بما شاؤا، ولكن ليس هنا مأخذ على النبي ﷺ ولا على صفوان، فان النبي ﷺ قد أدى مسئوليته حسب العادة ومع كرامة، اللّهم صل وسلم عليه وآله وأزواجه أجمعين.

*والقرينة الثامنة التي ساقها العمادى لوضع قصة الافك هي أن الرواة لم يذكروا في السفر كله الصلاة وأوقاتها. وسبب ذلك عنده أن الراوي كان، والعياذ باللّه، تاركا للصلاة، ولذلك ترك في رواية القصة الصلاة وأوقاتها، وعلى هذا فالقصة كلها موضوعة، والمحدثون لم يعلموا هذه الدراية الغامضة لسذاجتهم، ولكن العمادى عثر عليها بعقله البالغ!

والعمادى في نظرنا في منتهى السذاجة، فانه ربما يتخلى عن العقل والعلم معا رغبة في الدراية، ويتكلم بالكلام المنحرف المخجل.

والرد عليه أولا أن أوقات الصلاة لم تذكر في هذه القصة مستوعبة، ولم تكن الحاجة ماسة إلى ذلك، وقد ورد ذكر صلاة الصبح والتيمم في بعض طرق

الحديث حسب الحاجة. وذكر الصلاة يعتبر خلاف العقل لو لم يكن الكلام متعلقا بها. والواقع أن هذا الذكر لو جاء فلعل العمادى جعل هذا الذكر نفسه قرينة للوضع.

وثانيا أن عديدا من أسفار الأنبياء والصلحاء ذكرت في القرآن الكريم، ولكن لم يرد فيها ذكر الصلاة. أول سفر موسى كان إلى مدين، وفى نهاية هذا السفر لقي موسى رجلا صالحا، وقد أثنت بناته على موسى هكذا: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

وأقام موسى هناك كأجير عشر سنين، ثم رجع مع الأهل والعيال من بيت الصهر، وفى الطريق شعرت زوجته بالبرد، ورأي موسى نارا، و﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩].

وصل موسى إلى مصر من الوادى المقدس بعد الظفر بالنبوة، وفى السفر كله لم يرد للصلاة ذكر، فلعل المؤامرة الأعجمية تعدت على القرآن أيضا! هذا ما تقتضيه دراية العمادى، أو لم يكن موسى ملتزما بالصلاة حسب زعم العمادى!

ولعل العمادى لا يعرف أن فرقة من منكرى الحديث تعتبر الصلاة الحالية أيضا نتيجة المؤامرة الأعجمية. فاللّه يحفظ دراية هذا القوم ففرقة منهم تعتبر الصلاة ثمرة العجمية، والأخرى تصف الحديث بالوضع لأنه لم يتضمن ذكر الصلاة: مالكم كيف تحكمون!

وفى سورة الكهف ورد ذكر رحلة علمية لموسى وصاحبه، وقد استمرت إلى مجمع البحرين لمدة أيام، ثم انه قام بالسفر مع الرجل الصالح لمدة غير معلومة للاطلاع على مظاهر القدرة، إلى أن انتهى هذا السفر للخلاف في طبائع المعلم والمتعلم، ولكن لم يرد ذكر الصلاة في هذا السفر كله، مع أنه موسى كان نبيا حينذاك وكذلك يظهر عن معلمه:

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف: ٦٥].

إن قصة السفر هذه بتمامها لم تتضمن ذكر الصلاة، فماذا يقول مدّعو الدراية ؟ هل فعل قراء القرآن الأعجميون فعلتهم ههنا أيضا؟

وبعد هذه القصة ورد ذكر سفر ذى القرنين أيضا الذي قام به من الشرق إلى الغرب ومن الجنوب إلى الشمال وحدود الصين لفتح البلاد. والقرآن قد ذكر التفاصيل اللازمة لهذا السفر والأحوال الدولية لذلك العصر، وقدم استعراضا مفصلا لخدمات ذى القرنين الدينية والوطنية والملية.

فهل يحكم العمادى على ذى القرنين بترك الصلاة، أو بنجاح المؤامرة الفارسية ضد القرآن ؟

والقرآن الكريم ذكر سفر إبراهيم الذي بدأ من وطنه المألوف وانتهى في فلسطين مرورا بمصر، وكان لوط مشاركا في هذا السفر، وبعد ابتلاء عظيم وقع سفر الهجرة، ولكن لم يرد ذكر الصلاة في موضع منه، فليبين مدعو الدراية من أين جاءت قرينة الوضع هذه في القرآن ؟

وفى سورة يوسف ذكر سفر يوسف ، والقرآن الكريم قد ذكر بتفصيل علم يوسف وفهمه وزهده وتقواه وسجنه وبراءته وقيامه بالوعظ في السجن وتمكنه في الأرض وتعففه وتحمله مسئولية تقسيم الطعام لمدة سبع سنوات ووصوله إلى منصب عزيز مصر. وفى جميع هذه التفاصيل لم يرد ذكر الصلاة في موضع. فماذا تقتضى دراية العمادى، هل نحكم على سورة يوسف بالوضع والاختلاق؟ ان ذكر أسفار الأنبياء والصلحاء في القرآن الكريم لم يكن مقصودا، فلذا ذكرت الواقعة، ولم تذكر الصلاة، والآن على العمادى أن يعتبر القرآن موضوعا مختلقا، أو يدفن درايته هذه في مقبرة قديمة.

وليعلم الأستاذ العمادى كذلك أن رواية الإمام مالك وهشام بن عروة لم تذكر

صلاة الصبح فقط، وفى سائر السفر لم يرد ذكر صلاة، ولكنكم اعترفتم بصحته. والأصل أن عدم الذكر لا يستلزم عدم الشئ. وفى الحوادث التاريخية لا يذكر عاقل ما لم يتعلق من الوقائع مفصلا.

* يقول العمادى: لم تبك عائشة في تلك الوحدة، ولم تخرّ مغشيا عليها، بل انها نامت، والحديث لم يذكر شيئا من هذه الوقائع، بل ذكر النوم، ولذا فانه موضوع.

ماذا نقول لأعداء العقل؟ إن البكاء والجزع في مثل هذه المواضع سفه بالغ، والسيطرة على العواطف فضيلة عظيمة، وأم المؤمنين لم تفقد صبرها، بل وقفت فيما عرض لها، وكان هذا التصرف هو الصواب، لأن الصحابة يرجعون إلى ذلك المكان حينما يعلمون افتقادها. ثم إن كونها قرب المدينة قد آمنها من القلق البالغ، فإن ذلك المكان لم يكن دار الحرب حيث يكون الخطر محدقا بالعرض، فالناس في ذلك الجو وتلك البيئة كانوا مسلمين أو مستأنسين بالإسلام، ولو لم يأت صفوان لأتى أهالى تلك المنطقة بعائشة إلى المدينة. فلم يكن هناك شيء يحمل على القلق، سوى ما يلحق الطبيعة البشرية من الأثر بالتخلف، وبعدم توفر وسائل الوصول في الظاهر. أما النوم والنعاس فانهما طبيعيان في مثل هذه الأحوال.

أيها الأستاذ العمادى! ينبغى أن تقرأ القرآن حينا بعد آخر، يقول تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم﴾ [الأنفال: ١١].

ويقول تعالى:

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

فلينظر العمادى، هل تمكن الأعجميون من التلعب بالقرآن في هذا الموضوع أيضا، وإلا فكيف ينام ويرتاح المؤمنون في الأرض التي خضبت بدماء الشهداء

وتراكمت عليها جثثهم؟ فهل ترون الآية موضوعة ومكذوبة؟ وتزعمون أنه كان على المؤمنين الحداد والتألم لا النعاس والاستراحة!

* كرر العمادى ذكر الصلاة في هذه القرينة، وسبق أن نفى بنفسه في القرنية الثامنة والتاسعة ترك الصلاة، ولكنه يقول عن صباح الافتقاد:

«بل لم تصل الفجر».

نسأل اللّه النجاة من الجهل! إن عدم الذكر لا يعنى عدم الوجود فلا شك أن عائشة تكون قد صلت، فلا محتمل للترك، ولا حاجة للذكر. والعمادى قد كرر وأطال دون فائدة في القرائن السابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة.

والعمادي قد أطال اللسان في مقاله على أئمة الحديث، فاتهمهم بالخبث والنفاق وعدم التدين وترك الصلاة والافتراء والمكر والوضع والكذب وإرادة الشر. ولو اقتص منه أحد فإنه يؤلمه، ولذا عليه أن يتنبه إلى أن الكل يملك القلم.

رجـــاء:

طعن العمادى في أئمة الحديث بالخبث وعدم الأمانة والمكر لأنهم تركوا ذكر بعض المعاملات. ولكن صنيعهم هذا إنما هو تنوع في الألفاظ، فان المحدثين يذكرون الأحاديث باختصار أو تفصيل حسب مقتضى المقام. وليس ذلك ناشئا عن عدم الأمانة والخبث، بل إنهم ينوعون حسب مقتضى الحال، ويدرك ذلك أهل الفن، ولكن الجهلة الأغرار قد يقلقون من ذلك.

قد ذكرت قصة الافك باختصار في صحيح البخاري مع الكرماني في كتاب بدأ الخلق (حديث ٣١٧٣) فترك عدة أشياء:

حدثنا محمد بن سلام أخبرنا ابن فضيل حدثنا حصين عن سفيان عن مسروق.

ليس في هذا السند الزهرى وابن اسحاق، فالسند صحيح تماما سوى النقاش حول سماع مسروق. وهذا الموضوع أيضا ينحل بتصريح «سألت أم رومان».

عليك أن تفكر في جهلك وفقرك، وما دمت تجهل هذا الفن فكيف تتدخل في هذا المجال ؟ موقف «برويز» جيّد في هذا الموضوع، فانه لا يتكلم على أمر من أمور هذا الفن، بل يمرّ متغاضيا عنه مثل «الزعماء»، ويضحك عليك بأسلوبه الخاص.

حديث آخر :

ذكر العمادى تحت هذا العنوان حديث التيمم، ونشكره على أنه اعترف بصحته، ولكنه مع ذلك أصيب بالاختلال الفكرى، فلم يستطع القطع بأن واقعة التيمم كانت في غزوة بنى المصطلق أو في وقت آخر، والحق أن هذا القطع ليس من شأنه. وعلى كل اتضحت رؤيته قليلا في مسائل عديدة.

حكم العمادى على رواية الزهرى بالوضع بعدم ذكر اسم الغزوة فيها، ولكنه يعترف بصحة حديث التيمم مع عدم ورود اسم الغزوة فيه، لأنه ليس مرويا عن الزهرى!

ثم يقول : إن هذا الحديث صحيح أيضا لأنه بين أن القلادة كانت ملكا لعائشة مع أن رواية الحديث في كتاب التيمم هكذا :

«حدثنا زكريا بن يحيى قال حدثنا عبد اللّه بن نمير قال حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها استعارت من أسماء قلادة فهلكت فبعث رسول اللّه ﷺ رجلا فوجدها فأدركتهم الصلاة وليس معهم ماء، الخ». (البخارى : ١ / ٢١٩).

إن تبق صحة حديث التيمم مع استعارة القلادة، فالرجاء أن العمادى يعفو عن الإمام الزهرى أيضا.

والعمادى لو اعترف بصحة رواية هشام بن عروة فان ذلك يحلّ مشكلة أخرى

أيضا، وذلك أن اثنين من رواتها كوفيان، وهما زكريا بن يحيى وعبد اللّه بن نمير، والحديث الذي اعترف بصحته العمادى ليس أول راويه، وهو عبد اللّه بن يوسف، مدنيا، والأغلب أنه كوفى أو شامى، ويثبت بذلك، ولو جهله العمادى، أن الكوفى قد يصدق، ويصح حديثه.

قال العمادى أيضا: روايات استعارة القلادة ليست في الصحاح، بل في غيرها. ولعل العمادى يعلم أن صحيح البخارى من الصحاح، وذكر الاستعارة في البخارى. ومما يدل على سعة مطالعة العمادى قوله: «رواية الإفك المكذوبة التي في صحيح البخارى لم يذكر فيها أن القلادة كانت مستعارة، وانها استعارتها من أختها أسماء، هذه الرواية خارجة من الصحاح».

مع أن هذه الرواية هى الثالثة في كتاب التيمم في صحيح البخارى.

والعمادى قد أصّر في عدة مواضع على أن الاستعارة تنافي كرامة النفس. ويمكن أن يكون ذلك صوابا إلى حد ما، ولكن المجتمعات الفقيرة تعتمد في الأغلب على الاستعارة. والنبي ﷺ كان درعه رهنا عند اليهود حين وفاته. وقد استدان ﷺ في حياته عدة مرات. وفى عصرنا يستدين كبار الرأسماليين من البنوك، وكذلك حال الحكومات، انه حلال ولو كان مبغوضا. إنكم تملكون ماكينة الوضع، فلتحكموا على تلك الأحاديث بالوضع، ولكن أهل العلم لا يجترؤن على ذلك إلا بعد التأنى والروية.

ثم إن عائشة استعارت القلادة من أختها، فالتساؤل هنا عن الكرامة حمق، فان الاستعارة بين الأقارب لم يكن عيبا قط، فلعل العمادى يسكن في غابات آسام أو إفريقية!

ثم إنه حاول أن يثبت أن القلادة كانت من موهوبات العرس. وليس هذا موضع نقاش، فان القلادة يمكن أن تتعدد. ويمكن أنها أعطت قلادتها للإصلاح أو التنظيف بالزيتون فإن قلادة الجزع تنظف به. فليست ههنا حاجة إلى مثل هذه

التساؤلات. ورواية الاستعارة في البخاري.

وبعد ذلك أثار العمادى دون حاجة موضوع تضعيف رواية أبى داود عن صفوان بن معطل. إن كان أصل أهل السنة بأن الصحابة كلها عدول صوابا، فهذه المناقشة لا طائل تحتها. وان لم تقبلوا هذا الأصل، واستحللتم نقدهم مثل الروافض والخوارج، فالأولى أن يناقش هذا الأصل أولا، ثم يلتفت إلى حديث أبى داود.

وإلى هنا انتهت مناقشة شبهات العمادى رواية ودراية، وفيما يلى زيادة تتعلق بالموضوع:

هناك نقص:

مقال العمادى عن قصة الافك قد اطلع عليه وعلى قيمته القراء، ولكن قال أحد في مؤسسة «طلوع إسلام» «ان هناك نقصا في مأثرة العمادى، ودون أن تظهر بقية الرواية لا يمكن فهم عمق هذه المؤامرة».

جاء الآن هذا البطل بسر العمق، ومجهوده بهذا الصدد ممتد في نحو خمس صفحات، ويبدو أن هذا الشخص يجهل تعاليم القرآن ويخلو من الذكاء، يقول:

«حد القذف في سورة النور ثمانون جلدة، وشهادة القاذف غير مقبولة، وثبوت القذف يتم بأربعة شهداء. يبدو أن مثل هذا الحادث وقع في المدينة، وفى ضوئه صدر هذا التوجيه. والظاهر أن مثل هذا الحادث لو وقع لإحدى أزواج النبي ﷺ، والعياذ باللّه، فان القرآن بينه صريحا».

حكم القرآن عام للأزواج المطهرات وللمؤمنات المحصنات، يقول تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ [النور: ٤].

ويقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النور: ٢٣].

ومع ذلك يقول بطل طلوع إسلام: إن حادثا يكون قد وقع في المدينة، ولكنه لا علاقة له مع الأزواج المطهرات!

وليت شعرى ماذا تريد مؤسسة طلوع إسلام؟ ان القرآن الكريم وفّر لأشراف البلاد صيانة قانونية، وهدف هذا القانون العام أن يعم ويشمل بيت النبوة وجميع أشراف المسلمين.

فهل تريد مؤسسة طلوع إسلام استثناء أسرة النبوة من هذه الصيانة، حتى يوجه إليها المنافقون التهم، ويشوهون سمعتها؟ إن العاقل الكريم لا يحبّ هذا المعنى.

إن قصة الافك تتلخص في أن فردا مقدسا من أفراد الأسرة النبوية صار غرضا للخلعاء، والقانون قد وفر له حماية كافية حتى لم يستثن أهله ورجاله، ووضع المنافق عبد اللّه بن أبى في موضع تتراكم فيه اللعنات عليه.

ومعنى هذا الاستثناء أن تعاطفكم مع عبد اللّه بن أبى، فإنه قريب لكم في العقيدة.

فقد كان متوحشا من منزلة النبوة ومن حجية أحاديث الرسول ﷺ، وهكذا أنتم: ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١].

أم تريدون أن الأسرة النبوية لا تتعرض لتهمة ولو من الأعداء، وتبقى أعراضهم نقية مثل القمر؟

ولكن مثل هذه الأمنية تخلو من العقل، فليس أحد يملك ألسنة الأعداء ويستطيع تكميمها.

في قصة الإفك ذكر عائشة، وقد وجه المعاندون التهم إلى جميع الأنبياء

عليهم السلام، فوصفوهم بالسحر والكهانة والشعر والفتنة والافتراء وغير ذلك، ولم يكن أحد يمنعهم من ذلك.

ومن غرائب صنيعكم أنكم لم تستطيعوا كفّ ألسنة المنافقين، فأنكرتم الحقائق، وأسأتم القول ضد خدّام الأمة المخلصين، ووجهتم التهم إلى أكابر الأمة متبعين طريقة عبد اللّه بن أبي، وهذا هو الأمر المضحك لدى الأباعد والأقارب:

﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

كان عليكم أن تعرفوا أن كذب الأعداء وافتراءهم ضد أهل الحق يرفع شأنهم ويعلى منزلتهم ويزيد في حسناتهم ويمحو سيئاتهم. وصنيعكم مثال حي للفوضى الفكرية وظلمات العقل والإدراك.

ندعو اللّه تعالى أن يمنحكم العقل، أما العلم فانه يحتاج إلى الاجتهاد، فاجتهدوا له أيضا.

شبهة أخرى:

والشبهة الأخرى التي قدّمها هؤلاء هي أن النبي ﷺ لم يبال بعائشة كما يستفاد من الحديث، ولم يعطها فرصة للاعتذار والبراءة!

هذا المعترض لم يدرك أن القضية تكون جنائية بعد ظهور التهمة، وبعد ذلك تجب عقوبة الجاني إذا ثبتت جريمة. وفى هذه القضية كانت المتهمة مريضة، فهل أردتم أن تخضع للبحث، أو يجلد القاذفون ثمانين جلدة دون تحقيق؟ وبعد ذلك نخشى أن تحكموا على الحديث بالوضع لأن العقوبة نفذت دون تحقيق.

إن قضية جنائية كبيرة هذه تمّت في شهر، ولم يحتج الجانى إلى البراءة، بل أفرج عنه مع التكريم، ولم يستطع الأعداء أيضا أن يتهموا المحكمة بالانحياز إلى الأقارب والميل إلى الأسرة. ونفذ حد القذف على حسان بن ثابت وحمنة بنت

جحش ومسطح بن أثاثة، فانجلى الأمر.

ولعلكم تحسبون النبي ﷺ كملك المغول أو الحاكم الذي يصدر حكم الإبادة العامة إذا لمس سخطه الملكة أو بنتها. وبعد ذلك يتسنى لكم فرصة الضحك والسخرية مثل المنافقين، وتحكمون على الحديث بالوضع. إن النبي ﷺ تصرف في الإفك تصرفا سليما اقتضاه العقل والعدالة.

قصة الإفك مثال حي ونموذج رائع للمساواة الإنسانية وتفهم الأمور والنظر في العواقب، ودلالة قوية على عدالة النبي ﷺ وصدقه، ودافع قوى للأجيال القادمة إلى العدل والتدبر، وبذلك تم القضاء على شرور الكفار وإفساد المنافقين، حتى وقف هؤلاء الأعداء مبهوتين محتارين.

صدق اللَّه تعالى حيث قال: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

وقال: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [المدثر ٤٩ - ٥٣].

★ ★ ★

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

فهرس الموضوعات

* **تقديم**: صلاح الدين مقبول أحمد ٥
* **ترجمة المؤلف**: العلامة محمد إسماعيل السلفي ١٠
ولادته ونشأته ١١
رحلته لطلب العلم ١١
شيوخه: ١١
مناصبه ١٢
نشاطه في مجال الدعوة والإرشاد ١٤
نشاطه السياسي ١٤
نشاطه العلمي ١٥
مؤلفاته ١٦
مآثره ١٨
١-إقامة المستوطنات ١٨
٢-بناء المساجد ١٨
٣-إنشاء المدارس الدينية ١٩
وفاته ١٩
جنازته ٢٠
ميزاته وخصائصه ٢٢
ثناء كبار العلماء والأدباء عليه ٢٦
* **شيخنا الدكتور مقتدى حسن الأزهرى -مترجم الكتاب- في سطور** ٣٣
ولادته ونشأته ٣٣
مراحله الدراسية وشهاداته العلمية ٣٤
ومن شيوخه الكبار في مراحله الدراسية المختلفة ٣٤
وروده إلى الجامعة السلفية ٣٥
إنتاجا ته العلمية ٣٦
تلامذته ٣٧

عضويته للمجالس والهيئات والجمعيات ٣٨
أخيرا-لا آخرا- ٣٩
* **كلمة المترجم** ٤٠
المقالة الأولى: أهمية الحديث التشريعية ٤٤
الخبر ٤٤
الأثر ٤٥
الحديث ٤٥
السنة ٤٦
موضوع البحث ٤٨
منزلة السنة ٤٨
السنة في القرآن ٥٠
إنكار السنة المكشوف في القرن الرابع عشر ٥٤
القرآن وتواتره ٥٥
شبهات منكري السنة ٥٦
شبهة الظنية في الحديث ٥٧
التحقيق العلمي للظن ٥٧
منشأ الخطأ الحقيقي ٦٠
أهمية الظن في الشريعة الإسلاميّة ٦٠
الشهادة ٦١
التحكيم ٦٢
شبهة منتنة ٦٤
أسباب المؤامرة ٦٥
بعد الفتح ٦٦
وجه مضحك للمؤامرة ٦٧
المؤامرة الأعجمية والعلوم الدينية ٦٩
المرحلة الأولى مرحلة الجمع والحفظ ٦٩
الكذب في الحديث ووعيده ٧١

القرن الثاني ٧١
المرحلة الثانية مرحلة التدوين ٧٢
المرحلة الثالثة مرحلة الترتيب ٧٤
وكزة بعد الحرب ٧٥
مواضع المؤامرة ٧٨
القراء السبعة ٧٩
الفرق بين العلم والجهل ٨٠
آثار المؤامرة ٨٢
تطور حركة إنكار الحديث ٨٥
قبل الآن والآن ٨٧
مشكلات مركز الملة ٨٨
الاجتهاد الاجتماعي ٩١
نظرة إلى تنقيح مبنى على الأخطاء لقاض محترم ٩٢
تحقيق الحديث في العصر الحاضر ٩٢
وهؤلاء ٩٣
علم الحديث متحرك ٩٤
أصول الرواية ٩٥
بعض الأمثلة ٩٦
نظر أئمة الحديث على الرجال ٩٧
دقة نظر المحدثين ٩٨
التعري في الأحاديث ٩٩
التعري في القرآن الكريم ١٠٠
أصل المصيبة ١٠٣
كثرة الأحاديث ١٠٣
شبهة وحلها ١٠٥
حديث لا يُعقل ١٠٦

إلى منكري السنة والمفكرين المعترضين ١٠٧
المقالة الثانية: السنة في مرآة القرآن ١٠٩
طرق الوحي المختلفة ١٠٩
ذكر الأحاديث في القرآن الكريم ١١٠
خديعة ١١٥
سعة الإسلام ١٢٢
عجز منكرى السنة ١٢٢
خلفية إنكار الحديث ١٢٣
الترابط بين القرآن والحديث ١٢٤
إلى أهل القرآن ١٢٦
المقالة الثالثة: حجية الحديث في ضوء سيرة الرسول ﷺ ١٢٨
بعد نظر أئمة الحديث ١٢٨
نقد الأحاديث والاجتهاد ١٢٩
الجهل بالقرآن وإنكار الحديث ١٣٠
السعة في أصول الحديث ١٣١
خلط المبحث ١٣٢
الاعتراف بالحقيقة ١٣٣
ما به الطمأنينة ١٣٣
تحليل أسباب الرد والقبول ١٣٤
سيرة الرسول ﷺ في القرآن ١٣٥
[حادث سياسي] ١٤٠
واقعة ثالثة ١٤١
واقعة رابعة ١٤١
المقالة الرابعة: دراسة تاريخية لموضوع الدراية وفقه الراوي: ١٤٥
رؤيا الشيخ التهانوى ١٤٥
كتب جارحة ١٤٧
العطايا الإلهية ١٥١

ما هو الفقه ؟ ١٥٣
المصطلح الشرعي ١٥٤
فقه الاجتهاد ١٥٥
فقه التقليد ١٥٦
الدراية ١٦٣
فقهاء العراق ١٦٥
فقه الراوي ١٦٦
عصر الانحراف والفوضى ١٦٧
الفقه ونقد جمع الروايات ١٦٨
أثر فقه الراوي ١٦٩
شرط فقه الراوي وأكابر الحنفية ١٧١
الدراية الجديدة ١٧٤
السيد أحمد خان ورفقاءه ١٧٥
طبيعة السيد أحمد ودراية شبلي ١٧٥
الدراية والحنفية ١٧٩
أثر الدراية في الفقه الشائع ١٨٠
الإمام أبو حنيفة والقياس ١٨١
موقف العلماء من هذه الدراية ١٨٢
دراية اليوم ١٨٤
سيرة النعمان وحسن البيان ١٨٤
ملحوظة ١٨٦
المقالة الخامسة : حول واقعة الإفك ١٨٧
أجزاء المقال ١٨٧
أوهام الثقات ١٨٨
حديث آلافك والإمام الزهري ١٩٠
طرق حديث الافك ١٩١
الإمام الزهري والرواية بالمعنى ١٩٧
الادراج ١٩٧
الإمام الزهري وعروة بن الزبير ١٩٨

قتلة عثمان وحرب الجمل ١٩٨
طمأنينة المنافقين ١٩٩
الميرزا حيرت والسيد سليمان الندوى ١٩٩
عصر وضع الحديث ٢٠٠
من هم قتلة عثمان ؟ ٢٠٠
مبحث فدك وخيبر والإمام الزهري ٢٠٢
حديث الافك في كتب الحديث ٢٠٣
معنى الدراية ٢٠٤
المعنى الصحيح للدراية ٢٠٥
شبهات ناشئة من الدراية ٢٠٦
الشبهة الأولى ٢٠٦
الرد على هذه الشبهة ٢٠٦
نسيان الوقائع المهمة ٢٠٧
الشبهة الثانية ٢٠٨
الرد على هذه الشبهة ٢٠٨
النسيان طبيعة الإنسان ٢١٠
رجاء ٢١٩
حديث آخر ٢٢٠
هناك نقص ٢٢٢
شبهة أخرى ٢٢٤
فهرس الموضوعات ٢٢٦

★ ★ ★

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com